
A NOVEL
رواية
الوقت
زحمة
حسام حسن سامي
موجة
للنشر والتوزيع

الوقت في زجاجة

اسم الكتاب : الوقت في زجاجة
المؤلف : حسام حسن سامي
غلاف : محمد الصفتي
تدقيق : أمنية مجدي
إخراج فني : مريم محمد سيد
رقم الإيداع : 2528/2023
الترقيم الدولي : 978-977-86516-1-4

مدير النشر: محمود عبدالعال المدير التنفيذي: أميرة رأفت

رئيس مجلس إدارة الدار:

اسلام محمد إبراهيم

الوقت في زجاجة

حسام حسن سامي

شيء من مخاوفي، أفرغه من رأسي إليك في الصفحات القادمة.

تمهيد

تقدمت المذيعة بارعة الحسن وانحنت إلى مقعدها تجلس، لحظة واحدة تطلعت إلى جمهورها الذي لا تراه. ثم ابتسمت بعذوبة تمهيدًا لعرضها الريبورتاج المعد لهذه النشرة. ومن شاشة التلفزيون انبعث صوت جميل ركب على صورة أجمل، هو صوتها العذب تقول: "صباح الخير، نعرض لحضراتكم لهذا اليوم موضوع في غاية الأهمية، ليس جديد سبق بالفعل وتحدثنا عنه، لكن هذه المأساة لم تكن عرضًا مرضي زال بعلاجه، الأمر مستمر. للأسف وصل تقرير الشرطة مساء أمس حول العثور على جثمان آخر يحمل صفات مماثلة. جثمان يشبه سابقيه، وكان الجسد قد شوه نتيجة ما تعرض له فطمست ملامحه المميزة، جسم تم اعتصاره تمامًا، اعتصاره إلى آخر قطرة سائلة بجسده. جفاف عنيف أطبق عليه، كان الجسد حينما وجد شديد الشحوب متخشب في درجة مرتفعة، في غاية النحالة، جلد هو على عظام بالمعنى الدقيق، جلد مشدود بطول الجسد، وعلى رأسه وضحت علامات لتساقط طارئ للشعر نتيجة ضمور القشرة ليبقى الرأس في حالة صلع كامل. هو أمر غريب بالفعل، كأنما هو أن تم امتصاصه بالكامل ليظهر بمثل هذا الذبول. وفي ذلك لم يسهل تحديد هويته، إلا أنه وجد بالقرب من جثمانه العاري كومة متكورة عند تفقدها تم الاستنتاج أنها ملابس الفقيد وقد كانت مبللة بسائل

شمعي صعب تحديد نوعه، وفيها تم العثور على أوراق تخص الفقيد منها ما تم التعرف به على هويته. وكان الأمر بالحقيقة غاية في الغرابة، وبرغم أنها غرابة شهدنا بمثلها قبلاً إلا أن هذا لا ينفي ولا يرجح ابتذال صفة الغرابة فيها، الأمر بالفعل غريب. الجثمان في حالته الظاهرة يبدو وكأنما هو لشيخ في غاية الكهولة، أما الحقيقة فهي أنه شاب آخر. ٢٦ عامًا، شاب يدعى عمار محمد عبدالسلام. شاب آخر، ويد المسؤولين مازالت مكتوفة. تساؤلات لا إجابة لها، وإلى متى سيظل غموض الأمر يعصف بأذهاننا؟

أما في التقرير التالي، فنعرض لحضراتكم أسباب موجة غلاء الأسعار القادمة والتي كانت لازمة تبعًا لجهود التنمية وإجراءات الدولة المتفانية في تهيئة المجتمع والناس في سبيل اقتصاد أفضل، ولأننا في برنامجنا نهدف لإثرائكم بكل جديد و.."

وظلت مبتسمة

وظل صوتها يأتي عذبًا

وظل لا أحد يبالي..

١

في يناير ١٩٨١م، الشتاء الماضي كنت ههنا، أجلس بنفس المكان. ربما وقتها شملتني ظروف أخرى، أما اليوم فقد شكلتني ظروف أخرى. أنظر لمن حولي في كل أرجاء القهوة، إلى الناس فلا أرى فيهم إلا أشكال مسخت على هيئة واحدة، فعل واحد. تماثيل حجرية، نحن، نتدهور مع تقدم الزمن. ومثل تدهوري كنت أحسب أنني لن أراه في سواي، تمنيت ألا أراه في تعس آخر. لكننا ههنا تحت سماء هذه البلاد مرايا لبعضنا البعض. انقضى شتاء هذا العام سريعـًا، وانبثق لنا من جحيم ما الذباب في كل مكان محتفيًا براعيه القادم. يحوم الآن من كل حدب حولي، يتسامر ورفاقه على طاولتي، يصعد جدار كوب الشاي، يفرد بعضه أجنحته تباهيًا واغترار لوصول حواف كوب الماء. لا يهشون مهما هششتهم، يحلقون كحق طبيعي لهم في هذا المكان، في هذه الفترة الزمنية. حل مايو عليَّ كالقضاء المستعجل، ومازلت إلى حد ما في الشارع. مشوار بدأته من ديسمبر في العام المنصرم، وإلى الآن حتى لم أتخط بدايته. ذابت كعوب أقدامي طوال أشهر بين هنا وهناك، وبلا فائدة. بلا أي جدوى حقـًا. حتى إن بدأت رحلة أخرى للبحث عن رصيف ملائم لا يكشر لجسدي، ويكون به شيء من رفق، شيء من لمسات حنونة. حتى إن وجدت ذلك الرصيف، لوجدت أوباش آخرين وقد وضعوا يدهم عليه وجعلوه ملكية خاصة. الوضع من حولي في فوضى متلاحقة، فوضى بدأت فور وفاة والداي حزن طارئ مزقني. وفاة أبي ثم من

بعده بقليل أمي، تاركين وحيدهما يجوب طريق ضبابي أخطاره مجهولة. وليتني أمهلت الوقت لأحزن، أبدًا. ساعات فقط مرت منذ دفنت أمي، ليحل على رأسي في ذات المساء مالك العمارة الحلوف، يأتيني متصنعًا الرثاء لحالي، يعزيني وهو يضمر ليَّ بنفسه شرًا. ثم يقول بصنعة لطافة أن عقد إيجار البيت كان باسم والدي ولا يجوز نقل ذلك إليَّ إلا في عقد جديد. أما هذا فلن يكون. قال الشيطان ابن السافلة إنه يريد تحويل الدور لكافتيريا عصرية مستغلاً خلو الشقة المجاورة والسفر الدائم لصاحب الثالثة من نفس الدور والذي انتظر بفارغ الصبر انقضاء مدة عقده، ثم بغير إذن اقتحم شقته وأفرغها من أغراضه مودعًا لها في مخزن سفلي علَّ المسكين يأتي يومًا ويطالب بحقه. وتوقف أمر انقضاء مشروعه عليّ، عليّ وحدي. وبالنسبة إلى حيوان مثله لم أكن إلا هرًّا وديعًا، عقبة سهلة لا تهش ولا تنش. لم أدرِ ما أفعل، وعجلني هو في شيء من لباقة واستعطاف لزج ثقيل بأن الدنيا أصبحت لا ترحم، وأن الملاليم التي يأخذها منا لا تكفي، لا تكفي أبدًا في هذا الزمن. طلبت مهلة حتى أجد غيرها، ليتحول فجأة من هيئة المستعطف المهذب اللبق إلى شيء آخر أكثر سفالة ووقاحة، في يوم وفاة أمي لينذرني بأنه لن ينتظر أكثر ولو استلزم الأمر لرماني من فوره في الشارع!

في شتاء يناير، جاء بي أبي إلى هنا. شارع تحت الربع، جلسنا في هذه القهوة بالذات، أخبرني في ذلك الحين بصوت صادق أنه لن يعيش طويلاً لي، أراد لو يزوجني في أقرب فرصة. مازحته وقتها بأني لست في حالة تسمح، لست مسؤولاً كفاية. وفي باطن نفسي كنت أخفي عنه مدى خوفي أن يولد لي أطفال في هذه البيئة. مصير أودعه

الخالق بين أيديهم ليحددوه، تنتزعه منهم هذه البيئة. يصاغوا في قالب مماثل يتماشى مع العيش تحت سقف هذه البلاد. كنت خائفًا، كنت سلبيًّا، وربما لضعف مني لم أفكر في أي حل. ابتسم أبي حينذاك كأنما قد قرأ ما بخاطري، وقال: "لا أحب أن أراك وحيدًا" ضحكت في رؤيتي لوجهه البشوش، وأخبرته بأن لي أصدقاء، لي شلة من التعساء تضمني. كنت إلى حد ما ناجحًا اجتماعيًّا، كونت صداقات لا حصر لها في مرحلتي الجامعية. أحببت مرة أو اثنتين، وتركت نفسي لأنجرف في علاقات رومانسية عديدة، علاقات هدفت منها لو أعوض نقصًا ما بداخلي. وكانت جميعها بنهايات متماثلة. أريد أن أُحبَّ، أحبُ أن أُحبْ. لكن الزواج، الانصياع لهذا الأمر لهو خوفي الأول. وكنت صريحًا في ذلك، كل من عرفني، كل من تقرب مني رأى في وجهي هذا، البعض نفر، والبعض أحب التجربة على أي حال. أرقت تلك الليلة بسبب كلمات والدي، نبرات صوته الصادقة ظلت تنغص عليَّ طيلة الليل، زارتني كوابيس سوداء. هو صديقي، صديقي الأعز ولا أحب ذلك الإيحاء الذي التمسته في كلماته. وكان الإيحاء برغمي صادقًا، فارقني أبي إلى جوار ربه.

شملني بعض الأصدقاء بالعناية بعدما عزلت قسريًا من البيت. لكنه كان شيئًا مؤقتًا، لم يبتلعه كبريائي. وصرت أرى هاجس لا يفارقني عن مدى كون ضيافتي ثقيلة. لم يصارحني أحد بذلك، بل على العكس ظلوا دائمًا يعاملونني بود، زاد باعتباري قد صرت رسميًّا أخًا لهم. ظللت أنتقل فيما بينهم، أقضي يومين هنا وآخرين هناك، وقت كاف أتحاشى به ثوران نفسي وهيجناها عليَّ. لكن إلى متى، إلى متى تقبل نفسي مثل هذه المساومة؟ شيء عجيب يطل إليَّ والله.

لم أكن أحسب هكذا شيء قد يباغتني في حين من الأحيان، لكن تبقى تصاريف الدنيا غير متوقعة بحال. طيلة اليوم كنت أدور على عقبيّ كما كل يوم، بحثًا عن موضع مناسب يضمني إليه، يكون مناسبًا لملاليم جيبي ولو حتى لفترة من الزمن. تركني أهلي بميراث هائل من الحب والسريرة النقية. تركاني بشيء ثمين حقـًا، لكن في عهد الانفتاح يثير الشفقة والرثاء للحال أن تقبض على هكذا مبادئ. وبين يدي الآن أقبض على أفراخ ورق الجرنال اليومي. عل ينبثق إليّ أمل ما، أقلب الأوراق بعينيّ، أجوبها من فوقها إلى أسفلها، أبحث عن بصيص نور في أي زاوية، في كل نص مقال. إعلان، إعلان ما. مسكن يبتلعني لأيام ولا يلفظني وقروشي بين بصاق فمه. أي شيء، أي شيء. أيًا كان. شيء لا يثير حقدي على أقنان الدجاج، وكيف لا أراهم هكذا في سلام وأمان ودفء بغير أن أضحك من نفسي وقتما يثار حقدي. وكانت العناوين في وجهي بارزة مزينة في لون دموي يكاد يعميني. لكن الأحداث الراهنة أسفلها لا تشجع نفسي الساخطة بالتصديق على قراءتها جملة. أختصر بنظرة أو اثنتين المضمون من الخطوط الرئيسية، وأتجاوز باحثًا عما أبحث عنه. ترتعش الكلمات تحت نظري، ربما تحط عليها ذبابة أو أخرى كل حين. أنفخ وأهش وأقلب الأوراق بعصبية، شعور يمزقني من الداخل بنفاد الوقت. لكن أي وقت؟ نفاده على ماذا؟ وتتوه الفكرة بين فصوصي الدماغية. ولاحظت الآن للمرة الأولى مدى ضغط يدي القابضة على الجريدة. الأوراق تكاد تتمزق!

٢

أن أهتدي لهذا المكان دون غيره، أن أجلس في ذات الطاولة التي سبق وجلست وأبي إليها لهو أمر يبدو وكأن وراءه مغزى ما. طالما آمنت أني وقت أفعل شيئًا أو أجد نفسي قد انخرطت في أمر، أظن أن وراء ذلك دفعة من يد حكيمة. لم أخطط أن آتي هنا اليوم، بل ربما خططت لهذا نفسي. ربما شاءت لو تسد ثقبًا واحدًا من وسط فراغات كثيرة خرمتها. هناك أمور لا أستطيع تجاوزها، الحزينة منها تترسب وتستنقع بها روحي. مددت يدي خارج إطار الجرنال إلى كوب الشاي، وما كدت أرتشف منها بعين غافلة لا ترى إلا سواد الكلمات في الأفراخ أمامي، حتى تذكرت نفاده. فرغ الكوب من الشاي، وراحت عيناي إلى الكوب في يدي، فرأيت أن الذباب حل محل التفل وربما تعاشر وتبرز بيضه بالداخل. أيًا كان ما يمكنه أن يخلصني من هذه الكائنات المقرفة لهذا الصيف، سيجعلني في حالة امتنان له دائمة ولربما لأبد حياتي. زعقت في النادل أن يأتيني بكوب شاي آخر ويرمي ما على الطاولة إلى جهنم الحمراء بلا رجعة. ودقائق قليلة حتى وضع بجانبي، ثم فور أن طويت الجرنال وقد اكتفيت، رأيت رجلًا قصيرًا سريع الخطى نصف جسده العلوي تشكل دائرتان إحداهما لرأسه والثانية هي كرة ضخمة من الدهن واللحم شكلها كرشه كروي التكوين، يرفع بنطاله بحمالات إلى كتفي قميصه. وقد

كان الرجل متعرقًا بشدة، مبتل الإبطين والظهر. ولمّا قبل إلى القهوة إنهار إلى جانبي على مقعد لطاولة برانية. معه حق، ما احتملت أنا بنفسي الجلوس بالداخل وتجرع الحر الخانق ضعفين. أخرج من جيب بنطاله منديل يغطيني وهو سويًا، ثم بدأ ينزح العرق عن جبينه. عن كل شيء حقيقة، ولولا الحياء لقلع ملط وطلب مني تجفيفه. عدت إلى عزلتي أبتلع إعلانات الجرنال بعينيّ وأمخضها من أنفي. وما مرت ربع ساعة حتى فرغ الكوب، وحل الذباب محل التفل. إلا وقد وجدت جاري في المقعد يميل نحوي ليتحدث، شممت فوحان رائحته قبل أن أسمعه.

-"إذن أهنالك جديد يحدق بنا؟".

وأجبته بخنقة صوت: "جهود تنمية لا حصر لها!".

-"يا سواد السواد.. آه".

ورحت لا أنظر له، وأتحدث كأنما بيَّ شرود: "لا جديد، كل قديم يتجدد".

وسمعت منه ضحكة صافية متفجرة بعد أن قال: "كما حياة الأبراص".

قرف آخر. ولأن وجهي كان منكبًا في صفحات الجريدة فخفى عن عينيه مدى الاشمئزاز الذي ارتسم عليه. ولا أدري أيهما أكثر لزوجة، المثَّل الذي ضربه أم طبقة صوته المفتعلة للطرافة بقصد عفوي. على كل لم يبد عليّ استجابة وكان قد ابتلعني صمت جديد.

حدقت في الكلمات أمامي بذهن مشتت عن فهم ما أنا ناظر إليه، رسومات. رسومات أحدق فيها وأفكار رأسي تموج بيَّ وما زلت في حالة استسلام شاردًا لها. ربما كان هذا في أواخر صيف ١٩٧٧م بحسب ما أتذكر، في ذلك اليوم حل على كياني شعور مماثل. شعور يلامس حواف التيه. حين قررت باندفاع وقليل من شطحات التهور وقت غطست شاطئ رأس البر أن لا أقف عند حد في سباحتي، أن أغوص قدر استطاعتي. شكل ليَّ الأمر تحديًا، أم ربما ليس كذلك؟ هناك أشياء غير عادية تطرأ عليّ في أوقات مثل هذه، أن أتسلق جبلاً ثم أفكر فيما سيحدث لو قفزت من القمة. ولمَ لا أجرب وأرى؟ شيء جنوني بالطبع، أمهل دماغي لتفرغ مثل هذه السموم ولا أفعل شيئًا، أمهل للخيال قدر ما شاء طالما يبقى حبيس رأسي. وحين ينطرح في خروجه من محجريّ عينيَّ إلى أرض الواقع، يصير مروَّضًا شديد الإذعان ليد المنطق ومجريات الدنيا. إلا في تلك المرة. أحيانًا يكون الخيال هو هروبك من مصير حتمي مقدر أو واقع سخامي مهبب، وفي أحيان أخرى يكون الخيال هو المصير الذي يطارك. تلك المرة كان هو الاثنان، كنت أعوم متجاوزًا حد المسموح، وصلت إلى آخر حزام الشاطئ، غطست أسفله وحين خرجت ببسمة متطلعة كنت في منطقة الغريق. لم أقف عند هذا الحد، وما يجعل الأمر مثيرًا للسخرية أن قدارتي في السباحة ليست بذلك القدر. أردت أن أصل إلى حد لا أعلمه، حد حين أصله سأعود. سأعود وقد تشبعت رغبتي، جمح خيالي. ومثل إيكاروس أردت التحليق إلى تلك البؤرة النارية في السماء ناسيًا أن لي جناحين من شمع. حين

بدأت الخوض في البحر بقي هادئًا مسالمًا، وربما في لحظة ما أدرك أني أتحداه. ثم هاج، علت أمواجه شيئًا فشيئًا، تخطيت بعضها وبعضها كنت أغطس فيها لكنني أبقى ضئيلاً في مصارعة هذا الكائن الجبار. وفي لحظة ما أدركت شيئـًا بديهيًّا، رمال الأعماق ابتعدت كثيرًا عن قدميّ. ثم بدأت الشعور بشيء ما يبطئني، شيء يشدني إلى أسفل. ولمحت عينيّ الشبح تحت سطح الماء. رأيتها تنظر فيَّ بجحوظ، تبتسم إليَّ بشفاه رمادية ووجهها شديد الشحوب لون اللبن المتخمر يرتفع ببطء وتموج نحوي. أمسكت ساقيَّ، زاد الجذب. توازني بدأ يختل، وما يمكنُني الاستمرار في الطفو على السطح تكتف وبدأ يشل. قلت مقاومتي، قل الرفس وقد تمكنت برودة ذراعيها الحاضنة لساقيَّ من اختراق لحمي، لامس التجمد عظامي. جرتني حد صدري إلى الأسفل، وكانت عيناها ترغبني، تكاد تبصقها من وجهها لتلامسان وجهي. وكم شعرت بالغيظ. ربما كنت سأستسلم أترك نفسي لها. لكن عينيها جعلت شرارة ما تتفجر في نفسي. ارتفع الماء فوق ذقني. تفجر الغيظ. اليدان اللتان كنت أحلق بهما أو أتوسل خيوط البحر لتجذبهما إلى الأعلى، تنتشلني من ورطتي تلك. استخدمتهما لأول مرة في شيء ذي جدوى حقيقية، شيء نافع. ضربت بهما عينيها في عنف وشدة. في كره حقيقي غصت بكلتا يداي في تجويف كل منهما. ورأيت بعجب بعد ذاك، سائل أسود يفيض منهما. يصبغ لون الماء في محيطي. وأنفك ذراعها عن ضم قدميّ. وكنت محدقًا في فمها الصارخ، وصرختها الخرساء. وحين شعرت بالحياة تعاود طرفيَّ تحت الماء، التففت أنهب مسار العودة في سباحة عجولة مضطربة.

وكنت في ذلك أتحرك بفزع تلطم مجاديفي بجنون في الماء. لكنني لم أغفل الظل الذي ارتفع فوقي، الظل الهائل الذي غطاني وغطي كل الحيز حولي. إنما هي موجة كرهت هروبي. ثم عرفت أن لا جدوى من هروبي. أنني أمامها أركض في مكاني. ذلك الحين استسلمت لما يأتي. تموجت في رأسي أفكاري وشردت عيناي في كيان الموجة رائع التكوين. أغمضت عينيي. ضربتني بقسوة. يد من السماء هبطت ولطمتني. وحين فتحت عينيي، وجدتني يحترق جسدي فوق رمال الشاطئ. من حولي كان عدد من الناس، وتكفل بإفاقتي رجلان شديدان، عرفت فيما بعد أنهما حرس الشط اللذان ببصيرة ما رأياني في معركتي مع الموت، ومعجزة ما انتشلاني من بين مخالبه. ولفتني شيء جعلني أنظر إلى يميني، كنت مستلقي وكانت هي إلى جواري. جثمان تمزقت عيناه. أنقذت هي أيضًا لكن بعد موتها بثلاثة أيام. هكذا عرفت فيما بعد أجزاء من قصتها. لم يحالف المسكينة حظ مماثل، ماتت بغير أن يدري بها أحد. وتمزق قلبي حين أقبل أهلها من حولي وحولها. وفي أعينهم رأيت نفس النظرة، نظرتها التي أغاظتني. الحقد على نجاتي وموتها، لعنتي لنجاتي دون نجاة عزيزتهم.

فح جاري في المقعد رائحته صوبي، فعاد إليّ ذهني منتظرًا ما سيقول. ولم يتأخر بل نطق على الفور: "إذن، هل الأخ عواطلي آخر؟".

لم يكن ينظر إليّ، بل تحفر عيناه في السيقان والأكتاف المتلألئة لكل من الغاديات والرائحات، بغير أن يهتم أكانت أجنبية أم بولاقية. بل كانتا عيناه تتابع تموج مؤخرة إحداهن والعرق يغمره ويحفر

أخاديد وجهه، حين أجبته بتأفف: "الأخ لا مأوى له" ولم أستغرب نفسي كثيرًا لمصارحتي بشيء كهذا إلى مثل هذا الرجل، إلا أنني ما حسبته إلا حثالة آخر لا يستأهل جهد المراوغة أو التجاهل. وربما أيضًا لأنني لم أرَ أي فارق. فقط أكب ما بنفسي سأمًا.

حينذاك عادت عيناه من نسج أحلامه الجنسية، ونظر إليّ بشيء من حذر، ولحظة أو اثنتين بدا كأنما يتفحص خلقتي. ثم رأيت على شفته بسمة بلا طعم. بها قدر من الخبث، أو هذا ما تصورته. لكن من قال إن حساسيتي المفرطة لهذه الأيام لا تفرض على عقلي أمورًا لا أصل لها؟

ثم قال بلا مواربة: "هذا ما حسبته وأنا أراك منهمكًا في مطالعة زوايا الأخبار دونًا عن العناوين البراقة الرئيسية".

وأردف وبسمته تتسع: "مسكنك عندي؟"

من ظن أن مثل هذا يبرز منه أي أمل! حكمتك يا رب.

-"حقًا؟" تساءلت ثم طعن صوتي شيء من حرج وأنا أقول: "لكن الحال ليس بجيد عليّ هذه الأيام، لذا أخشى أن تكون التكلفة..".

وهب يقاطعني، ليقول بانفعال: "لا لا، لا تحمل همًّا.. لك فترة ههنا في الدرب الأحمر، ولم تسمع أبدًا عن الست نوال الكيلانية؟".

وكان طنين آخر وراء أذني يضايقني، عدت ببصري إلى تلفزيون القهوة الصغير، وكانت لا تزال تلك المذيعة تتصدر الشاشة وتلغو في حديث وراء حديث في نشرة مملة لا تنتهي. نظرت إلى صاحبي في المقعد وهممت أنهض معه.

٣

ذاب الذباب. ماذا أقول؟ سار بي الرجل طريقًا خلف آخر بغير أن يخف ثرثرة أو تكف عيناه عن الانتفاخ إلى خارج وجهه عند كل عابرة. هذا بني آدم شبق بزيادة ولا مواربة. ولعلي لعنت نفسي مرات لا حصر لها لاتباعي له. لكن ما الحيلة؟ يوضع سره في أكثر خلقه هياجًا. فلا أرى فائدة من التنصل الآن. لكن المقصد لم يبعد كثيرًا. كنا في حارة الروم حين توقفنا أمام عمارة صفراء لوّح الزمن لونها. وتقدم الرجل وأنا من خلفه نحو مدخلها. فصلت قدمي عن تجاوز فجوة البوابة خطوة. حين هبت من الظلام المحيق الذي يطل إليَّ من بين مصراعيها المفتوحين، ريح عتيقة، شعرت بنفسي لا ببدني وحده أنها تود لو تقتلعني من مكاني. تصدني عن الدخول. وتوقفت للحظات، شبر بيني وبين الدخول. وشعرت بأنامل اليد الحكيمة تتلمس صدري، تدفعني برفق أن أرجع.

-"إيه يا أستاذ، ما لك تقف هكذا؟ أدخل".

شعرت في تو اللحظة أنني قد انتزعت من شيء كدت أنغمس فيه، وعدت ببصري إلى الواقع. وارتبكت وأنا أرى نظراته تشجعني على الدخول. دخلت. ثم ماذا يا ترى حدث؟

ما الذي جرى حقًّا؟ شبر واحد إلى الداخل. وفجأة لا ضجيج، هدوء لا آخر له مريح مخدر. ولا، ولا أيضًا ذباب! ذاب الذباب حولي وفي كل مكان لم أشعر بواحدة تطن. أولئك القوم ساكني هذا المكان يعتنون بأنفسهم. حقًّا؟! لماذا إذن تراني أرى الغبار يضع بصماته بطول أرضية البهو، ليس بكثافة، لكن ما يكفي. وحين أنظر إلى درجات السلم بخلاف لونها الذي يقترب من الرمادي إلا أنني رأيت بعضها فيه ميلان. على كل تلك صارت مقومات أساسية في كل عمارة قاهرية. لكن أيضًا معها يبقى الذباب. هنا لا يبقى. حتى تلك السخيفة التي كانت ملتصقة بقفايا طول الطريق لا أجد لها أثرًا الآن. وحين بدأت أصعد درجات السلم وراءه مسترشدًا، أدركت أن الميلان حقيقي، والوسخ يطفح من بين البلاط. لم نصعد كثيرًا. فقط حتى الدور الأول، وعند شقة بعينها توقفنا ليطرق صاحبي بابها. والتي كنت أعرف أنها تعود لتلك المدعوة نوال الكيلانية، صاحبة كامل العقار. حسنًا. تنهدت آملاً بأن يكون في الأمر خير.

ثم فتح الباب. وطلت إلينا سيدة في خمار أزرق بدا أنها ارتدته في عجالة لتغطي على رأسها إذ لم تتوقع الزيارة. لها وجه بشوش يشع طيبة. ليست كبيرة إلى هذا الحد الذي تصورته. رحبت بنا، وحياها الرجل بانفعال ومبالغة فعرفت أنها المقصودة. أدخلتنا إلى حجرة الاستقبال، فجلست ورفيقي إلى كنبة تركية. وحين عادت إلينا حملت بين يديها صحفة عليها كوبا عصير تجلت برودتهما في بخر على جدرانهما. وجلست هي في رزانة إلى مقعد قبالتنا. انتظرت أن يفتح رفيقي الكلام، لكنه هب بلا انتظار تشمل يده الكوب. وجرعها

كاملة في فم واحد بصوت مسموع. وفارغة بلا قطرة أعادها إلى مكانها قائلاً بمرح: "من يد لا نعدمها".

وكان بي حرج، شعرته السيدة فنظرت نحوي -والحق أنها لم تنزل عينيها عني- لتقول: "اشرب يا أستاذ، قد أرهقكما المشوار في الحر حتى هنا". وفعلت. وكنت بلهفة وأنا أمد يدي صوب الكوب البارد. وعاد الكوب حيث موضعه بلا قطرة. فعلت بالمثل ما فعله سابقي. وشعرت بأن حيويتي تتجدد بتنبيه من صداع لذيذ.

- "الأمر وما فيه يا ست الكل، أننا ههنا اليوم لأننا نريد التشرف بالقرب من حضرتك..".

نظرت إليه بعجب، ثم إلى السيدة فشعرت بشبح بسمة ترتسم في حياء وجهها.

-"أعني أنه يود لو يكون مستأجر لديك، هذا بالطبع إن تكرمت علينا بمثل هذه الجيرة".

كانت تنظر إليّ الآن، وكنت أجاهد في المحافظة على ابتسامتي، لكنني كنت متيقناً أنها تبدو عليّ كما لو كان يعتصرني إمساك بالمعدة.

قالت: "أنت غريب عن هذا المكان يا حضرة، صحيح؟"

- "هو كذلك".

-"من أين أنت؟"

-"من شبرا يا ست".

وتجلت على ثغرها ابتسامة، كالمبتسم من صحة يقين. فقالت: "لهذا وكلت السيد عكاشة لينوب عنك في هذا الأمر؟"

تمدد من فمي نفس حار، قلت في إثره وقد منحت جاري في المقعد نظرة شرزاء: "الحق أنه هو من أناب نفسه نيابة عني".

حاولت أن أبقى مبتسمًا لأبقي على حالة الود في المكان، لكن ابتسامتي المفتعلة تفككت. فضلت طبيعتي: "الحق حتى أنني ما عرفت اسمه حتى اللحظة".

ثم ضج صدرها بضحكة منها، فاجأتني بقدر فيها من المجون. وابتسم رفيقي هو الآخر بحرج، ليقول: "معذرة، تعجلت خدمتك فلم أكد ألحظ مثل هذه الأمور".

عادت السيدة بخفة إلى وقارها في تلون عجيب، لتقول في ذلك: "على العموم تبدو شابًّا محترمًا، وكن مطمئنًا أنني لا يسكن عندي أناس غير هكذا. أما عن طلبك فلا أجد ما يعذر قبوله".

ثم بتفرس تفحصت وجهي: "عانيت كثيرًا في أيامك السابقة".

وابتسمت أقول في نبرة سمعتها مريرة: "هي أيامي وأقضيها".

تلك النظرة، تلك مجددًا؟

شيء من خبث راودني فيها. ظلت محتفظة ببسمة على ثغرها، وهزت بتفهم رأسها.

خرجت وهو من الشقة. تمهلت قليلاً بعد أن أغلق الباب وراءنا، ثم تحركت خلف عكاشة. تقدم السلم درجة درجة، وبملل لكن بتلهف تبعته. صعدنا الدور الثاني، لم يتوقف وتابع يصعد نحو الثالث. لكني من فعلت، توقفت للحظة أو اثنتين حين سمعت صوت فتح شراعة باب شقة من نفس الدور تطل على السلم. ومن هناك من الفجوة الضيقة بزغ إليَّ وجه غير واضح الملامح بشكل تفصيلي، لكنه بدا تحت واقع رؤيتي وجه ممدد بشكل مبالغ، له بوز ضخم في زاوية منحدرة مدببة. أما ما شغلني فيه، وجعلني أتصلب في موقفي هي العيون. عينان منتفختان في سواد شديد لونهما، بلا جفون. بلا أي جفون، ورأيت بغير تصور أو زعم من خيال. أنهما تكبران باقي الرأس. شكل حفر في دماغي فور أن وقع نظري على مراقبي، والذي سرعان ما أغلق الشراعة. ليتركني في حيرة غريبة.

-"المصعد عطلان، وبعدين الشقة هنا في الدور الثالث ليس الأمر بذلك التعب!" هذا ما نادى به عكاشة فيَّ، وهو يراني قد توقفت دون أن أبارح مكاني وقد حسبني أتذمر. صعدت السلالم فالدور الثالث. أريد أن أنام. أو أقلها استحم لأتيقظ. التراب يغطيني، يغطي رأسي ويغطي تركيزي. أنني واهم، أتوهم بفعل الإرهاق. أتمنى فقط ألا أفسد الأمر، يعلم الله وحده ما جرى إليَّ حتى مد بمثل هذا الحبل اليسير. كان الدور يحوي ثلاث شقق، فلم يكن الرواق بينهم بذلك الاتساع. وبالمنتصف توقف عكاشة يعالج باب الشقة المختارة. توقفت خلفه، فور فتح الباب اقتحم هو المكان بالدخول. ثم تحركت أنا معه. ومضى بي بجولة يستعرض المكان. والحقيقة أني كنت موافقـًا

قبل أن أدخل. موافقـًا بغير أن أراها، ولو كانت عشة طيور على السطح. كانت الشقة عارية تقريبًا من الأثاث رغم أن الولية صاحبة العقار أقسمت أنها مفروشة. وبالمطبخ بعض الأواني والأوعية ربما أهملها ساكنيها السابقين، وفريجيدير وحيد لحفظ الطعام. ثم انتقل بي عكاشة إلى حجرة النوم، وقد كانت بسرير منفرد عريض وبدا تحت نظري أنه أروع شيء بالشقة. وصوان قديم في الركن. وقد فرشت الأرضية بسجادة فارسية مقلدة بهت لونها.

-"الشقة لم تهمل طويلاً، بالفعل تبقى على حالتها جديدة. إذ إن الذي سبقك في شغلها لم يرحل إلا منذ فترة بسيطة".

قال هذا حين عدنا إلى الصالة من جديد. ولم يكن بي إلا أن قلت: "قل لي يا عكاشة. صارحني، ما صفتك في هذا الموضوع؟"

وتابعت حتى لا أمنحه منفذ للهرب: "لا تعرفك صاحبة العقار فقط بل وتستأمنك على مفتاح الشقة، وعرضها عليّ؟"

أخرج منديله المحلاوي، ومسح ما تفصد به جبينه من عرق. ليقول في نبرة متوترة: "لأنك طالبت بالصراحة، فلينقطع لساني قبل أن أنطق بغيرها، أنا ههنا سمسار، أخدم بعيني من يريد. وأنفع تلك السيدة الوحيدة التي لا رجل لها بغير أن أحرم نفسي من المنفعة أيضًا. تجدني سمسارًا تارة، أو أرزقي أخرى أو حتى بائع خردوات. ولي مكتْب متواضع في الحسينية.. لكن في النهاية ما يهمك، تريد الشقة ولك الشقة؟ أم أنها لم تعجبك. لو هكذا فلا دخلك شر، نرجع المفتاح إلى الست".

مددت بيدي إليه. فابتسم وسرت على منخاره العريض قطرة عرق. يعرف أنها أعجبتني قبل أن أخطوها وكيف لا وسعر إيجارها الذي عرضته السيدة ليس بذلك الشأن مقارنة بغيرها. حماقة هي الرفض. وبغير مواربة ناولني المفتاح. وظلت بسمته في وجهي كالنذير.

٤

ساعتان مضتا منذ خرجت مع عكاشة ومعي مفتاح الفرج. ركبت مواصلة إلى عابدين حيث يقطن صديقي عبد الجواد فهمي، والذي لم يمانع سكني معه طيلة أيام فائتة. بالحق كان الرجل متفهمًا رائع الخلق. ولهذا استغرب فعلي كثيرًا لحظة ما دخلت عليه أبلغه بالخبر السعيد. أخبرني أن الوضع لم يستأهل كل تلك الأزمة التي خلقتها، ثم سبني بأمي يلومني أنه لم يشتكِ أو يتذمر من رفقتي. الشقة شقته، هو وحيد بها منذ توفي والده وتزوجت أخته. لامني كثيرًا لصنع مثل تلك الكلفة. ثم لمّا رأى أن الحدة لا تأتي معي بنتيجة، خفف من نبرته. وقال يمازحني: "أقضيت نهار عطلتك كله تبحث عن مسكن يا معتوه العقل يا ابن المعاتيه!" ثم ضحك يقول: "على كل حال الحمد لله، سأجد مكانًا لأضع به الديكودر بعدما تخلي معك كتبك اللعينة هذه!" وبالفعل شرعت أجمع أغراضي بحماس، ولم تفتني نظرة عبد الجواد المشفقة.

كنت بالتاكسي حين تأتّى إلى مسامعي أذان العصر عن مساجد القلعة. وأمام مدخل العمارة الصفراء توقفت السيارة ونزلت منها. انتظرت حتى يأتيني السائق بالصندوق على السقف، ولمّا فعل تناولته منه شاكرًا. وتحركت صوب وجهتي. الواقع أن الصندوق كان به ثقل، ما جعلني أتوجس من أمر السلم ودرجاته المائلة. لكن على

كل يبقى الأمر جيد إلى حد بعيد. كنت أحمل فيه كل أغراضي تقريبًا. الكتب والروايات التي التقطها على مر السنين. ملابسي. القليل من هذا وذاك وأشياء من تلك القبيل. وتبقى أغراضي الأساسية في مخزن المسكن القديم بشبراء علني ذات يوم يتهيأ وضعي لأطالب بها. فليحملها إذن على رأسه النذل الذي طردني من عمارته، حتى ذاك. وبدأت رحلة رقصي على السلم. الصندوق ليس عاليًا ولا ضخم الحجم، لكن يبقى لي حاجز يحجب جزء من الرؤية أمامي. لذا كنت حذرًا بدرجة عالية. وأتبعت السلم درجة درجة. وقد تحملت بصبر طعنات زوايا الصندوق اللائي أثق أنها لابد وأن تترك علامات دموية بطول ذراعي. الدور الثاني. اللعنة، لم أفكر يومًا أنني سأكون بحاجة للمصعد. داهية تأخذ من لم يهتم بتصليحه. الصندوق ليس ثقيلاً، الأمر فقط أنني بالحق منهك. من كان ليتصور أن أقضي معظم النهار في الشارع ثم جالسًا على القهوة. لكن ها وقد أتى الفرج، فلا داعٍ للتذمر. أنا بالحق في حاجة شديدة للنوم. كنت بعجلة فلم تواتني الفرصة حتى لأغسل تراب وجهي. لكن هانت. الدرجات تقترب. الشقة أقرب. لا مفر للنوم مني. وعند بسطة السلم داست قدمي. ثم بغتة طار الصندوق من يدي. قفز منه كتابان أو ثلاثة، وأنكفأ الصندوق على وجهه. وتحت وقع صدمتي ما أفقت إلا حين أتاني صوت أنثوي عذب. صوت صادمتي، تقول: "آسفة.. حقًا، آسفة جدًا.. كنت في عجلة متلهفة وقد تأخرت على عملي.. لم أدر أن أحد ما يصعد.."

رفعت يداي في الهواء وابتسمت في مواراة للغيظ أقول: "اهدئي.. اهدئي! لم يحدث شيء حقـًّا".

ونزلت ألملم ما تبعثر، وبحذر حاولت أن أقلب الصندوق إلى قاعدته بغير التسبب في كب ما قد تبقى فيه. ثم نزلت هي على ركبتيها تساعدني في اللملمة. وما منعت نفسي أن أختطف نظرة حقد إلى حقيبتها المثبتة على ذراعها والدفاتر العديدة تحت إبطها. وكأنما لم يطرأ عليها حادث. أغراضها مثبتة بإحكام إليها. جمعت كل الساقط في حنق واضطراب ورميت به في الصندوق. وحين رفعت رأسي، وجدت بين أحضانها رواية يوميات نائب في الأرياف، تقرأ سطورًا بها. تمهلت تلك اللحظة وقد أدركت أني فيما سبق لم أنظر لوجهها. الحق أنها فتاة تميزت بذلك الجمال الشرقي النقي. أحببت بالفعل رؤية تعابيرها وهي تقرأ. شيء أطفأ لهب غيظي. رفعت الصندوق مجددًا إلى حضني ونهضت. وحين انتبهت للواقع الذي شردت عنه، توقفت هي بدورها. وقالت بلطف: "هذا الكتاب جيد حقـًّا!"

قلت: "نعم، هو كذلك".

نظرت في سطوره مجددًا، لم تكن قد أغلقته. وفيما يبدو أنها وسط هذا أهملت دفاترها على الأرض وقت التقطته. حسنـًا سحرها الكهل توفيق الحكيم. ليس شيء بالجديد أن يسحر العدو عدوه. رفعت عيناها إليَّ بفضول لتسألني: "هذه الأشياء أحضرتها للأستاذ حمودة الباز؟"

تعجبت منها: "من؟"

أشارت بيدها. نحو شقة بآخر الرواق: "الكاتب.. الأستاذ حمودة الباز؟"

هززت كتفيّ: "لا أعرفه، هذه الأغراض تخصني".

طالعتني بنظرة متفحصة لا تخلو من ريبة، واستمرت في هذا بصمت. إلى أن تحدثت أنا لأبتر أي هاجس مشبوه قد توحي به هيئتي المغبرة المريعة. وقلت: "أنا الساكن الجديد لتلك الشقة" وأشرت بذقني لحيث أقصد، إذ لا طرف آخر حر كفاية لأستعمله. فنظرت للوراء وعادت إليها بسمة الطمأنينة: "آه!" ظلت تحملق فيَّ أكثر. إذن؟ اللحظة تلي اللحظة وهي على ما يبدو قد تناست نفسها. أو أن ارتباكها شلها عما تود عمله أو قوله. وبنفاد صبر قلت: "كنت مستعجلة منذ قليل.. قلت أنك تأخرت على عمل أو شيء مهم.." تلك اللحظة كأنما صعقها التنبيه لتعاود صوابها. فسرعان ما اضطربت ونطقت بكلمات متلعثمة ممضوغة غير ذات معنى. لكني فهمت أنها تستأذن بالذهاب. ثم جمعت دفاترها عن الأرض ولم تنتظر لأنطق حتى انطلقت كالنفاثة. للحظة أو اثنتين توقفت في مكاني تكبلني الدهشة. ثم ما كدت أتحرك حتى سمعت من خلف ظهري خطوات متعجلة عرفت أنها تقصدني. ثم سمعت صوتها اللاهث: "معذرة، نسيت وأخذت الرواية معي بغير قصد" مدت بها إليّ: "تفضل".

-"بالعكس، أحب أن تظل معك. يبدو أنها تعجبك، وقتما تنتهي منها أعيديها".

حينذاك ابتسمت عيناها قبل شفتيها، وقالت: "بالمناسبة أنا سلوى نصار، جارتك بالشقة المجاورة".

قلت وعلى شفتي بسمة ملاطفة: " كمال علي شرف.." ولم أكد أعرفها بنفسي حتى باغتتها تلك النوبة أيًّا كانت. وهرولت غير عابئة بما كنت أقول نحو السلم. ماذا للتو جرى؟ إني بالحق يعصف بي الذهول. وبصمت تابعت الطريق نحو الشقة.

٥

وقت انغلق الباب من خلفي أدركت أنني لم يزل أمامي موال آخر. غرفة النوم تحتاج للتهوية والتنظيف، الحمام نتن، المطبخ يرفع عصارة معدتي إذا فكرت فيه بغير أن ألجه حتى. أسقطت الصندوق إلى الأرض، وظللت في لحظتي أتفكر فيما عليَّ أن أفعل. ولا يحلو التفكير حقـًّا لي بغير التدخين. أخرجت علبة السجائر من جيب قميصي، والتقطت واحدة قدحتها على مدخل فمي. حسنـًا، لتكن مشيئة الدخان. ووجدت خطوطه تتبعثر وتنتشر إلى تجاه واحد. تجاه غرفة النوم لا غير، أو أقرب لذلك. لتكن هي الأولوية إذن. ثم شمرت عن كميّ وأنا أدخلها. قليل من التنفيض، قليل من التنفيض فقط. اتجهت صوب النافذة، وبغير حذر إنما باندفاع شددت إليَّ المصراعين ليتهيج الغبار في وجهي. ولم يكن للغبار أي تأثير عليَّ مقارنة بذاك اللئيم الذي سقط مطرحـًا على ذراعي. ما جعلني أبصق السيجارة بفزع من فمي. برص بدين أخذ لون الوسخ الذي كان راقدًا به، فصار بلون أسود مريع. أطحت به عن ذراعي، وحين هبط بوسائد أرجله على الأرض منعه ثقله ألا يتحرك أسرع. ولم أعطه الفرصة. هبطت بنعل حذائي الكلاركس عليه. شيء كفيل به. ولمّا رفعته عنه كان بصقة دامية على السجاد مع ذيل لازال يرقص. ثم خرجت من الغرفة أبحث عن شيء أحمل به ذاك الجثمان المتهتك.

وبالحمام وجدت ضالتي. عدت إليه بمكنسة يد ومجرفة. ثم رفعته وذيله الذي لم يهمد بعد، وخرجت به إلى صندوق القمامة أمام الشقة. ومتقرف متشنج الفم نفذت مهمتي. ظللت أقف عنده لثوانٍ. لو دعوت أن يبتلعه الجحيم، لقذفته يد القدر لمصر مجددًا. لم تبدأ مهمتي بعد وقد تعكر مزاجي بالفعل. عدت إلى الغرفة، وبحذر أكثر هذه المرة دفعت مصراعيّ الشباك الخارجيين. ملأ الهواء الغرفة التي عطنتها الحبسة. وإذ تنفست نقاءه حتى بدأت. مواليًا في التنفيض. بغير أن تغب عن تفكيري القطرة السوداء التي طعنت السجادة، مكان مقتل البرص.

لا أدري كم من الوقت مر عليّ في ذلك. بدأت التنظيف مكفهرًا ضيق الصدر وما مر بالوقت الكثير منذئذ إلا وقد وجدت الأمر قد استهوى نفسي. وزدت شعورًا بالارتياح لفعله. شيء صار يخصني، فلمَ أبخل عليه بقليل من تعب؟ حقًّا لم أتصور أنني سأهتم وأتقن ما أفعل، ليس مجرد أن أزيح مطرحًا أو اثنين ليتسع مرقدي. بل أن أجعل كل المكان قابل للحياة. رفعت السجادة على سور الشرفة، ثم مشيت على كل ركن في الغرفة بالمقشة، كنست كل ما وقع تحت عينيّ من غبار ووسخ. لم ألحظ وجود عناكب في السقف، لكن تواجدت منسوجاتهم. ومضيت أزيلها حتى قد بدا السقف يبرق في عيني. أزلت الملاءة عن السرير ونزعت غطاء الوسادة، ووجدت بالصوان بديلاً نظيفًا. وعندما خرجت إلى الشرفة وعدت للسجادة على السور، عذبتها بالمنفضة حتى اعترفت على كل أماكن خلايا الغبار النائمة. تغبر الجو بالخارج، وانتفخ صدري بالتراب، وصرت في ذلك أسعل

ندف طين. وحين انتهيت عدت وفرشتها على الأرضية. وفيما بعد جئت بالصندوق من الصالة، وبدأت بتوضيب أغراضي. وضعت ملابسي داخل الصوان، ورصصت الكتب بشكل لائق على سطحه. وحين وجدت أن الأمر سيغويني للأكثر، أخرجت من الصندوق الكاسيت، ميراثي عن أبي. وإن توارثت الأجيال المزاج الواحد لا تتوارث نفس الذوق. كان معي شرائطي الخاصة. ووضعت به شريط أغنية SOS لفرقة ABBA ولحظة صدح الغناء، زفرت القلق عن صدري. خفت أن تكون السقطة قد أضرت به. ولمّا لم يكن قدحت عود ثقاب إلى سيجارة، ونفثت خط دخان طار صوب الصالة، وفي إثره كنت. لننتهي من الثقيل إذن. مررت على الصالة، ولمّا عبرتها إلى ما بعدها كانت تبرق خلف ظهري. دخلت الحمام. أمسكت معدتي قليلاً، ثم دخلت تاركًا أنفي بالخارج. ووقعت عينيّ على زجاجة صابون سائل أسفل حوض الصنبور. ومع عزف الموسيقى الواصل إلى مسامعي، عزفت أنا أيضًا بطريقتي. وربما هي نصف ساعة ما مرت حتى خرجت وقد انتهيت. ثم بالمرآة أعلى الحوض رأيت وجهي هذه المرة بنقاء، بعكس ما كان لحظة ما دخلت. وبآخر جرعة نشاط لدي انتهيت من نظافة المطبخ، ووضبت الأواني التي كانت تملأ الحوض بعد غسلها في مطبقية صغيرة تقشط لونها وطعنها الصدأ. فعلت كل ذلك؟ يا قدرة الله! زفرت بسرور أنفاس الراحة. يبقى الآن دوري أنا. الاستحمام لي، ثم أخيرًا إلى نوم مريح لا يشوبه أي إنغاص. أمسكت المقبض وفتحت الباب، وما ولجت إلا قدمي اليسرى إلى الحمام حتى استوقفني صوت الطرق على الباب. التفتُّ بغيظ في

ذات الاتجاه. وكدت أسب أو ألعن، لكنني تمالكت نفسي وتحركت بصبر لأفتح.

-"عبدالسلام توكل"

رأيت رجلاً خمسيني كثَّ الشارب أشيبه، يرتدي جلباب بني واسع ويحيط رأسه بلاثة بيضاء مسودة. تطلع فيَّ بغرابة للحظتين قبل أن يبخ في وجهي بطاقة تعريفه. ومع ذلك فلم يبارح الاستغراب تعابيره. ما جعلني أنتبه لحالي، والهيئة التي خرجت عليها. أكمام قميصي مرفوعة وقد تبهدل وكرمش أثر ما قمت به من مجهود فيه، وبنطالي ليس أقل في الحال، ساق مرفوعة تعري لحمي وأخراه منسدلة مبقعة. وربما ما زاد منظري بلاهة، هو المنديل الذي عصبت به رأسي وأنا أنظف ناسيًا أن أخلعه بعدما انتهيت. على كل لم أعِ بالأمر كثيرًا. قلت بلا اكتراث: "أفندم؟"

فطالعني الرجل بنظرة جادة، وربما كبت ضحكة متفجرة بصدره ليستبدلها ببسمة متوددة، ومسح بكفه على صدره وهو يقول: "بواب العمارة، عرفت أن حضرتك الساكن الجديد.. فجئت أستطلع حالك لزوم الخدمة".

تذكرت أنني لم أضع شيئًا في معدتي تقريبًا طوال اليوم رب إلا من رغيفي فول تناولتهما على إحدى العربات. تحسست محفظتي على جيبي الخلفي. ثم أخرجتها. ونقدته في يده ما يكفي ليأتي لي بوجبة عشاء غير متكلفة. وإذ رحل حتى صفقت الباب خلفه، وانطلقت إلى الحمام. بدأت أجهز المغطس للاستحمام. وريثما يمتلئ ماؤه،

حررت سحاب بنطالي أمام المرحاض. وقد شعرت باشتداد أكواب الشاي التي جرعتها طيلة النهار، تلك اللحظة بمثانتي. أفرغت ما تحتم أن أفرغه. وسرى الخدر المريح في بدني لحظة ما انتهيت. ثم قمت بنزع ملابسي عني، وأغلقت الصنبور تمهيدًا لأنزل المغطس. وكان القميص الذي خلعته بيدي حين تحسست شيئًا ذا ثقل مثير ينفخ جيب الصدر، انتشلت ما به لأنظر في يدي إلى ورقة سلوفان بيضاوية ممتلئة ملفوفة بأناقة حول حشيشة عامرة وزنتها في راحتي. وتفكرت للحظتين من أين تراها جاءت، ثم باغتني الجواب. ذاك المغفل الأبله؟ أوضعها في جيبي ساعة عناق الرحيل! يعرف عبد الجواد أن لا تجربة لي مع هذا، وأنها ممارسة لا تعنيني في شيء وطالما رفضت مشاركته إياها. لكنه يبدو على كل أنه ساعة الفراق لم يكترث إلا أن يهديني ما أملاه عليه ضميره المسطول. لملمت ملابسي في السبت أسفل الحوض ثم وضعت هدية عبد الجواد فوق سطح أجزخانة الحمام علني أردها له وقتما أقابله، وسأفعل. زفرت عندئذ نفسًا مرهقًا ونزلت المغطس.

مضى الماء بأنامل رقيقة برودتها منعشة، يغمر جسدي. أدركت الراحة أخيرًا. راحة طالت كل جسدي، وظللت به أتمدد حتى استرخى تمامًا. حتى استرخيت تمامًا. زحفت جفوني بكسل وبطء تغلف عينيّ. ورحت أستسلم، أستسلم لقدرة أكبر مني. قدرة دافئة آمنة، قدرة ناعمة. قدرة أكبر مني.. قدرة أكبر مني.. قدرة أكبر مني. بدأ الماء البارد يسخن، يلتهب. لم أنم. لم تكد تنغلق عيناي. لاحظت من مشى إلى جوار حوض المغطس. لاحظت الساقين الطويلتين.

لاحظت الماشي إلى وراء رأسي. تحرك بخفة، تحرك بسرعة. نزلت قدماه إلى جواري في الحوض. رأسي بينهما. انتفض الماء وثار بنزولهما. إنه يجلس، ينحني ورائي. شعرت بيديه تسريان على كتفي. يمتدان كما الظل، تتمدد أصابعه وتطول. شعرت ضغط اليدان، بدأ بخشونة ثم أخشن. اليدان داكنتان في لون ظلامي. والساقان تنبض فيهما زرقة. زرقة من الباطن تضيئ الجانبين ليس إلا. أنفاسي تتهدج وتنقطع. والضغط صار يؤلمني، ضغط اليدان على كتفيَّ يعذبني. إنني انزلق. وأمتد بيداه إلى ما فوق ظهري. الثقل واحد. الثقل ليس بهما إنما فيهما! إنهما أثقل من حجران، وهو.. من هو؟ لا أتخيل منظر عيناي الجاحظتان لكنني أدري.. أدري أنهما كذلك جاحظتان تلفان في محجريَّ. ويداي تضغطان قاع الحوض بأناملهما. تضغطان بشدة، تستقويان بهم. الأنامل؟ تزحف ساقاي ببطء وخوف، ترتفعان في شكل جسر مهتز. وهو؟ من هو؟ صهد النفّس خلف أذني اليمنى. ارتبكت له شبكة ترددها وتشوشت. لكن مع ذلك سمعته. سمعته يتكلم، يقول. المكان، المكان خطيييير. ما كان عليك أن تأتي.. ما كان عليك المجيء! واشرأبت عنقه إلى ما فوق، ارتفع برأسه فوق رأسي. ولم يكن له ملامح. ليل هو، ظلام ثقيل. ليل به القمر قتيل. ومن وسط السواد الأفيل تفتحت عينان واسعتان بكل منهما بؤبؤ مجنون. وبسمة عريضة واسعة تفتحت في تلك الليلة الظلماء، ابتسامة لا تقل جنونًا. تخلق الجنون. إن كان ما فعله في البداية هو مجرد مداعبتي. فما يفعله الآن هو قتلي. ثقلت يداه أضعاف في أضعاف. الماء يرتفع بسرعة، بسرعة رهيبة ليغمرني. بدأت الضرب

بيداي، الركل في الماء والرفس. بسمته فوق الماء رهيبة. من هو؟ من هو وسط كل ذلك الظلام؟ أبعدت بعينيّ المستنجدة عنه، ولحظة فعلت وقع النظر بي على يداه. يداه المتموجتان تحت الماء. لا أستطيع رفع ذراعي. لا أستطيع مقاومة ثقلهما، لكنني أشعر باهتزاز رأسي. رأسي ينتفض. وبذلك أقبلت على يسراه. فتحت فمي وغرست أسناني. ابتلعت كل ماء الحوض في ذلك، لكن لا يهم، لا يهم. وصلت أنيابي إليه وهذا المهم. وتسرب طعم كريه، طعم متحلل عفن إلى فمي. ابتلعته في جوفي. ومضغت بعنف وقوة. مضغت وأنا أشعر بفكي يتخلخل وضروسي تكاد تنخلع. ما الفائدة؟ لا فائدة. ضغط الماء مثل ما هو قاتلي هو منقذي. انضغط فكّاي على لحمه، وتحت الماء كان كفكوك الأموات حين تنطبق لا يحلهما إلا الكسر. ومثل ما أردت أرخى يسراه. وكانت تلك ضربتي. ملت بكامل جسدي إلى جانبه الضعيف. يداي لم تعد تلطمان. يداي قبضتا جسده. رأسي يعود، يرتفع فوق الماء. وبشكل ما أطبقت الخناق على عنقه. صورته مشوشة أمام عينيّ، غشاوة تمنعني من التمعن فيه، رؤية ملامح قاتلي. الماء ينزلق إلى الداخل في القاع إلى جفوني، يحرق مقلتاي بشدة. يصدني عن الرؤية بضراوة. لكنني مع ذلك ما زلت قابضًا عليه. لن أتركه. لن أفعل! وسقطنا من الحوض سويًّا، وقع على ظهره، ووقعت إلى جواره وقد أنحلت عنه ذراعيّ. لكن لا، لا ألم. لا وقت للتوجع. أبدًا! قفزت عليه. ما عجبت له أنه كان خاملاً تحتي. رفعت يدًا عنه، فركت بها الماء عن عينيّ. وبانت الرؤية. يدي الأخرى لم تكن تقبض على شيء!

٦

إنني أصعد لحافة الجنون وأترك نفسي وراء ثقلي. أتركني أتداعى، أسقط وأسقط وأشتهي السقوط. قرأت كتب لا أكاد أعطيها عدد، أهي ما ساهمت في تغذية خيال دماغي؟ أما كاد يقتلني هو نفسه ما سعيت خلفه؟ وكيف بالله في أرض مثل هذه لا يسعى عاقل خلف الخيال؟ عيناي فزعتان، وجهي مرهق، وخصلات شعري تتراخى بضعف. في المرآة أطالع كتفيّ، صدري. ألم لازلت أشعره. على المرآة لا علامات. أهو ألم في رأسي؟ وكيف بالله يكون كل ما شعرته، كل ما واجهته يكون مجرد حلم يقظة؟ عقلي لا يكاد يصدق ذلك. عقلي لا يصدق غير ذلك. لو أنني أصدق الخيال الذي أسعى خلفه، لو أنني أؤمن بالخيال الذي أقتنيه بكتبي لما ضاق أفقي. وسمعت الصرخة خلف أذنيّ تزلزلني. ترجعني من شرودي في انعكاس جسدي، إلى أرض الواقع. جرس الباب يصرخ. نظرت من حولي، لا منشفة والأرض غارقة بالماء ومعها صارت ملابسي خرق مبللة. خرجت عاريًا من الحمام، أسير كالمخدر أو المنتشي إلى غرفة النوم. وجدت في أحد أدراج الصوان مناشف، فسحبت واحدة لففتها حول جسدي بسرعة كي أجيب نداء الطارق. فتحت الباب على وجه البواب، وقد كان يحمل ما كلفته به. ابتسم لي وقال: "أي خدمات أخرى؟" شكرته باقتضاب أو ربما تهيأت أني أفعل. ثم إذ تناولت ما

في يده صفقت الباب وعدت للداخل. الحق أنني كنت متوترًا وفي مزاج أبعد ما يكون عن الحاجة للدردشة مع أي كان، وكنت قد تركت له ما يزيد فوق المبلغ المطلوب لشراء العشاء، ما يكفي عرق تعبه فلا أرى له داعيًا للتذمر. لكن من قال إنه لا يود التشكي لمبرر خلقه هو في ذاته أو لربما لغرابة أطوار الساكن الجديد؟ وسمعته يرن الجرس من جديد، بإلحاح أشد هذه المرة. وكنت ما زلت ممسكًا بأكياس الطعام، متمسكًا بالفوطة كي لا تنزلق وتتعرى عنها مؤخرتي. حسنـًا عليك اللعنة يا توكل. وضعت الأكياس على أريكة بالصالة، وشمرت الفوطة من جديد حول خصري ثم تحركت أقدح شررًا إليه. فتحت الباب، ولم يكن على وجهه هو هذه المرة.

هذه المرة كانت أنثى. وقفت أمامي تحت مسحات تبرج بأزرق وأخضر وحتى أبيض، لتبرز جمالاً هو لديها بالفعل. وإثارة اختزلت في فستان أحمر خليع يبرز منابت نهدين ثقيلين يستحقان التطلع ويرتفع فوق الرقبة إلى الفخذين. ورأيت في شعرها الأشقر شيء مصطنع، ولم أهتدي إن كان باروكة أو صبغ. تحركت شفتاها الغائصتين في روج وردي ثقيل، لتقول: "هو أنت؟" وظلت تطالعني بغنج من تحتي إلى فوقي. زدت تمسكًا بفوطتي ورددت: "هو أنا؟" ومضغت ريقـًا: "ماذا؟" ابتسمت لتوتري وأوضحت: "الباز؟" عيناها تنخر صدري العاري. عليك اللعنة يا توكل! لكن لحظة؟ هل ما سمعته صحيح، أهي نطقت الزاي سين؟ نظرت إليها مستفهمـًا، وقد لجم لساني في موقفي هذا فلا أكاد أنطق. ثم إذ بها تمد يدها لتدفعني برقة: "دعني أدخل" ظللت متصلبـًا ويدها على جلدي.

عليك ألف لعنة يا توكل!! "الأمر وما فيه، أنه ربما هناك سوء تفاهم" فك لساني.

- "لا أفهم!" قالت وأسارير شفتاها تتفتح عن نضيد لطيف.

- "هذا ما أعني بالضبط!"

- "ماذا؟"

- "لست المطلوب".

وضحكت بمرح لتقول: "إذن، أيعني هذا أنك لا تودني أن أدخل؟"

سؤال وجودي يستحق التأمل. ولم أترك لأفكر فيه، حتى إذا نطقت الفتاة بذلك سمعت صوت إزاحة مزلاج وفتح عجول لباب. طللت برأسي ومعي نظرت الفتاة، لترتطم عيوننا بجاموس بري سارح في الرواق نحو قصد بعينه. نحونا!

كان ضخم الجثة، بكرش ثقيل. لكن مسكين الهيئة، قصير وجهه مرهق نسي حلاقته منذ مدة أو تناسى فبرزت فيه شعيرات ناتئات منتشرات هنا وهناك بعضها تطول عن بعضها. وقد برز إلينا بصلعة جرفت مقدمة رأسه. وجاء مرتبكًا متوترًا متعجلاً، ثم بلا تمهيد أمسك بيد الفتاة واجتثها عن صدري. الوغد نبهني وقد كنت حسبتها بعد حين امتداد طبيعي لهيكلي. لكنه لم ينس أن يقول وهو يهم بها عائدًا: "معذرة، هي قصدت العنوان الخطأ" ما جعل الفتاة المندهشة تحملق لتسأل بخدر: "حضرتك هو الباز؟" توقف الرجل وكأنما ضربته السماء للتو بصاعقة، فضيق عينًا وقرب من فمها كأنما

يمعن في جوفها. نعم هو سمع ما سمعت. السين تحتل مجددًا مكان الزاي. فقال بمرارة وشيء من ازدراء: "أممم، أنا هو.. الباز". وتابع يقول: "وأنت من أرسلك بقلظ، صحيح؟" هزت رأسها في إيجاب. ثم قابلت عيناه عيني في نظرة من لا حيلة له. وجرها من يدها متابعًا طريقه إلى شقته، والفتاة خلفه غير فاهمة. تابعتها ببصري حتى بلغت الباب، وقد كانت تثقل حراك ذاك المتعجل في سبيل تقصعات بدنها. تتمهل في سيرها، وهو يبطئ برغمه. وقبل أن يغلق الباب من خلفهما، لم تنس أن تلتفت إليَّ تبتسم في إثر غمزة. حقـًا، فتاة ليل مثل ما يقول الكتاب! عدت برأسي إلى شقتي، وحتى إذ ولج أنفي حيزها صفقت الباب بلا انتظار.

ذهبت إلى غرفة النوم، وبشبه تعجل أخرجت قميصـًا وبنطالاً جديدًا وثوبًا داخليًّا نظيفًا. ووضعت الملابس على جسدي في سرعة بفعل تنبيه مستمر مزعج في مؤخرة رأسي بأنه لابد وأن يطرق الباب في العاجل، فلا أريد أن أتورط عاريـًا. وحين انتهيت لزم الهدوء الجو. لم يناد ناد أو يطرق طارق أو حتى يتعجلني أحدهم برن الجرس. تنهدت في استرخاء، ورفعت الفوطة التي سترتني عن الفراش أمسح بها ذرات العرق التي نبتت لي عن المجهودات الموترة السابقة. ولأجل هذا التوتر، الذي لم يزل يتوثب على أوتاري منذ ما شهدته في الحمام، قصدت الكاسيت وغيرت شريطه بشريط آخر. أغنية منزل الشمس الشارقة لذي آنيمالز. ومعها ارتخيت إلى طعامي، ووقت بدأت الأكل استمر بي المضغ أطول من اللازم وقد وجدتني أعود سارحـًا أفكر في تفاصيل ما شاهدته.

٧

وقت أنهيت وجبة عشائي نسيت جل الأمر. صار شغلي الشاغل هو كوب شاي. خف الألم المشتد بجسدي، خف الضغط الذي أغرقني في توتر لا معنى له. ومع امتلاء معدتي صار ما مررت به هينًا، يُستهزأ به. أرجعت كل شيء لشيء ما، تفسير يبرر. تفسيرات اكتفيت بها. الحق أنني في أيامي الفائتة كنت أشبه ما يكون في حالة تلاحق ذهني. متحفز طوال الوقت، متعجل طوال الوقت. بحال من اندفاع وسرعة. إحساس بنفاد الوقت كان يطاردني، ويشكل حمل على صدري. كنت أحارب هواجس لا جسم مادي لها. حرب لا نهائية مستمرة. أجري كالهامستر على عجلته. له دافع كبير للركض، وبنفسي هناك وخزة حامية تدفعني للركض. فالجدير بالتقبل إذن، أن وقت يحل الاستقرار يرى العقل أن بالأمر حيلة ما. يتشكك، ولا يحدث القبول. لابد من حيلة دفاعية يصرف فيها قدر القلق الكامن به. ذلك قلق اعتاد عليه، فصار ينتجه بهمة. قلق صنعته بنفسي من ولا شيء. أو ربما من كل شيء. وإنني إذ أقف الآن أشعر به يسري في عروقي، ولا أفكر في غير كوب شاي لعلاجه. وماذا يحل أي أمر غير الشاي؟

لملمت بقايا عشائي عن الفراش والأكياس المفتوحة والممزقة كلها في كيس أكبر، وخرجت به إلى صندوق القمامة أمام الشقة. وبعدما

أودعته فيها، وقفت أمام الباب المفتوح متحير. أيكون الأمر به حرج لو طلبت من أحد الجيران قليل من الشاي؟ لدي الأواني في الداخل، لكن تنقص مادة الإنتاج. ولا أجد بنفسي عزم لأزعق في توكل ليأتيني به من البقالة ولا لأن أنتظره حتى يفعل. حسنـًا، ليكن ما يكون. تحركت إلى الشقة المجاورة. طرقت الباب بروية وكياسة، وأمسكت حتى يأتيني رد. ولم يتأخر. سمعت ضربات نعل ثقيل على البلاط، تأتيني في خطوات بطيئة زاحفة. ثم باغتني فتح الشراعة. وكان لوجه عجوز تلف رأسها في إيشارب أسود، وتتفحصني بتشكك. ابتسمت لها وقلت في ارتباك أثر حرجي: "مساء الخير يا حاجَّة، أنا جاركم الجديد في هذه الشقة.. لو الأمر ليس به إزعاج، هل لي أن أستسمحك في قليل من الشاي. قدر كوب واحد لا أكثر؟" حينذاك رأيت تشنج حول فمها، ثم بغتة انفرج في بسمة ودودة. واغلقت الشراعة في وجهي! الحيزبون قفلت في وجهي! حقـًا عصف بي الأمر. وقفت مبهوتـًا، مهان الكرامة للحظات غير مصدق لما قد جرى. وإذ هممت أن أجرجر خيبتي إلى شقتي وأتحرك، سمعت مزلاج الباب ينجذب. وفتحت الحي.. العجوز الطيبة الباب. مدت بيدها إليَّ برطمانًا كاملًا، ومن خلف بسمة دافئة مرتعشة قالت: "خذ منه ما شئت، لدي ما يكفيني من تموينه بالداخل" هل سأكون مبالغـًا لو بكيت الآن؟ الحق أنني أود لو أنزل على ركبتيّ لأقبل قدميها.

- "لك كل الشكر يا حاجَّة والله، أنا في غاية الامتنان".

زادت بسمتها: "دع عنك هذا، ما اسمك يا ولدي؟"

- "كمال، اسمي كمال يا حاجّة"

- "ماشي يا كمال يا بني، خذ بالك من نفسك"

وإلى شقتها عادت بخطوات مكحكحة مجهدة، وقبل أن تغلق الباب منحتني بسمة أخيرة مودعة. وانطلقت فيما بعد إلى شقتي محتفيًا بانتصاري. لن أنام بمعدة تنقصها شاي!

مسحت كفيّ ببعضهما وأنا أنتظر ريثما يغلي الماء على النار. وحين تعالت الفقاقيع في البراد، انتظرت بضع لحظات قبل أن أسحبه. صببت الماء المغلي في كوب لقمته بالشاي والسكر. ثم إذ انتهيت من تقليبه وإنهاء الأمر بقشط البصقة على الوجه، حتى تحركت به من فوري إلى غرفتي. ولجت بعد ذاك إلى ليل الشرفة. وقفت فيها أتطلع في الناس القادمين والرحل تحت ستر الظلام، والأنوار المشعشعة تنبعث من كل مكان. ارتشفت بضع حبيبات من مشروبي، وقدحت إلى جانبه سيجارة. ارتفع الدخان صوب السماء، وكانت عيني للحظات معه. أحسست في نفسي ببوادر استقرار، كأن القلق ينوي أخيرًا الجلاء. نظرت من مكاني إلى الناس، نظرت في وجوههم المبهمة الضبابية، والحق أني ما رأيت في كل منها سوى ملامح وجهي. وجهي بهيئات أخرى، ومعالم جسمانية تختلف. القلق واحد. سواء في الصبيان اللاهين، أم الكهول الهائمين على الأرصفة هنا وهناك. ولأول مرة أدرك ما فاتني، وأنا أنظر لمباني الحي، مباني جديدة قائمة أخذت أدوارها التحتانية للدكاكين. وتبقى العمارة التي أسكنها وترتفع بين كل ذلك، شيئًا عتيقًا. شيء شاذ وسط عصر

كهذا. وإنني برغم قلة خبرتي في العمران، أكاد أقسم أن تاريخها لربما يرجع لسنوات وسنوات. إلى أيام الأسرة العلوية حتى. عتيقة، صلدة. تم تشييدها لتبقى لا لتزهو. ارتشفت ونفثت الشاي والدخان. وبدوت لأول مرة منذ زمن صافي الذهن. إلا من بعض ما يشوب، وقد طرأ لتوه تفكير بشأن عودتي للعمل غدًا. ما جعلني أستصعب بلع الشاي عند لحظة بعينها. لذا صرفت الموضوع عن خاطري أو حاولت. لكن العكننة كانت قد أطبقت بمخالبها على صدري. وبذكر صدري فقد رأيت بينما أتطلع في الشارع بالأسفل، الثوب الأحمر ينزلق من مدخل عمارتنا إليه. وللحظة أو اثنتين توقفت الفتاة هناك، ثم رفعت رأسها لفوق، نظرت للأعلى صوب جهة ما. جهة بعينها. جهتي! ورجعت باضطراب للوراء كي لا تراني. وإذ شعرت اطمئنانًا بعد لحظات، عدت ونظرت ولم تكن هي هناك. شددت آخر ما تبقى من حياة السيجارة إلى صدري، ثم نفضت عقبها في الهواء. وعدت للداخل تاركًا النافذة مفتوحة لتهل عليَّ بنسيم الليل عله يفقدني يقظتي وأنام عليه. أطفأت النور، وتمددت على سريري، ودقائق كاملة لم يطرق النوم بابي. أثر ذلك عدت وأشعلت الإضاءة. ثم لم تتوان يدي عن سحب كتاب من الرف الفوقاني للصوان، وهي رواية لاعب الشطرنج لستيفان زفايج. لا أكره أن أعيد قراءة ما فيها مرارًا. وقد أهمل الجديد فقط حبًّا في معاودة القديم. وضعتها بين أحضاني، وتابعت التسلسل الطيب لسير الأحداث. لا أدري ما مر من وقت عليّ فيها، لكنني انغمست. وما أملت حدوثه من ملل للتكرار، راح أدراج النسيم الليلي. في سبيل حركة عفوية رفعت عينيّ

عن الكتاب. ومضة سريعة إلى خارجه، ولم أدر إلا بعد أن رفعتها مجددًا أنها غريزة نفسية منبهة، لا شيء عفوي. حدس استشعرت به، لأحط بعينيَّ على مراقبيني. ثلاثة من نفس الفصيل. هم إخوانه التوائم. نفس الوسخ، نفس الجلد السخامي بنتوءاته الرمادية. وكانت أعينهم منتفخة إليّ. يرمقونني ببلادة وبرود من على سطح الجدار المواجه. نظرات مستفزة، تعكس ما بالنفس. لوهلة رأيت فيها حقد وكره، وأخرى مقت وسخط، وأخرى رغبة للقتل والسفح. استفزني الأمر فرميت فيهم الكتاب، لأجدهم وقد تبعثروا على عرض الحائط عن موضع تجمعهم السابق. ثم إذ رمقوني لمرة أخيرة، فرَّ كل منهم في اتجاه وأذيلهم تتموج من خلفهم. دقائق من الصمت استمررت فيها أطالع الجدار والسقف، وحتى إذ اطمأننت لغيابهم شعرت بخدر خفيف يسري إلى رأسي. تثاءبت مع دورته في دماغي. وتلك كانت إشارة لم أنوي هدر تلميحها. نهضت بخفة وأطفأت النور. وحين كانت رأسي على المخدة انتابتني لحظة انزعاج لانفعالي بالكتاب ورميه. ولحظة أخرى لأنني غفلت التقاطه عن الأرض. وكاد عقلي يعيدني إلى دورتي السابقة في أرق بلا رحمة. لولا أني حاربت ذلك واستمسكت برقودي، وهادنته بحل كل الأزمات في الغد. ثم إلى رأسي اندفعت دفقات خدر أخرى بدأ تدريجيًا يروح معها وعيي.

٨

لم أذكر للخوف معنى واحد في حياتي. ليس محددًا، هو كل شيء أو لا شيء على الإطلاق. فكرت في ذلك وأنا بين أحضانه. فكرت بجزء عقلي الذي مازال به لمحة تعقل. ربما مر منذ خمدت نصف أو ساعة كاملة. لم أفقد وعيي تمامـًا كما تصورت. شعرت، وكم هو مزعج حقـًا أن يكون للشعور تواجد في ظروف كهذه. ظروف الضعف. شعرت بثقل ينطرح إلى جانبي في السرير، ومعه تردد إلى أذني صرير مُللِه. شعرت الثقل ثقلي، أوهمت نفسي بذلك، والصرير لي. كي لا أفتح عينيّ. لكن الأمر لم يقف عند حد. حاوطني ذراع، ضغط كتفيَّ إليه. ذراع طويل محكم والحق أقول قيدني. ومعه فتحت عينين مذعورتين. نظرت إليه، ولم يكن ينظر حتى نحوي. كنت دمية بين أحضانه. جلد وجهه في حالة تجعد شديد، يتهدل على بعضه. بلا شعر تقريبًا. هي شعيرات بيضاء ما تتوزع في نواحي رأسه. به ملامح جدي، أو أي جد ممكن. هو عجوز بالفعل، جفونه ترف ولا تهمد. لا يغمضان تمامـًا، لا ينفتحان تمامـًا. له سمات وجه الضفدع وعينيه. يخرج من مواسير صدره الصدئة صوت نخير متقطع مزعج. كانت شفتاي ترتعشان بينما أطالعه، عيناي مذعورتان ولا أقوى إلا على غلقهما. عله يخفى، عله ينزاح. مدرك لإحكامه عليّ، يشل حركتي. ولا يفعل أي جديد، ينخر يفتح عينيه

ويواربهما. لا أي شيء خلاف ذلك. أغمضت عينيَّ لثوان وثوان، وبشفاه لا تنطق بل ترتعش تمتمت بآيات من عند الله، رحمة بي، رحمة بعذابي. وحين فتحتهما لم يكن له وجود! تحررت حركتي، نهضت دائخًا وعلى قدميَّ وقفت أمام السرير، تطلعت فيه. هي أشباح خيالي، ليس هنالك أي شيء يستدعي روعي. دورت حول رأسي، التي تثقلني للأمام، وكنت مخدرًا جسدي به ضآلة مقارنة بحجمها. ثلاث دورات حول نفسي، ثم من جديد هبطت في الفراش. هذه المرة لم يكن لي أذرع محبة لتضمني. أليس هذا ما قاله إنجلبرت همبردنك في أغنيته رجل بلا حب؟ ابتسمت في نومي. يعرف عقلي كيف يهدئني مثل معرفته كيف يروعني.

فتحت عينيّ على إطلالة الشمس من النافذة. قدم صباح آخر ما زلت فيه حيًّا. اللعنة. طل إليَّ الثلاثة من جديد. ثلاثة أبراص بدينة تلتصق بالسقف من فوقي. وبنفس الشغف أو يزيد، يتطلعون في نومي بمنتهى الفضول والتطفل. لا يتحركون هم فقط مستمتعون بالمشاهدة. متجمدون على نفس الوضع بحسب ألا يفوتهم أي جديد طرأ عليّ. في نومي؟ أن أفتح عينيّ على هؤلاء الثلاثة، لهو شيء بقدر استفزازه لي أظل بلا حيلة في مواجهته. أنا شديد الإرهاق. لذا آثرت أن أغمض عينيَّ عنهم. ونهضت.

لم أذكر من ليلتي المقبضة غير كلمات الأغنية، ومعها استيقظت أدندن. وحين بدأت أعد نفسي لليوم، ارتأيت أن تنبعث أغنية رجل بلا حب في خلفية صباحي. وعليه كانت تصدح من الكاسيت بينما

أغسل أسناني. في المرآة تطلعت كثيرًا بخلقتي المرهقة. الحياة تضمر من وجهي. أفرغت مثانتي. نزلت تحت الدش. ودقائق بعد ذاك كنت قد تجهزت وارتديت ثيابي. وما كدت أخرج من باب الشقة وأغلقه خلفي، حتى حدث ارتطام جديد. طرحني هذه المرة بنفسي في الأرض. وكنت أكثر إرهاقًا من أنهض. بقيت مسطحًا.

- "آسفة.. والله العظيم آسفة جدًا، لم أقصد.."

هي مجددًا؟

- "نعم نعم.. كنت مستعجلة وقد تأخرت على عملك؟" قلت بحالة إعياء، وأردفت متابعًا: "الآن، هلا مددتي لي يدًا ألا تريني لا أستطيع النهوض؟"

لو رحلت وتركتني أظنني سأبقى مسطحًا هنا طيلة اليوم.

- "بالطبع، آسفة.. هاك!"

أنا بهذه الدرجة من الإعياء حقًّا أم أنها بكل تلك القوة! لقد شوحتني في الهواء بخفة كشيء بلا وزن. نظرت إليها وحدقت في قدمي الثابتتين على الأرض. أنا حقًّا مريض لأخمص قدمي.

قالت لي في ريبة: "لم تنم؟"

بادلتها بنظرة ضاحكة: "يا ليت، لكان الوضع أخف وطأة من هذا"

هزت رأسها بفهم لتقول: "أنا أيضًا أرى الكوابيس. خاصة في حالة مثل حالتي لا تنقطع!"

نظرت إليها مليـًا وقلت: "هذا حق"

- "أأنا بذلك السوء؟!" قالتها في نبرة مذعورة فعلًا، ما جعلني لا أمسك عن الضحك. وعليه شعرت بنفحة انتعاش أذابت بعض إرهاقي.

- "بالطبع لا، لست هكذا.. هي مجرد مزحة سخيفة. لا تعريها بالًا"

تنهدت بشكل مفضوح، ما أثار عجبي. فنظرت إليَّ وعلى ثغرها بسمة.

- "لنتحرك؟" طالعتني بغير فهم، فوضحت: "العمل؟" فوجدتها تركض أمامي. وعند الدرجة الأولى للسلم كادت لتتعثر وتسقط لولا أن مددت يدي وعدلت من اندفاعها. فرجعت للوراء مطمئنة، وهذه المرة هدأت من حراكها. وكانت أن تابعت السير إلى جواري، فنزلنا درجات السلم سويـًا.

- "إذن، أنت تسكنين العمارة منذ زمن.. على الأرجح؟" كنا قد خرجنا للتو من بوابة العمارة إلى الشارع، وبسؤالي هذا أردت كسر الارتباك عنها، وعني أيضًا. وقد ألجمنا صمت مطبق.

هزت كتفيها، ونطقت تقول: "لا، الأمر ليس كذلك"

وأردفت بعدما انقطع كلامها على بوق ترامكو مندفعة: "أنا ووالدتي لم نقطن هنا إلا منذ أقل من أسبوع.. يعني قبلك بشوية"

- "آه، حقـًا؟ إذن من أين قدمتم؟"

- "الجيزة، انتقلنا من شقة عمي حيث أقمنا هناك لفترة بعد وفاة بابا وكما تعرف ظروف المعيشة لم تكن لتغدو رحيمة علينا ونحن بمفردنا، لذا لجأنا إلى أول يد امتدت إلينا. لكن بعد تخرجي وحصولي على الوظيفة بقليل أردت تغيير ذلك، لم أحترم نفسي كثيرًا إن شئت الحقيقة ونحن على تلك الحال نمثل حملاً على غيرنا. وللهفتي هذه لم يخف الأمر على المقربين لدي، فذات يوم أقبلت نحوي واحدة من صديقاتي مهللة بأنها وجدت ضالتي، ودلتني على العنوان هنا"

وصلنا محطة انتظار الحافلات، وبين جموع أخرى من المنتظرين توقفنا نعد الدقائق حتى تصل الحافلة القادمة. قلت لها بينما أتابع الطريق بعينيّ: "بالمناسبة، أعتقد أني قابلت والدتك.. سيدة لطيفة فعلاً "وبترت ما كنت أقول، إذ طرأ شيء إلى بالي غفلت أن أعيره بالاً. وحدث أن نطقت بغير وعي مني إنما كنت أفكر مع نفسي، فخرج عن لساني التساؤل: "لكن.. والدتك؟"

شعرت أن نبرتي خرجت وقحة، أو أقلها مجحفة لم تبالِ أي اعتبارات للباقة. ومع شعوري هذا حدث أن توترت وتعرق جبيني. وحين لمحتها بطرف عيني، كانت بسمتها المشرقة لم تزل على شفتيها. ووجدتها تقول: "نعم، هي بالفعل تبدو طاعنة في السن. المرض أشاخ جسدها مبكرًا جدًا، ولم يكتف بإضمار صحتها فقط"

تلك اللحظة نظرت في عينيّ مباشرة، وشفتاها لازالت مبتسمة لكن في غروب: "أشهد لها في فترة مراهقتي أنها كانت تقول لي دائمًا؛ إذا سألك عني أحد قولي لهم أني جدتك حتى لا تنالكِ سخرية عني!"

وكان قد هل علينا الأتوبيس، ولم يغب عني صوتها وسط هديره وهي تقول: "ولذلك، لطالما استمتعت بالسخريات!"

اندفعنا بسرعة ولهوجة وسط الركاب إلى الأتوبيس. وكان حظنا عاثر بالفعل، لم نجد لنا مقعدًا وحيدًا خاليًا. وقفنا وسط طابور هائل متشبثين إلى مشد السقف. ظللنا لدقائق نتمرجح ونتخبط في خندقنا المقبض هذا، وقد حل على رؤوسنا صمت ثقيل. ولم يكن بطوعنا إنما برغمنا، إن الأنفاس التي تخرج، بصعوبة تتجدد. يندر ههنا الأكسجين، وتشيع بيننا غازات أخرى سامة نجبر على تنشقها مثل ما نتنشق أفواه بعضنا البعض. هو كرب دقائقه دهر. أما سلوى فكان هدوؤها شيئًا آخرًا. كأنما هي مقيدة مشدودة الأوصال. شعرت أن بها خطب ما. كانت منكسة الرأس، ترتعش! أهو رهاب مواصلات أم..؟ ولاحظته. كان قد اقترب إلى ناحيتها من بين الزحام، وإذ التصق إلى خلفها حتى بدأ يتحسس لحمها. وفي تلك اللحظة رأيت يده قرب خصرتها تعتصر بدنها. كورت قبضتي وهممت بالاندفاع كطلقة بارود إلى وجهه إلا أن عينيه ارتفعت بغتة إلى عينيّ. وأنصعق للشيء الذي رآه فيهما. ما جعله ينتفض للوراء، يرتطم بالناس ويتداخل فيما بينهم. واضعًا أكبر مسافة ممكنة بيني وبينه. استخدمهم كمصدات لقدومي. يظن أن هذا

سيمنعني عنه؟ حتى إذا تقدمت خطوة، وجدت اللعين الجبان قد فعلها. قفز من الباب الخلفي للأتوبيس. غضبت بحق واستشطت. حتى كدت أفرم أناملي داخل قبضتي. إلا أن سلوى رفعت عينيها نحوي وعلى ثغرها بسمة صافية. ثم قربت إليَّ خطوتين.

- "إذن يا سلوى، لم أعرف صحيح ماذا تعملين؟" مجددًا أحاول رفع الصمت وكسر حلكة الكابوس الذي أطبق على الجو حولنا.

تحسست نبرتها في خجل، ثم قالت مدارية ارتباك يتخطفها: "أدْرُس الرسم في مدرسة تجريبية بعابدين" وظهر أنها تخطت ما جرى لتبدو بطبيعتها وهي تقول: "الحق أن الوضع ليس مستقرًا تمامًا بعد. الانتقال كان له تبعات سلبية، خلفت عليَّ مشاكل مع الوقت وترتيب أموري وأزمة في التعامل مع المواصلات يوميًّا ما يجعل الأمر عسيرًا. لذا منذ أتيت لهنا وأنا في حالة لخبطة شبه دائمة".

- "لا تحملي همًّا، ستتحسن الأمور"

نظرت في عينيّ فالتهيت بهما حتى لا تقتنص منهما الكذب في مطالعة إبط مبلل غمره بالعرق لقميص جاري المتشبث للأمام في المشد. لكنها على كل سألتني: "وأنت، ماذا تعمل؟"

قلت: "حاليًا محاسبًا في مطعم الفنجري للمشويات، لا أدري ما سأكون عليه بعد شهر من الآن أو حتى أقل"

وصدرت عنها ضحكة خافتة، انبسط لها الجو من حولي. بعد قليل وصلت الحافلة محطة نزولها، فودعتني بعجل ونزلت من الأتوبيس بخطى سابقة. ومع رحيلها، لثوان بدأ شذاها يروح عن المكان. ولفح أنفي فوحان عرق إبط جاري في المواصلة.

٩

عند تمام السابعة توقفت آلاتي. انتهى دوام عملي، وإذ تسلم بديلي نوبته حتى انطلقت من باب المطعم إلى الشارع. نهار غير مثير آخر ينتهي، وما بدأته إلا مشتاقًا ليوم الإجازة الذي أخذته غصبًا وأضعته هدرًا. لم أرد العودة للبيت مباشرة. شعرت بالجوع وبالملل. تمشيت في الشوارع بلا هدى لقليل من الوقت. أخذتني قدماي لمحل كشري صغير بشارع البركة الناصرية. هناك ما وجدت بد من التوقف وإرضاء قرقرة معدتي. لم يتوقف نهمي إلا بعد طبقين. أطفأت غليان الكشري في معدتي فيما بعد بقدح قصب كبير من معصرة مجاورة. ثم آن الأوان من جديد للسير. تمشية للقمة في معدتي، تجزية للفراغ الذي لابد ينتظرني عند العودة. مشيت في طرقات مسقوفة وأخرى مكشوفة. وكنت أتطلع للافتات المضيئة وأتوقف للحظات عند واجهات بعض المحلات لا بنية شراء ولكن بزعم من فضول. وأخذت معظم وقتي في ذلك أمام واجهات محال الكتب والمكتبات. سحر قديم تأصل في نفسي في مطالعة الأغلفة. رؤية الرسومات والتعرف على الخطوط الإبداعية لبعض الفنانين. ما بين إطلالة الغلاف الجاد المتحفظ وبين الإطلالة المثيرة الجاذبة، هناك كنت أقف بحيرة. أتصور محتوى الكتاب من هذا، وفي أحيان كثيرة كنت أجدني ما قرأت عنوانه من الأساس. وبرغم انغماسي في

بعد آخر ليس من الواقع في شيء وتركيزي الشديد به، كنت أجدني في حالي الطبيعي غافلاً غير ذي تركيز. بعيد النظر لكن أعمى لما تحت قدمي. جملة أذكر أن أمي قالتها لي يومًا موبخة. هناك نوع من الحنين يتدفق في صدري. وساقتني قدماي عند عطفة هي لمقهى كتب على يافطته أولاد العنوس. همد جسدي على مقعد عنده. ودقيقة كانت ثم جاءني الساقي. بعد قليل كنت جالسًا مرتخي الأوتار أدخن البوري، وأتطلع سارحًا في المبخرة المعلقة على المدخل. "لنتحدث عن الخوف، لنرى ما قد يخيفك. دعني أحكي لك عن وحوش الليل. وحوش هي هي تصاحبها بالنهار ولا تخافها. ولأنك لا تخاف إلا المظلم ولا تحب إلا المظلم. فسأحكي لك الليلة وكل ليلة ما يبطن بالليل" لم أحب جدتي. أعتقد أني كنت كارهها، أذكر الآن في شرودي عبارتها. ربما ظلت هذه العبارة دائمة في عقلي لوقت طويل. وبعد موتها في أوائل عام ١٩٥٨م ربما هي الذكرى الوحيدة التي تثبت في عقلي عنها. لا أذكر وجهها. أذكر أنها كانت طويلة، وإلى حجمي وقتها كانت طويلة بشكل لا يصدق. يختفي رأسها بين سحب سخامية كتلك التي تكون في أواخر نوفمبر. كان بها نضج غير مألوف. نضج لم أره في وجه جدتي لأمي، ولا أي جدة رأيتها في شارعي. وربما هذا موطن كرهي لها. لأنها لم تعاملني أبدًا كطفل، لم تكن متعلمة أذكر هذا تمامًا وأكده لي أبي في واحدة من المرات. لكن دنياها أنضجتها بشكل صعب عليَّ تصوره. الحق أنها عاملت عقلي باحترام، ولمّا كانت تود أن أكف عن مشاغبتي لأمي وأنزل عن دماغها في ليالٍ كثيرة صاخبة، كانت تجرني من يدي إلى سريري

ونحكي لي. لم تعاملني على سذاجتي، لم تغذيها بل حاولت بشكل ما وضع إبر بها. إبر توقظ في عقلي مقصات حادة لتستأصلها. ولهذا لا غيره، لا غيره أبدًا كرهتها. ولما كبرت وفارقتني تيقنت من حقيقة أنني كنت أبحث عنها في كل حكاية مما قرأتها، في كل رواية وقعت عينيَّ عليها. وفي الواقع كنت قد اتخذت لنفسي هواية، شيء وجدت أنه يخلق مرونة في عقلي. تحريف المسارات. كنت أنظر في وجوه الأشقياء من حولي، أبناء هذا البلد. وأضعهم في طرق مختلفة. ولأن الحياة ملأ بالاحتمالات فقد كنت أتصور ما سيكونونه. كنت أتصورهم بصور مختلفة. في قوالب من صنع خيالي. أشخاص لهم وزن وشأن. أنتزعهم من حثالة واقعهم إلى شيء آخر ألوانه حية أكثر. وتلك هواية كانت أول من جربتها عليها هي جدتي. وفكرت أنها في مسار آخر، ومع قدر من التعليم، لكنت أتصعلك الآن من بين الكتب التي أقتنيها كتبها. أي شيء خطته بيديها. وفكرت مرة في أن أتفنن في خلق القصة، لكن متى خاطرني ذلك وجدتني أقارن نفسي بها، بمستواها ومدى ضآلتي بجانب مهارتها ونضجها وعقلها الكامن بين السحب السخامية. وأنني كنت أتراجع عن جنوني. ويكبر معي شغف الحكاية بالقراءة وتطبيق الخيال على وجوه التعساء من حولي وليس لي أن أزيد. أنني كثيرًا في أوقات كهذه، أوقات أخلو فيها إلى وحدتي يسرح عقلي إليها. يوم ماتت لم أحفل بها، وخرجت إلى الشارع ألعب البلي وأحنجل على الرقعة مع الرفاق. لم أبال، حقـًا لم أبال. لا أذكر لها وجهـًا، لم تخلف عنها صورة فوتوغرافية أعرفها منها. خلفت حكايات، أتذكرها كلها ولا تفارق بالي بكلماتها المدمجة

التي تنغرس في الصدر وتبقي بداخله أثر نفسي لا ينجلي وإنما يتنامى ويوقظ مشاعر لا آخر لها. يوقظ بالنفس شروق وغروب. وأنني أبدًا لا أنساها. وأنني أبدًا لا أجد تفسير لكرهي لها. وأني أقول لنفسي أحيانًا أنه حب من نوع آخر. حب بثوب قاتم.

نهضت عن مقعدي بعدما احترق الحجر ووصلت إلى الفحم. خرجت من المقهى ولمحت المبخرة المتأرجحة في نظرة أخيرة قبل أن أنطلق في طريقي. ركبت أول مواصلة اعترضتني وقت خرجت إلى الطريق العمومي. وحين رمتني قرب الدرب الأحمر، أخذت أقل من ربع ساعة سيرًا حتى وصلت محل سكني.

شعرت بالعرق يصهد بدني وبالغبار يمتزج به في سريانه. وكنت في حالة إرهاق مما لحقني طيلة اليوم، لذا وقت أن ولجت الشقة بسرعة دخلت أجهز لنفسي الحمام. ووقت أن نزعت عني ملابسي المردومة بعفار الشارع، نزلت في المغطس. ولحظات حتى علت فيه الرغاوي الرمادية نتاج اغتسالي وفركي جسدي. شعرت بالانتعاش ونقاء النفس والذهن لحظة خرجت من الحوض وبدأت أجفف نفسي بالمنشفة. فككت سدادة الحوض وتركت الماء الوسخ يتصرف. ووقفت لثوان إلى جانب المرآة، حسبت أنني أتطلع في وجهي المبلل النظيف. لكن لم يكن هذا ما لفتني وأوقفني. وقع تركيزي على نافذة الحمام الصغيرة، والتي كانت مفتوحة بشكل عفوي لا يثير ريبة أو اهتمام. إنما ما أثار اهتمامي هو الإطلالة التي كانت مفتوحة عليها. اقتربت من النافذة لاستوضح ما وقعت عيناي عليه، ورأيت الظل

المرسوم بعناية وحوافه الدقيقة الملساء الحادة. حواف الجسم من خلف اللوح الكريستالي. من نافذتي إلى تلك النافذة تفصلهما فجوة ظلامية هي لمسقط العمارة، الذي يطل عليه حمامي. أما النافذة الأخرى فكانت بالأسفل في الناحية المقابلة لإحدى شقق الدور الثاني. وفيها رأيت الظل المنعكس لمن بذاك الحمام. كانت امرأة، لم تكذب معالم الجسد. بدأت تتعرى توطئة للتحمم. تتعرى ببطء ومرونة، شيء تعلق به بصري لوقت قصير وثار له خيالي. وإن وجدت أن الوضع طال أكثر مما يستحق، وهي في مكانها ملساء الحواف لا ثوب يغطيها واقفة وكأنما انصرفت إلى شأن آخر غير الذي دخلت لأجله. ثم باغتني الإدراك فجأة. لم تكن تولي ظهرها للنافذة. أدركت أنها تقف بالمواجهة. وبنفسي اشتعل هاجس بأنها تنظر نحوي، بثبات تراقبني. ثبت الظل في موضعه. وتصلبت في مكاني لثوان أو ربما لدقائق. وقد تسرب إلى نفسي قلق ما.

١٠

لم تتحرك. لم تكن شماعة أو انعكاس لظل شيء ما. كانت امرأة عارية الحواف، مثيرة للخيال. لكن أي خيال؟ خيال الشبق أم القلق؟ إن للسواد ملامحه الجذابة كما له أخطاره الباطنة. وإذ أمعنت التدقيق خيل إليّ أنها لم تكن ثابتة بالشكل الذي تصورته. بل إنما قريبة. أمعنت فتخيلت لون اللحم الوردي على لوح الكريستال. أنه لباطن يدها. ثم إلى.. إلى وجهها! شفتيها وأنفها، وعيناها متسعتان يرتفع فيهما البؤبؤ الأسود للأعلى. للأعلى، فكأنما يطمس اللون الشاذ وسط محيطهما الأبيض. الأبيض لوحده مقلق كفاية، الأسود الناظر نحوي يشل حركتي. ثم أتاني الصوت من خلف ظهري. وأفزعني نقيض البرص في مكاني. ما جعلني انتقض منتبهًا إلى حالي. كان الشيء البدين المقرف حين التفت ملتصقًا على رأس باب الحمام. أيقظني صوته المكهرب مما كنت فيه، لكنه مع ذلك أيقظ غيظًا شديدًا كامنًا بنفسي. دفعت النافذة من توتري وأوصدت المزلاج. نظرت فيما حولي بعد ذاك، ثم وقعت عيني على المجراف أسفل حوض الصنبور. أمسكته بيدي، وبسرعة حدفته صوب الكائن البغيض أعلى الباب. بالطبع لم يصبه، كنت بحاجة للتمهل أكثر. فر المخلوق الكريه من أمام عيني في خط متعرج واختفى في شق بسقف الحمام. وحين فتحت الباب وخرجت كان دخان حنقي

سابقني. اتجهت إلى غرفة النوم، وشوحت الفوطة بمكان ما، ومن أدراج الصوان أخرجت شورت اكتفيت بلباسه فقط. ثم أطفأت إضاءة الغرفة وتحركت إلى السرير بشكل تائه بعض الشيء. وحين وضعت رأسي المنهكة على الوسادة راح ما شغل رأسي وانزلق وعيي إلى ظلام آخر.

لا أدري كم كانت الساعة حين تيقظت مجددًا، لكن بالحدس كنت على يقين أنها تجاوزت الواحدة أو حتى الثانية صباحًا. طرقات على الباب. طرقات متوترة، عنيفة بعضها، خفيف بعضها. في هذه الساعة، من قد يزورني؟ نهضت منزعجًا. وأمام باب الشقة تصلبت في موضعي. قلق مألوف ساورني. وذلك حين رأيت ظل الواقف ينعكس على الشراعة. أهو نفس الظل، أم أن كل ظل هو نفس الظل؟ ثبت للحظات أحملق فيما أمامي. ولمّا عادت الطرقات وجدت ألا جدوى من التغافل عنها. صاحبها لن ينكشح بسهولة. وبيد متوترة فتحت الباب. ولحظة شددته لانفراجة بسيطة خاطرتني فكرة فات أوانها. فكرت لمَ لم أفتح الشراعة أولًا لأعرف باليقين ما أنا مقدم عليه بدلًا من مفاجأة ربما لن تكون حميدة. لعنت نفسي مرتين. مرة لغبائي، ومرة لعقلي الذي لا يتيقظ إلا بعد خراب مالطا. في هذه الساعة من الليل وأجري لفتح الباب بكذا اندفاع وسذاجة. آه، فتحت الباب وقد سرت في أعصاب يدي رجفة لما خاطرني. وانفتح الباب على..

- "ملح؟"

جاري المتعجل المرتبك دائمًا. حمودة شيء ما، كان هو من وقف في هذه الساعة أمام باب شقتي. نظر إليَّ بعين مستجدية، وراح يطلب مني قليل من الملح بزعم أنه في حاجة شديدة إليه وأنه قد نفد ما لديه. ما جعلني أتساءل باستغراب!

أكد لي: "كما تعلم.. قد تجد في الأمر غرابة أطوار.. لكن.. لكن يبقى الأمر حقيقي. هناك طقوس لابد من أن تتوافر حول الكاتب حتى ليبدع بشكل لائق.. ويتقد ذهنه فيخرج منه بفعل الجو المهيأ له إنتاج أدبي متلألئ!"

عاق العماص أن تتسع عينيّ بعجب أكثر: "لكن.. الملح؟"

- "نعم، نعم لكلٍ طقوسه.. وطقوسي هي رش الملح حولي في المستطيل الذي أتخذه للكتابة!"

حسنٌ يا حمودة بتاع أنت، أنت بالحق معتوه!

- "حسن، سأحضر لك القليل" قلتها وتراجعت للشقة، ومن خلفي سمعته يهمهم بانفعال: "كل الشكر.. كل الشكر!"

الحقيقة أنني لا أدري. وقفت في المطبخ حائرًا للحظات، كانت هناك العديد من البرطمانات المتروكة، بعضها مصفوفة في رف على المطبقية وبعض آخر كثير غطاه الغبار موضوع في صندوق بالركن على الأرض. لا بيت يخلو من ملح، هذا ما هو متعاهد عليه. فلابد أن يكون أي واحد منهم به الملح. ولم يكذب حدسي، وجدت ثلاث برطمانات معبئة إلى آخرها بالملح. لم أكن بحاجة إلى كل ذلك،

التقطت واحدًا. وخرجت من المطبخ إلى باب الشقة. ثم لحظة أودعت البرطمان بين يديه، هللت كل تفاصيل بدنه بالسعادة، حتى شعرت كأنما سيسجد على قدميّ يقبلهما. أكنت بنفس الحالة لحظة أعطتني الحاجَّة بالشقة المجاورة الشاي؟ انغصني بالفعل الخاطر. لكن الرجل على كل ظل بعقله، لم يقدم على شيء كهذا. لم يفعل سوى أن أزاد في الثناء، وانطلق بغنيمته بعد ذاك إلى شقته.

عدت إلى السرير. مددت جسدي، ونبهني عقلي -بعد خراب مالطا- أنني خرجت إلى الرجل عاري الجذع والفخذين. خرجت إليه بالشورت بغير حتى أن أدرك. ما جرى قد جرى. تجاهلت الأمر، وحاولت أن أغفو. لكن لم يحدث. تقلبت على جانبيَّ وعلى ظهري وبطني. لم يأتني النوم على أي جانب. بلغت في تقلباتي لفات عديدة، حتى شعرت لوهلة بأن لحمي سينعصر في شكل لولبي أو ربما فكرت أن رأسي سيدور إلى ظهري. راح النوم بلا سبيل للعودة. منك لله يا حمودة! نهضت من فراشي، وتوقفت أمامه لثانيتين ربما لأندب حظي، ثم تحركت إلى المطبخ. أعددت لنفسي كوب شاي على عجل، وعدت به إلى غرفة النوم حيث خرجت منها إلى الشرفة.

زفرت من فيهي نفسًا ثقيلًا، وبدأت أرشف بضع حبيبات غير حامية من الكوب. لم يثر شغفي الشارع الخالي بالأسفل، بل فعل القمر البازغ على سجادة السماء المزركشة بالنجوم. لحظة أو ربما اثنتين أو ثلاث كدت فيهم لأغرق في تأملاتي. لولا أن انتزعني حديث إلى يسار أذني أفزع الكوب في يدي، ولولا ستر الله وتشبثي به لسقط

في الشارع. إلا أنه مع ذلك سقط نصف محتواه. لم أسمع إلا: "لم تستطع أن تنام؟" ونظرت إلى جواري بهلع. لأراها هي سلوى واقفة في الشرفة المجاورة وبين يديها قدح ترشف منه. هدأ روعي تدريجيًا إلى أن خفت، ثم تطلعت مرة أخرى فيها. هادئة على غير العادة تتطلع في الأفق المظلم. وكانت تقف مستندة على السور في منامة ليلكية من المخمل خفيفة تكشف كتفيها وتبرز منها ذراعيها، وينسدل شعرها في شكل عفوي على ظهرها. وتحت ضياء القمر، بهرتني وقت سقطت عيناي عليها.

قلت في شيء من ارتباك بينما انفض قطرات الشاي عن أصابعي: "أنتِ أيضًا؟"

هزت رأسها في لامبالاة.

رفعت كوب الشاي إلى شفتي، وأحنيت رأسي أتطلع في الشارع الخالي.

- "أنهيت روايتك" قالت

- "يبدو في وجهك" ولمحت بطرف عيني الجلد حول ثغرها يشد في بسمة.

- "الرواية بوليسية، لكنها أيضًا رعب"

تممت على كلامها: "الرعب واقعنا"

- "رعب اجتماعي؟!"

رأيت في الشارع كلبًا أجرب قد رقد يفرك نفسه، وقلت بينما ألاحظه بعينيّ: "في المجتمع رعب كاف، فما الذي يجعل الكاتب يعتصر عقله ليخلق في مخيلته جنًّا وعفاريت ووحوش أخرى بهدف الإخافة".

- "مازلنا نتحدث ههنا عن توفيق الحكيم؟"

بل عن جدتي.

رفعت رأسي إلى سلوى وطالعتها في بسمة مشرقة. الحق أنني أشعر بسرور بحديثي إليها، وإن كان في هذه الساعة من الليل.

- "تسمعي حاجة؟"

نظرت إليَّ غير فاهمة، فقلت: "انتظري.."

دخلت للغرفة، وحضرت شريط بعينه وضعته في الكاسيت. ثم خرجت به معي ووضعته على سور الشرفة. عدلت مستوى الصوت ليناسب آذاننا نحن الاثنان فقط، وشغلت الأغنية. وصدح في الكون الساكت غناء فريدي فيندر، يغني أيام ضائعة وليال ضائعة. تطلعت للحظات في وجهها الرقيق ذي التعابير المهتمة، والتي انفرجت بعد لحظات في استمتاع. عدت بشرود أراقب نجمة في البعيد، تشع بلمحة لافتة وسط كيان الظلام.

- "ذوقك جيد"

هززت كتفيّ: "شيء أعرفه"

لم تبتسم لذلك، بل وجدتها تقول بصوت مهزوز عن ارتباك وخجل: "صباح اليوم، آسفة لأنني كنت مبالغة في حديثي معك، كنت منفتحة بشكل لا يعقل.. لعلك الآن تحسب أن بي قدر هائل من السذاجة؟"

- "أنا أعرف أن الأطفال تو ما يخرجون من بطون أمهاتهم يصرخون، في حالتك أحسب أن وقت ولدتِ خرجت تعتذرين!" نظرت إليها "سلوى، أنا لا أرى بانفتاحك معي عيب، بل أقدره"

صمت قليلاً، ثم سألتها بنبرة مختلفة: "هل عادة ما يطرق بابكم جار قرب الفجر ليطلب الملح؟"

- "من فعلها؟" نطقت بمرح، ثم ضاحكة: "انتظر.. الأستاذ حمودة؟"

- "هو بكرشه"

وتابعت أقول: "أطار النوم من عينيّ، وجعلني أقف أمامه في حيرة لا أفهم، أما يفعله طبيعي أم أنا من صرت دقة قديمة لا أستوعب التقاليد الاجتماعية!"

وغطى ضحكنا على عزف الأغنية التي بدأت تعاد في دورتها الثالثة. أشع النور من الأفق في عينيّ، وظللنا نتحادث لدقائق أخرى في أمور جادة وسخيفة، بهدف التسلية أو ربما نتاج خفة عقلينا الناقصين للنوم. حتى كان أن لمسني النعاس وقت سمعت قرآن الفجر يتصاعد من مئذنة جامع قريب، وفي وجهها رأيت نعاساً مماثلاً.

رفعت يدي أغطي انتفاخ فمي المتثائب، وعقب ذاك قلت لها وأنا أهم بحمل الكاسيت والدخول: "تصبحين على خير" فتمنت لي المثل من وراء بسمة عذبة. ولحظة ولجت الغرفة رميت نفسي على السرير، وكم كانت روحي خفيفة في ذلك ونومي سريع.

فتحت عينيَّ مع شروق الشمس. ومرت ربما ربع ساعة، كنت قد تجهزت فيها مذ ذاك. تطبيقي لفكرة تأجيل الإفطار حتى أصل لمكان العمل، وتناوله هناك يسهل عليَّ جدًا موال التخطيط نفسه والتحضير ويجعلني خفيفًا سريعًا في نهوضي لا أحمل عبء الوقت على منكبيّ. خرجت من الشقة، وأول من طالعت كانت سلوى. بدت كأنما تنتظر شيئًا ما، تتحرك في الرواق رائحة غادية بزحف متردد بطيء. لكن وقت رأتني وقد انفرج الباب على وجهي، كأنما صعقت في مكانها ومضت بسرعة متظاهرة بالجد والعجلة وأنها كانت في طريقها من الأساس. ابتسمت لذلك فتقشر الإرهاق عن جلدي. ومضيت ألحق بها.

11

شارع تحت الربع، في نفس القهوة التي صارت لي تميمة حظ وبركة. لم يبد على الساعة أنها تجاوزت التاسعة منذ وصلت. وضعت حقيبتي البلاستيكية إلى جوار ساق مقعدي، والتي كان بها بضع كتب اشتريتهم بعدما انتهت وردية عملي من حي الفجالة، وقميصين جديدين وبنطلون من محل هناك أسعاره ينتعش لها جيبي. أرهقتني معدتي المنتفخة من عشوة هذا المساء مع العاملين بالمطعم طوال طريق العودة، ما جعلني في أمس الحاجة لكوب شاي بالنعناع. طلبته فور أن حطت قدمي مشارف القهوة. وكنت منهكًا في حالي وعرقي والتراب الذي يغطي جبهتي، فلم أكد ألحظ ذاك المتطفل الذي زحزح مقعده بغير أن يرفع مؤخرته عنه ليتصدر واجهة طاولتي. نظرت بلا اكتراث في وجهه، فعرفته من بسمته السمجة ووجه المتعرق شديد الفصد. قال لي عكاشة في صوت مقهقه: "أرى أنك قد صرت تمام التمام، مستقر في شقتك ولا يعوزك من العالم شيء!"

مالك يا قهوتي العزيزة، تطلين إلى بالي فأجيئك طالبًا الراحة والذهن الصافي فيكون أن تفاجئيني هكذا بمثل هذا الـ.. البرص! ماذا، بهذه السرعة ذبل حظي فيك وفقدت أثرك الطيب المبارك؟

نظرت إلى عكاشة؛ أعرف ما وراءك: "اختصر يا عكاشة"

نفض منديله المحلاوي من جيب قميصه وكأنما سيفاجئني الآن بأرنب يرقد تحته، إلا أنه طواه ثم بدأ يمسح عرقه: "الأمر وما فيه أنني رجل ذواق لم أرد الإنغاص عليك في يومك الأول بها وحاشا لله أن أفرض نفسي عليك أو أحملك همًّا فوق همك، لأنني كما قلت رجل ذواق أقدر بني البشر وأهتم لخدمتهم كلٌّ لوجه الله، والله كل لوجهه الكريم. لكنك كما ترى الظروف، وأنت الآن ما شاء الله عينيَّ لا تحمى عليك حالك فل الفل الآن كما أرى و.. وكلك مفهومية!"

عرفت أنه لابد راجع؛ وهل يستحي من مثله أن يستدر المال طيلة الوقت من غيره، عمولة أو غير. لكن ما يلجم لساني حقيقة بينما أطالع وجهه ويخلق شعورًا بنفسي له طعم مروع، أنني أرى ملامحه تتشكل في هيئة أخرى، تتخلق إلى ملامح وجه البرص! تبـًّا، عيناه شديدتا الانتفاخ وجهه منحدر مدبب، جلد وجهه في جزء العتمة الذي لا تصله نور مصابيح القهوة يبدو رماديـًّا ونقاط العرق عليه بؤر شاذة اللون. ينظر نحوي بتبلد لكن عينيه تشعان نهمًا. الإرهاق يدير رأسي، ويغطي على عينيّ بالغشاوة. أأنا بذلك التعب؟ أغمضت عينيّ لثانيتين. ثم مددت يدي إلى محفظتي في الجيب الخلفي، وأخرجت له ما فيه النصيب. صرفت نظري عنه وهو يرد بمرح: "من يد لا نعدمها أبدًا!"

الواقع أنني وددت لو أطيل جلستي أكثر قتلاً للفراغ الذي يصاحبني عند العودة. لكن هذا الاقتراح لم يعد مرجحًا الآن، جلوسي كلما طال أكثر شعرت بإعياء بنفسي. جلستي لم تعد مريحة

كما كان الحال منذ قليل، بل متقلقلة. لا أدري إن كانت إشارة لوعكة في الطريق أم ماذا، ورجحت بالظن أنها بسبب شيء ما أكلته. وعليه نهضت من مقعدي وغادرت القهوة بلا كلمة. ربما سأفرغ معدتي قريبـًا، لا أود أن أتقيأ في المكان الذي استأنست به على الأقل.

مسح على وجهي النسيم البارد، ولم أكن قد ابتعدت عن القهوة مسافة تذكر، حتى وجدت قلبي يهدأ والانفعال الذي شحذ أوتاري وفصد الإعياء على جبيني يتقلص بالتدريج حتى انقضى وراح. استرجعت بعض نشاطي بالفعل، وحين التفت إلى وراء لم أمسك نفسي عن نظرة ازدراء رميت بها المكان الذي تخيلته موقع جلوس عكاشة.

طارت بي قدماي حتى العمارة الصفراء. دخلتها بخفة وصعدت سلالمها بنشاط. وحين كنت بالدور الثاني توطئة لصعود سلالم الثالث، بغتني صوت صفق الباب وراء أذني. وجدت عبد السلام توكل وقد خرج من إحدى الشقق التي ربما كان يتبضع لسكانها شيء ما. لمّا رآني رفع يده إليَّ بالتحية. تلك اللحظة فكرت أنني لا أملك معي سجائر كفاية، معي ربما ثلاث سجائر في العلبة. ناديته لينتظر قبلما يهم بنزول السلم، فجاءني بغير تمهل. مدت له ثمن علبتين وزيادة ستقع في جيبه لتعب مشورته. برزت أسنانه النخرة في بسمة ليقول: "لهلوبة، في ثواني!"

ولجت شقتي في الدور الثالث، وأول ما دخلت حددت طريقي إلى المطبخ. فتحت الفريجيدير الذي كنت قد زودته ببضع لوازم،

وسحبت منه زجاجة مياه باردة. شربت منها قليلاً وأنا واقف، فتجدد بها الدم في عروقي. وعدت بها معي إلى الصالة، وما وجدتني إلا وقد انهرت على الأريكة. دقائق مرت عليَّ في ذات الوضع، الجو هادئ إنني صامت. أحسستني كئيبًا حزينًا. وتدفق في نفسي مع وطأة شعوري قليل من هذا وذاك، فصار الأمر واقعًا. والحق أنني مقت الصمت المطبق وكل الهدوء المحيط. فانتفضت من مطرحي وتحركت إلى الغرفة. أدرت بالكاسيت أغنية وحيد مجددًا، نسخة جيلبرت أوسوليفان. رفعت الصوت أكثر بقليل ثم تركته جوار الكتب على الصوان، وارتميت بعرض السرير أطالع السقف شارد. وإلى جوار الأغنية اشتعل صوت آخر، نشاز عنيف. ولم أكد أغرق في تأملاتي حتى وجدتني أنهض منزعجًا، وقد دمر مزاجي بفعل الضجة القادمة من الخارج. أحدهم يصيح بالرواق. هذا الصوات الزاعق لأنثى. ومشتت الفكر مغتاظًا، تحركت لأرى ما الخطب. وبخارج الشقة لحظة ما فتحت الباب أدركتهما مجددًا. حمودة وفتاته! لكن الليلة هي هائجة ساخطة، ليست كما السابقة مزاجية هادئة. وقفت أتطلع فيهما بدهشة. كانت تتشاجر معه لشأن ما، تنعته وتوصمه بألفاظ مهينة. وهو كما هو، متوتر مرتبك يحاول تهدئتها.

- "اهدي يا درية وعودي للداخل، لا تسمعي أحد بنا.. كفى فضائح!"

- "أبدًا! وديني لأفضحك يا أقرع يا أهبل يا خريج الخانكة.. ملح؟! أي ابن مجنونة رقدت معه في فراش واحد لم يفعل ما فعلت!

أتركك ترشني وتغمرني به وأنا صابرة ومستحملة لسعان دماغك.. لكنك لا تكتفي.. لا إزاي، تريد أن تزيد!"

لم يعجبني ما يحدث حقيقة. الوضع يحتدم، وقد أشفقت على الرجل. تقدمت متطوعـًا لعلي أحل الجدل قبلما يخرج الجيران وتصير بالفعل فضيحة على ملأ. لكن ماذا تراني أفعل بغير أن أورط نفسي معها وأقع تحت كرباج لسانها؟ حسنٌ، فليعني الله.

كانت مستمرة تمطره بأقزع ما هو قاس، بينما أتقدم إليهما. لفت نظر حمودة، فنظر إليَّ المسكين مرتعبـًا. ولمّا طالت نظرته لفتها هي الأخرى فالتفت نحوي، حين شرعت أنطق: "اهدئي يا آنسة..!"

آنسة؟

ونظرت إلى حمودة أيضًا: "مالكم يا جماعة؟ اهدآ، لا تدعا الشيطان يدخل فيما بينكما..!"

شيطان؟

وإليهما قلبت نظراتي: "تذكرا الليالي الطيبة التي جمعتكما، ولا تدعا مثل هذا الأمر العابر يقطع بينكما بالشر.."

أشعر بأن حماقتي تتفاقم!

"أيـًا كان ما حدث بينكما فدعوه يبقى بينكما ولا تذيعوه على ملأ. الناس لن ترحم كليكما، والفضيحة لا منجى منها!"

الحق أقول معترفًا أنني أسوأ من قد يحل نزاع. وكيف لا ولساني يتعقد ويتفوه بكلمات لا رابط بينها، إحداها ترميني شرقًا لحكمتها وأخراها ترميني غربًا لسفاهتها. وخصوصًا النزاع بين هذين!

صمت الاثنان تمامًا. كنت أتمنى ذلك كحل، لكن مع ذلك لا أستبشر به الآن. نظراتهما تشعرنني بالريبة من نفسي. لا أطيق أن أبدو بمظهر المغفل. إما أن يكون من ردة فعل أو أرحل. لذا أزدت: "يمكنكما الرجوع للشقة الآن وحل المشكلة التي وقعت بينكما بالداخل".

كدت أهم بالفرار من هذا العار الذي لبخت نفسي فيه بلا داع. إلا أنها هي من نطقت لتقول بنبرة أقل حدة: "أبدًا، لن يجمعني مع هذا الشخص مجلس واحد، ولن أدخل شقته!"

- "حسنًا، أي شيء تريدين؟"

نظرت إليَّ مليًّا وقالت: "رد اعتبار!"

- "أملي ما شئت يا درية، لكن من فضلك بلا فضائح!" نطقها الرجل بنبرة راجية. لم تنظر إليه أو تكترث له، ابتسمت بخبث في طالعي: "يلزمني التفكير"

- "حسنًا" قلت "ارجعي الشقة وأنا وهو سنبقى معًا حتى تتخذي قرارك"

- "لا، قلت لن أدخل شقته!"

لا تقولي! لن أشترك في هذا العبث إن كان هذا ما تشيرين إليه. شقتي ليست سويسرا! وفي عينيّ حمودة رأيت النظرة المستجدية التي أكدت صحيح ظني. هذا التعس الغبي المسكين!

- "سيسرني استضافتك في مسكني المتواضع.. إن شئت" رضخت. تلك اللحظة رأيت ومضة خاطفة تشع في عينيها، ثم إذ بها تهز رأسها في شيء من ترفع وكأنما لا تكترث. حينذاك هدأ الجو وفرغ من شحنه ووجدتها تتقدمني هي تجاه شقتي! التفت إلى حمودة، فوجدته يرفع يديه إلى صدره بثناء صامت.

دخلت الشقة كأنما بيت أبيها وأنا خلفها. ترددت عند الباب، أأقفله أم أتركه مفتوح، ثم استقريت في الأخير على تركه مفتوحًا. وإذ لحظت هي هذا، رأيت بسمة ترتسم على شفتيها. أشرت لها أن تجلس على الأريكة، وجلست أنا قبالتها على مقعد. ثم لم أدر ما عليَّ أن أفعل بعد ذاك. إلا أنها هي من تكلمت: "ألديك شيء يشرب؟"

- "ماء بارد، وشاي" قلتها ببراءة

فردَّت: "شاي؟!"

اعذريني، لم يعلمني أحد أني سأستضيف قحبة لهذا المساء!

هزرت منكبيّ: "لم يمر على إقامتي هنا سوى ثلاثة أيام، لذا كما ترين تمويني بعافية شوية".

ضمت شفتيها إلى بعضهما بأسف: "قليل من الماء فقط إذا سمحت كي أتخلص من الجفاف الذي سببه لي السافل بسكبه الملح عليّ"

أومأت إليها، ونهضت بلا كلمة.

أحضرت لها زجاجة وكوب زجاجي نظيف، ثم إذ رجعت إلى الصالة لم تكن هي هناك! وقفت للحظتين حائرًا قبل أن ألمح ظلها يسرح في حجرة نومي!!

مضيت إلى الغرفة، وهناك وجدتها قد اتخذت لنفسها مجلس على السرير وقد وضعت راحتيها أسفل ذقنها وهي تثقب بعينيها الكاسيت الذي كانت تتناغم مع أغنيته الدائرة. قالت لي وأنا أناولها الماء: "شكرًا لك" وأردفت بعدما اجترعت من فم الزجاجة رشفتين متجاهلة الكوب الممدود: "تبدو هذه الأغنية لطيفة، رغم عدم فهمي لمعظم كلماتها" وأخذت الزجاجة مجددًا على فمها. إنها شديدة العطش فعلاً. حين أتت على أكثر من نصف الزجاجة، وضعتها إلى جانبها على الأرض ونظرت إليّ مستغربة: "مالك تقف هكذا؟ اجلس"

ولم تتركني أتخذ القرار، وجذبتني من ذراعي لأجلس جوارها. كانت قطة بالفعل، تتطلع بفضول حقيقي في كل شيء بالغرفة، استقرت نظراتها كثيرًا على أغلفة الكتب وشرائط الأغاني المبعثرة حول الكاسيت. وقالت في ذلك: "إنك تضيف لهذا المكان جوًا خاصًا"

- "كأي خنزير في بركة" قلتها وعيناي تراقبان التفاصيل المهملة، عشوائية الترتيب في الإرجاء حولي. وابتسمت أقول: "أرى أنك قد هدأتي بعض الشيء؟"

طالعتني بنظرة ماكرة: "تريد أن تتخلص مني بهذه السرعة؟"

شعرت بسخونة أذنيّ بينما أقول: "قطعـًا لا!"

ورأيتها تضحك بخفة وقد دارت خصلاتها الملونة الشقراء على إحدى عينيها. بهذا القرب لم أستلطف الأحمر على شفتيها، شعرته فجًّا مبالغًا فيه برغم أنني في البداية لم أعر الأمر اهتمامًا. وضعت فخذ فوق فخذ ومدت بساعديها إلى خلف ظهرها تستند عليهما وقد سرحت في تأملاتها مع الموسيقى. كانت ترتدي لهذا المساء فستان رخيص آخر أسود اللون، يتميز كما السابق بكامل عناصره الملفتة. وكانت عيناها البنيتان تتنغمان مع هيئتها، هي حقـًّا فتاة جميلة ولولا التبرج المفرط الذي تلطخ به سحنتها لكانت بالفعل باهرة. ملأ شذاها المعطر جو الغرفة، وكان يفوح إلى داخلي حين قالت: "جارك هذا مخبول لولا تعلم، أتدري أنه كان يريد وضع الملح في..."

وقاطعتها أقول: "أدري، برغم أنني لا سابق لي حتى بمعرفته"

اتسعت عيناها في نظرة مستغربة: "ولمَ تشددت له وهو ليس صديقك حتى؟!"

رفعت كتفيّ بلا مبالاة: "ومن قال أنني فعلتها لأجله؟"

نظرت إليّ مطولاً، ثم كأنما طرأ بالها فهم ما ابتسمت على أثره وعادت بنظراتها إلى الكاسيت. كنت أعي بالقول لأجل راحة دماغي، لا أدري بالحق ما فهمت لكن على كل... لا يهم.

لفت انتباهي تلك اللحظة حين رفعت رأسي إلى السقف في تأمل عفوي، برص سارح يتحرك نحو شق جانبي. دخله ولثوان ظل ذيله يتأرجح منه يمنة ويسرة. أما ما كان العجيب هو حين رأيت واحدًا آخرًا يتبعه إلى شق السقف، مضى الأول إلى جحره وتبعه الثاني. وصرت في غيظ حين رأيت ثالثهما يظهر من مكان ما، ويتبع سابقيه! ظللت للحظات أتأمل مدى بشاعة لونه، وقبل الشق بخطوة وجدت اللعين يطل برأسه إليّ عيناه المنتفختان تراقباني بفضول وحذر، ثم ولج إلى مدخله. حقـًا الأمر مزعج لا يطاق! وزفرت بضيق، لأسمع فيما بعد صوتها يعيد إليّ انتباهي: "أين كنت؟"

تذكرت أنني لم أمهل الوقت لأغتسل فور عودتي، لا بد أنها ترى وجهي الآن من خلف زوبعة تراب. هذا ما قلته في نفسي، قلت متنهدًا: "بالقهوة، جلست هناك لبعض الوقت قبل أن ينفرني أحدهم منها"

ضحكت بمرح لتقول: "لا أقصد هذا، أعني أنني كنت أحدثك وبدا أنك لم تسمع أي شيء قلته!"

- "حقـًا؟ آسف لذلك شرد بالي قليلاً.. ماذا كنت تقولين؟"

- "لا شيء مهم، كنت أحدثك فقط عن مدى حقارة جارك"

ضحكت من فرط الأسى وقلت: "أهو كان يريد أن يطهر الجو ليسلم له الأمر معك؟"

بادلتني الضحك: "إنه يرش الملح عمّال على بطال، يبعثره في دوائر.. حول المكتب.. حول السرير.. حول الثلاجة! لا يريد أن يترك ثغرة واحدة بغير أن يدسها ملح.. هذا هوس لم أر له مثيلاً، ويريد أن يجرني معه لذلك ويخضعني لعتهه! ملعون أبوها شغلانة!"

- "ألم يفعل هذا في مرته السابقة معك؟"

- "قال إنه نسي، ولذلك السبب يرى أن الأمر لم يسر معه على خير، وأنه لم يكن جيدًا!"

وددت لو أمسك نفسي أكثر من ذلك، لكن الأمر انفلت من يدي. وانفجرت في ضحك غير منقطع. وكانت هي إلى جواري قد حفزها الأمر فأخذت تضحك بالمثل. وحين بدأت تهدأ تلك النوبة التي اجتاحتنا، سمعتها تسألني: "بالحق، تصدق أنني لم أعرف اسمك بعد؟"

قلت بينما أفرك عينيّ: "كمال"

- "سعيدة بمعرفتك يا سي كمال، هي دي الصحبة وإلا بلاش.. وأنا درية"

قلت وأنا أحاول كبت جذور ضحكة جديدة: "عرفت، تشرفت يا درية"

تشرفت؟ حقًا لم أستطع إمساك نفسي، وتفجرت الضحكة.

وكنت معمي من خلف غشاوة دمعية، حين سمعت صوت أنثى أخرى بخارج الغرفة، صوت أعرفه يقول: "كمال، وجدت الباب مفتوحًا.. أنت هنا؟"

سلوى! وحين ولجت الغرفة توترت واقفًا على حسها وهي تقول بمرح: "أعددنا لعشاء الليلة الشركسية، فوددت أن أحضر لك طبقًا"

وفور أن رأتني على وضعي هذا، ذبلت البسمة على ثغرها وانفلت الطبق من بين يديها. قبّل الطبق الرخامي الأرضية فتكسر إلى مائة قطعة. تحركت قدماها لتخرج من الغرفة مندفعة لولا أن ترددت للحظتين وتوقفت لتعود أدراجها. وتتقدم نحوي، وحين وقفت قبالتي مضت يدها محلقة في الجو وصفعتني. ومع فرقعة اللطمة على خدي ساور أذنيَّ لحن أغنية بانج بانج الحزينة. ثم ولت سلوى فيما بعد مندفعة إلى خارج الشقة.

- "آسفة، لهذا الـ..!" نطقت درية بربكة وعلى وجهها نفس الصدمة.

عاد إليَّ انتباهي فقلت: "لا تعيري للأمر بالًا، لا أدري حقيقة ما خطب سكان هذه العمارة!"

حاولت أن تبتسم، لكن فشلت. قالت: "أعتقد أنني هدأت الآن، يكفي ما جرى بسببي لهذه الليلة"

استأذنتني في المغادرة، فرحبت بذلك ومضيت معها خارج الشقة. التفت نحوي في الرواق وهزت رأسها مودعة. ثم بينما تبتعد مرتبكة كادت لتتعثر لولا أن تماسكت وهدأت من اندفاعها. وقفت لبضع لحظات ساكنًا في الرواق الخالي، ما يزال أثر الصدمة جليًّا عليّ. هذا ما ظل عليه حالي لقليل من الوقت، قبل أن ينزعني من ذلك صوت النَّقيض الكهربائي إلى جانبي. وحين تلفت لمصدر الصوت تفاجأت بصف كامل من الأبراص يزحفون بعرض الجدار تجاه زاوية يساري، والتي تقود إلى السلالم الصاعدة للدور الرابع. تبعتهم بذهول إلى هناك. وأمام تلك الناحية باغتني الأمر المروع، لعدد أكثر بكثير في صف واحد يتابعون الطريق للأعلى!

١٢

وإن كان الكامن في الظلمات شرًّا عظيمًا، فمجنون.. مجنون من يتبع درب الظلام! وإنني لمّا لم تحضرني الأهوال التي حكاها القصاصون، وروتها الأفلام، فإنني لم تحضرني الأهوال. يبقى الأمر خيالاً. يبقى الخوف خيالاً. وتبقى الغيمة السخامية التي تكاد تصلها رأسي مجرد هواء. لكن لمَ يا ترى البرودة تقرص جلدي، لمَ ساقيّ تتشنجان؟ لمَ وقد رأيت في الظلام كائن منه يأتي إليّ، زاحفـًا راكضـًا. سرعة لا تحتك بالأرض، سرعة تحلق بالهواء. بالغيمة السخامية. إلى قلب الخوف. تبخر الخيال. تحضر الأهوال.

وإنني أبدو ذاك المجنون. صعدت بقدم فوق قدم، أتبع صف الأبراص بخطى حثيثة، علني لا أريد أفزاعهم؟ لا أدري، وكيف لم يفزعوا حتى الآن؟ لست بتلك الخفة، أفقدوا حواسهم اليقظة، أفقدوا حاسة استشعار الخطر؟ لا، ليسوا كذلك. إنهم مخدرون، ينجذبون لشيء ما. يتركون الحذر، يهملون أي شيء آخر هو عادتهم ويتبعون ما ينساقون إليه بجدية. صف من حوالي عشرين برص، وآدمي واحد. لا أدري إن كان الفضول هو سبب زحفي خلفهم لكنني أثق من وجود الغيظ. أريد أن أمرغ عليهم نعل حذائي لكنني أنتظر، أنتظر لأدري حقيقة هذا المنظر الشاذ. كان الأمر في العام ١٩٥٦م أذكر ذلك، أذكر أنني لفتني الأمر لأول مرة. كنت ألعب في الشارع

حين رأيت صف كامل من النمل يتحركون تجاه نقطة بعينها لا أعلمها. اتبعتهم لا لشيء وإنما لأنني أريد. قبست من الأرض حفنة تراب، وانتظرت معهم في مسيرتهم حتى يأتي الحين وأغدر بهم، أغمرهم بها. اتبعت الدرب، وقد كان بطيئًا بعيدًا عليهم. شيء أثار انزعاج الطفل الذي اتبعهم، لكن هيهات أن ينصرف الآن. مضى معهم، ثم تسرب التراب من يده وانزلق. فرغ كفه. وقفت بدهشة أنظر إليهم، لم يكونوا صفًّا واحدًا في الموقع المقصود، بل بالعشرات. صفوف من كل صوب تأتي إلى هنا. يغمرون الجسد، يصعدون قمة الرأس. يخترقون لحم البطن وينخرون العينين والفم. ثعبان بدين أزرق، بدا أن موته كان قريبًا، مسمومًا أو قتله شيء آخر. حاوطه النمل من كل جهة، غزو بدنه في لحظات. بقت للثعبان عينان فارغتان مظلمتان. وكانتا ترمقانني، رأيت في تفاصيل غير مرئية تفاصيل أخرى نسجها شيء ما، تفاصيل كره وغضب. تفاصيل شر، ينظر إليَّ وكأنني أنا قاتله. انتظرت أتابع النمل ينهشون لحمه الجاف، ورأيت البعض يسرقون منه للتخزين في صف عائد. راقبت ذلك وفي العينين المظلمتين الفارغتين ظل خيالي ينسج وينسج الأهوال التي أرهقتني طيلة حياتي ليلاً. نظرت إلى الأمام إلى الأعلى ورأيت ذيل آخر واحد منهم ينحرف في زحفه ليتخطى بروز الزاوية في المفترق إلى عرض الجدار الصاعد للطابق الخامس. وصلت للرابع، ولثانيتين ظللت أتطلع بدهشة فيهم. ثم تنهدت وشددت جناح الدرابزين المنفرد بيميني وتحركت بخطى أسرع هذه المرة. ذيولهم ترقص في الهواء بتموج رهيب، كهرباء تشتد، رقص عنيف. عيناي تلحظ

تزايده، برغم أن السرعة ظلت منضبطة. السادس. قفزت إلى الطابق الخامس، الجو من حولي أصفر. وإن كنت لا أبالي في الغالب بإضاءة أروقة العمارة، لكنني في مرتي هذه بدا وكأن الأمر يشعلني إضاءة تجعل الجو مشحون، شعرت صهده بداخلي لا على جلدي، على جلدي كانت تتفصد زخات عرق جارفة. السابع. قفزت إلى السادس. الصفرة هنا أقل، لا ليست أقل بل مقللة. ربما هذا هو المقصد؟ مقصدهم؟ حسنًا، لأقف للحظتين وأرى. الإضاءة الصفراء الممرِضة تغمر جو من حولي، عند الدرجة الأولى للسلالم الصاعدة للسابع حطت قدمي. لكن المنظر لا يحفز على الصعود. لأنه وبكل بساطة السابع هو فجوة مظلمة. لا إضاءة فيه. ورأيت أول الصف يبتلعه السواد، وثانيه تبع أخيه. الثالث أيضًا زحف في إثرهما، وكذا فعل باقي الصف. وبقيت متشبثًا في موقعي لا أدري ما أفعل، أأرجع ولتكفي مغامرتي السخيفة عند هذا؟ حسنًا، صعدت السلم. وفور بلع الظلام آخر ذيل مرتعش مضيت بخطى أسرع إلى الطابق أسود الإضاءة. لعله لا يسكنه أحد، لذلك لا يعتنى به كثيرًا. صيانة الكهرباء كما يتضح مهملة، وأيضًا النظافة. حقًّا أنفي بدأت تستشعر هذا. وبنفسي وثقت أن من هنا بدأ البلاء، لكن أي بلاء؟

وقفت عند بسطة السلم، أتطلع فيما حولي. لم أر شيئًا. انتظرت للحظات حتى تعتاد عيناي جو المكان. لكن بقى الوضع على حاله. عمى مصمت. وعند أنفي تراقصت عصافير العطن، وروائح أخرى انقبض لها صدري. رفعت رأسي إلى علٍ، فكان السود

هو السواد. طابقان آخران يعلوان هذا، ويبقيان حالهما على حاله. ثلاثة طوابق مهجورة لربما أو أن.. وضرب سقف رأسي شيء ما. سقط بثقل وإذ مددت يدي تلقائيًا لأتحسس أثره، وجدت له ملمس طري ناعم. تلك اللحظة اشتعل نفوري. نفضت الشيء اللعين الذي سكن بين خصلات شعري. وحين وقع على الأرض مددت يدي بعجل إلى القداحة في جيبي. فركتها مرتان بتوتر فلفحت شعلتها جلد أناملي. وجهت إضاءتها للأسفل، فرأيت الكائن الخبيث يحدق فيَّ ببلادة. وحين أصدر نقيض حنجرته، طرت إليه وكاد ليفر لولا أن فعصته تحت كعب جزمتي. رفعت قدمي، ظل الذيل يرقص، العينان شاخصتان فيَّ. وقفت عنده وتنفسي أخذ شكلاً لاهثًا. مات من ضربة واحدة، هذا أفضل. أين البقية؟ لوحت بشعلة القداحة في جانبيّ الرواق، وبدا أن له طول مختلف عن باقي أروقة العمارة. أكثر طولاً، أو هكذا تصورت. رأيتهم، لكن هل عددهم زاد أم أن هذا تصور آخر؟ لم يكونوا على عوارض الجدران، هذه المرة هم في محيطهم الآمن فلا يعوزهم حذر. لمَ يتسلقوا، والأحرى أن يتمشوا على الأرضية خطًّا زاحفًا نحو المجهول. كيان السواد الذي ينسج خيوطه على حواف الأضلاع الأربعة لمربعه المغمور في العتمة. سواد الرواق جهة يساري و.. انطفأت الشعلة. قدحتها من جديد، طقة شررًا ثم اشتعلت. وتلك اللحظة أحسست بشعور مختلف. هناك، وراء الحيز المظلم في جهة الأبراص، بدا كأنما شيء تحرك. تلاعب الظل؟ ربما. لكن لا! في ثانية واحدة انبثق امتداد من كيان الظلام إلى بقعة الأبراص، وفي لحظة أقل من أن تدرك اختفى عدد ثلاثة أو

أربعة من الصف وحلت مكانهم بقعة بلون بني. دائرة مبللة. تراجعت عند ذلك خطوة. وفي الحيز بدأ يتضح لي شيء ما، بدأت أرى.. انطفأت الشعلة. فركت القداحة بتوتر وعجل. اشتعلت ثم انطفأت ومرة أخرى حتى ثبتت. لحمي يذوب حرفيًّا. لكن.. أما سمعته هذا صحيح؟ هسيس، هسيس يتعالى ويتأتى من جهة تحديقي. حركة هناك ألحظها، رقصة في الظلام، رقصة متموجة لها حيز شاذ عن السواد المحيط. تسربت إلى نفسي وخزة قلق. حين نظرت مجددًا على الأرض حيث كانت الأبراص، وجدت البقعة المبللة قد اتسعت ولا وجود لهم. علا الهسيس شيئًا فشيئًا. وارتفع يحفز الصداع بين فصوص عقلي. تقدمت خطوة، أريد أن أرى، بشكل أوضح أريد تبين مصدر الصوت. خطوتين. ثلاث إلى المصدر. لمَ أشعر بهاجس يدفعني للخلف؟ حدس يهمس لي أن أتراجع. أربع خطوات. التفاوت اللوني موجود. هناك شيء ما يقبع بالظلام!

اشتعلت الرقصة، تموجت في الخلفية السوداء. ثم سمعت الخطوة، خطوة لزجة بطت على الأرض. عجين وَحل، شيء هو المزيج وله نفس الوقع. وقع الصوت. خطوة منه للأمام، نحوي! مازال لم يصله الضوء بعد. فضولي نحوه بدأ ينكمش. الآن دور الخوف في التزايد. عدت على عقبيّ على مهل و.. بلَّش بلَّش بلَّش! الصوت يقصدني، لا يقصد يتقدم نحوي. أين كان السلم؟ أين كانت السلالم اللعينة؟!! تراجعت بلا حذر. قبض الخوف معدتي، لم تكن وخزة قلق بل طعنة في قلبي. وارتفع الهسيس بشدة وعنف، ومعه في خلفيته سمعت أصواتًا

أخرى كثيفة من عدة مصادر للنَّقيض الكهربائي المرعد. رفعت الشعلة المرتعشة للسقف، ورأيت.. يا ربي الرحيم! عشرات منهم، وكيف لم أكترث للنظر منذ بدأ، منذ حط على رأسي أحدهم؟ كان في التهائي معه غفلتي عما أنا محاط به. ينكشفون الآن، أنهم يملؤون سقف الرواق! انعكست إليَّ ومضات عدة من نحو معظم الجهات بطول السقف. وكان لأعينهم تلألؤ فظيع على نور الشعلة. وحين أدركت بقدمي أولى درجات السلم. أدركت أيضًا لتغافلي. لم أتمهل لأحذر، بل اندفعت بكل ثقلي. وانزلقت. في جزء من الثانية بعدما التوى كاحلي أسفل مني، أيقنت أني ساقط لا محالة. فلتكن سقطة جيدة إذن. أحنيت رأسي وأثنيت ركبتيّ برد فعل عفوي. أنا ابن الشارع، وإن لم أكن تمرغت في ترابه بكل تلك الشقلبات اللانهائية في لهو غير منقطع نظير شيء أو شيئين تعلمتهما فحقيقة يكون لا جدوى فيَّ. تشقلبت، ولم أمهل لأعد جسدي لاستقبال الدرجات المدببة. غمضتْ عينيّ. تركت جسدي يجرف بالنصال البارزة، مضت علي ونهشت كوعيَّ وضربت ساقي اليمنى عرض الجدار إلى جانبي فنالها ما نالها. وحين فتحت عينيّ انزلقت قطرة ملتهبة من فوق حاجبي. صرخت مفاصلي، ونبض الألم من مواطن متفرقة ببدني، لكن الألم غدا أشد حرقة من سبابتي اليمنى، ولمّا طالعت إصبعي أدركت أن ظفره اجتث من منابته. ولم يهمني كثيرًا الأمر، فقدت جل اهتمامي بألمي وقد ركزت عيني فوق بسطة السلم. حيز السواد والذي كان يتصارع الآن مع نقيضه الأصفر. نور يوجع العين، لكن البصر مهما كان يدرك، يرى. كان الظلام في درجة أكثر شفافية

الآن، وفيه حددت الواقف وإن لم أتبين كامل تفاصيل معالمه. يقف على أربع، ضخم في حجم كلب الدرواس ومن خلفه يعلوه امتداد طويل بارز يلوح في الهواء. تصورت أنني أرى العينين، تصورت الرؤية النهمة فيهما. وما كدت أتراجع حتى باغتني صوت أقدام قد قرعت الأرض خلفي. التفت بفزع، عيناي واسعتان. عيناه مندهشتان واسعتان. توكل؟ وفي يده علبتيّ سجائري. صعد بهما إلى هنا؟ أكان لسقوطي كل تلك الضجة!

تفحصني بريبة، ثم نطق في نبرة جادة تخلو من أي ود: "ماذا تراك كنت تفعل بالأعلى؟"

التفت إلى الوراء فوجدت الآن أن الظلام فارغ. وحين عدت بعينيّ إليه، لم أجد في تعابيره الخرساء المتزمتة ما يحفزني على النطق.

١٣

إن كان الظلام خادعًا، إن كان الخيال واهمًا، وإن كان الخوف لا مبرر له. فماذا يكون المعنى؟ ماذا أكون أنا؟ لحظة ينسدل جفنا العين، لحظة يحضر الظلام، تتحرر منسوجات العقل؟ ماكينة العقل إذن لا تعمل إلا بخيوط سوداء، سوداء ورمادية، هلاك لا وجود له؟ وماذا إذن عليّ فيما بعد أن أفعل، لا أتواجد في الظلام، لا أغلق عينيّ؟ وكيف أفعل وبمجرد مواربتي لهما شياطين لا آخر لها تتحرر.

- "ما الذي بالأعلى يا توكل؟"

تركته يسند جانبي، حتى لا أترنح وأسقط بفعل ما كان وأرداني بالإرهاق.

- "لا شيء" ثلاث لمبات متوسطة موزعة بطول الرواق، ترتعش الآن إضاءتها الصفراء. أرى بالأرض ظل توكل يتضخم ويطول، رأسه تنحدر وتكبر. ظلي هو الآخر غير مرن، ثابت على شكله. أبهرتني غرابة الظل المنعكس عن توكل. "الأدوار الأخيرة صيانتها خربة منذ فترة الآن، كانت تنوي الست تأجيرها كي تكون عيادات طبية، ثم تراجعت وقت جاءها عرض أكثر إغراء لتحويلها لمطعم أو شيء كهذا، ربما كافتيريا عصرية. قد تنفع بقرشين زيادة، وبالفعل وافقت ومضى الأمر على قدم وساق لولا أن حدث طارئ في الأمر لصاحب

المشروع، عسر مادي أو خلافات ما على سعر التأجير أو ضيق منه بالأمر.. يعلم الله، وأدى إلى إيقاف العمل. وبقى الأمر منذ ذاك على حاله"

تذبذب خفيف، لم أشعره من قبل. الجرح فوق حاجبي يزعجني. تزعجني الإضاءة أيضًا، برغم أنها تعميني إلا أنها تزيد وتحرق خلايا تفكيري، تذبذبها يفضح ما بنفسي من تشوش. كافتيريا عصرية؟ أخشى أن أستيقظ في الغد وأرى نصف مصر قد صارت كافتيريا عصرية يخدّم فيها نصف الشعب بالمشاريب.

- "ما ذاك الذي رأيته فوق يا توكل؟" هناك تشنج زاحف بقدمي اليسرى. انكسرت عنق توكل في الظل وثبتت في مراقبة متحجرة لجانب ظلي. لم أنظر له، عيني مشوشة. لا أحب النظر لأحد وبصري في حالة حساسية. أخشى أن تسيل منهما دموع لا مشاعر وراءها، أو ربما هناك مشاعر.

قال توكل: "بالأحرى لم تر شيئًا، الظلام خادع يا بيه"

- "وهذه الجروح يا توكل أهي نظير لا شيء أيضًا؟!"

هز ظله كتفيه: "لا علم لي والله، ربما كان حيوان ضال اتخذ لنفسه مأوى هناك. لو كنت أعلم أنك مقدم على الصعود لحذرتك قبلًا. هذه غلطتي في النهاية، الأمر لا يسلم يا بيه. الكهرباء فوق خارج السيطرة، هناك بؤر حَفر وطوب غير متماسك وتبقى أدوات البناء موزعة هنا وهناك فلو تعثرت كفى الله الشر لما نهضت، أحمد ربك

إنك لم يصبك أكثر من هذا، ذلك الحيوان الذي تتحدث عنه قد يكون حتى مسعورًا، وما أدراك كيف هي العضة من هؤلاء. هذه الأدوار بحاجة لبعض التطهير"

حملقت في تمدد الظلال على الأرض، وقلت في صوت لم يسمع: "كل العمارة بحاجة للتطهير" لكن حدث أن سمع توكل. صدرت منه قهقهة خفيفة أكدت ذلك، أثق بأنني همست، كما أثق بأن هذا الرجل له سمع حاد. كما أخشى الآن أنه يتنصت على أفكاري وحديثي إلى ذاتي!

أوصلني أمام باب الشقة، والذي كان على حاله منذ غادرته غير موصد. ثم لم أكد أعبره، حتى سمعت توكل يتكلم ما جعلني ألتفت له. وفي عينه لم تكن النظرة أبدًا مازحة أو قريبة من ذلك: "لا تفعل هذا مجددًا!"

وقبل أن أنطق انصرف بخفة باتمان واختفى من أمامي. جسمي مكسر، ولا قدرة لي على الوقوف أكثر من ذلك. ترنحت متحركًا إلى الحمام. وفي الأجزخانة بالداخل وجدت ما يمكن أن أضمد به جراحي. حين مددت يديّ إلى الصنبور لأغتسل ضربت كهرباء عنيفة إصبع يسراي. ضغطت شفتيّ، وتحملت على أعصابي زوال الحرقة. ثم بنصف جناح رششت وجهي بقطرات الماء. وبمشقة أكبر خلعت القميص عني. استندت على جانب المغطس بينما أقوم بتطهير الجرح على سبابتي، وفوق حاجبي. لففت وغطيت عليهما متحملاً اللاصق الطبي. قمت من مطرحي وأمام المرآة طالعت

الرضات المزرقة ناحية الكليتين وإلى يمين صدري. لم تكن بتلك الكثرة. استهنت بالألم لما رأيت حقيقتها. ثم التقطت من جيب بنطلوني واحدة من العلبتين. فككتها ولثمت بفمي مؤخرة إحدى سجائرها. حين قدحت القداحة لم أرفع عينيَّ عن شعلتها الشفافة. رأيت في النار ما رأيته في الظلام حاضرًا. وكانت النار قد أكلت فم السيجارة، وبرغم الخدر المستشري في رأسي إلا أنني رفعت يدي فانطفأ اللهب. وغاب ما تصورت أنني رأيته، ليظهر حقيقة ما أراه. نافذة الحمام مفتوحة على نفس المشهد من جديد. لكن هذه المرة باختلاف، الزجاج في الجهة الأخرى منفرج في جزء قليل. وهي في نفس الميعاد هناك. رأيت ساقيها حد الركبة، وأستكمل الظل باقي بيان الجسد. حين فتحت نافذة الحمام صباح اليوم لأحرر الرائحة القاطنة به قبلما أذهب للعمل، توقفت للحظات أتطلع في النافذة الأخرى، وقد كانت موصدة يبرق زجاجها. أما الآن فالأمر يختلف، هي هكذا وغير هكذا. تبدى المغطس تحت ناظري واضحـًا. رأيت الساقين تتحركان إليه. ساقان طويلتان يبض اللحم عليهما بإثارة. نفثت في الهواء خط داخن، وللحظة واحدة طل إليَّ فخذ ثقيل في أثناء صعودها. ثم انكمش المنظر أكثر فيما بعد. القدمان ظاهرتان ونصف الساقين من المنبت. ثم انهمرت عليها قطرات الدش. قلص انتفاش شعرها المتمدد وصار كتلة واحدة في انعكاس الظل. رقصت القدمان مع شدة دفقات الماء. تمسح الأنامل بعضها البعض، تمتص جلودهم رطوبة أرضية المغطس. لسع عقب السيجارة المحترقة جلد أصبعي. فنفضتها في الهواء منتبهـًا. وحين هممت أن أخرج واحدة

أخرى، وجدت أن العرض انتهى. نزلت عن المغطس، قبّل الفخذ باطن الساق في انثناءة عفوية. ارتدت القدمان خفين كانا بالجانب. ثم قرعت أرضية الحمام مغادرة.

ما أجمل أن يجد الإنسان ما يلهي فيه عقله، خاصة إن كان عقل لحقه ما لحقني في ليلتي هذه. شيء سيفصلني قليلاً عن تحري ما جرى لي. لن أفكر ولن أنغمس في رؤى لا جهد لي عليها. عدت إلى حجرة نومي. التقطت من على الصوان رواية سايكو لإدوارد بلوخ. وشرعت اقرأ فيها من جديد للمرة الثالثة، وحين حقن الخمول بدني، شعرت بالخدر المحبب يسري إلى عقلي. قلبت ثلاثة وعشرين صفحة، ثم شعرت الكتاب ينكفئ على صدري. أغلقت جفوني بضعف وقرصة ألم. بدأ يروح وعيي.

١٤

استيقظت على صوت لطمة فرقعت في الجو. حسبت لوهلة وأنا مغشي عليّ أن سلوى عادت لتلطمني من جديد، فرفعت يديَّ بتوتر وسرعة لأحمي خديّ. كان ذهني مخدرًا، فتحت عينًا ملأتها غشاوة العماص فلم أر شيئـًا. حينذاك فتحت الثانية ورفعت ظهري عن السرير. من أين جاءت تلك اللطمة؟ ولم يرهقني السؤال كثيرًا، عرفت موطن تلك الضجة مجرد ما نظرت. ستة أبراص على شاشة الجدار المقابل، هم العرض. فكرت في مطالعتهم أنني لم أذهب للسينما منذ مدة حقـًّا. نقض واحد، فلمّا تطلعت وجدت سابعهم والذي أيقظني منتصبًا على الأرضية أسفل الجدار، يحملق فيَّ بغباء وحذر. الآخرون أيضًا يحدقون، هم في وضعهم منذ مدة على الأرجح. ولمَ لا وأنا عرضهم المميز. حقيقةٌ، الأمر لم يعد يطاق. ظللت على ثباتي، أعينهم ترصدني، عيناي ترصدهم. لم يتحركوا، تظاهرت أنني لن أتحرك. أعرف مكانه، إنه هنا بجوار الفراش. في مكان ما هنا. لابد أن أضع يدي عليه أول شيء. تلقيمًا وضربًا. لكن إن وضعت يدي على الفراغ سيدركون اللعبة. سيفزعون إلى جحورهم. لن أتحرك، أنا ثابت. أنا لا أدري حتى بوجودكم، أو تعلمون؟ نورمان بايتس والذبابة هذا موقفي الآن، يمثلني لكن ليس تمامـًا. لم أفقد صوابي بعد، تلك الكائنات المريعة تودني أن أفعل. أين الحذاء اللعين؟ إحداثيات

الموقع بالضبط. أهو بالجنوب أم بالشمال الغربي للفراش؟ لو كان في أقصى الغرب لبعد تمامًا عن متناول ساعدي. سأضطر إلى النزوح عن الفراش وجلبه، وربما سآخذ وقتًا حتى أعثر عليه. وقت أكثر من اللازم، يكونون قد تفرقوا في حينه وترمد غيظي في مهب الريح. إنه هناك، أشعر به. حدسي يخبرني، حدسي يحدد الأولوية لتلك.. تلك الجهة. حفزت يدي ببطء، ثم بانقضاضة أسرع نحو الجهة المعنية. حطت يدي على سطح الحذاء، عيناي مازالت معهم. رفعته صوبهم، وقصفت بشدة ووعي قلب موقعهم. ثم...

سقط اثنان، هرب أربعة وقد فقد أحدهم ذيله. والسافل على الأرض لم أكن لألحقه أو يصيبه ضرر القصف بطبيعة موضعه. أقلها نجح الأمر جزئيًّا. برصين في اليد خير من خمسة على الحائط. كانا متهتكين، ولم تزل ثلاثة ذيول على الأرض ترقص رقصة كهربائية مغيظة. جلبت يد المكنسة ورفعتهم على المجراف، ثم تخلصت منهم في القمامة. فعل جعلني أشعر بالإنهاك. دخلت الحمام توطئة لبدء يومي المعتاد، لكني مع وقوفي بداخله أدركت أن بيّ إرهاق أكثر مما تصورت. استندت على الحوض أمام المرآة، تطلعت في وجهي وأثر الرضات على صدري العاري، كانت جفوني مرهقة هي الأخرى. شطفت وجهي بقليل من الماء. لم يطرق رأسي انتعاش. عيناي نصف مفتوحتين. جرجرت قدمي إلى المغطس، نزعت السروال الذي أرتديه وما تبقى على لحمي من ملبس ثم نزلت أسفل الدش. بقيت منعزلًا في قوقعة بعيدة. أسمع مطرات الماء لكنها لا تصلني. شيء متبلد بنفسي. ضربت خديّ باليمين واليسار، وقلت بنفسي

ربما لطمة أخرى من سلوى كانت لتقوم بالواجب وتفيقني. وفي قوقعة تبلدي تذكرت وجهها، سيماته الرائعة الحسنة. وجهها الشمعي الوامض بياضًا، عيناها السوداوان الواسعتان، وخصلاتها متوسطة الطول من نفس اللون. في ظلام قوقعتي فكرت بها، فكرت حقيقة بمدى حسنها، تناسيت بلاهتها. تذكرت شكل شفتيها، حوافها المرسومة بريشة فنان عظيم. شفتان خلقتا للتقبيل. رش الماء وجهي، فتحت عليه عينيّ إلى النور ثم أغلقت المحبس. أدركت وأنا أنزل أنني حصدت غير ما أبغي. أردت الانتعاش فلطمني الخمول. وعليه عرفت أنني لن أستطيع الخروج من البيت اليوم. لا للعمل ولا لغير. لملمت ملابسي الوسخة ووضعتها بسبت الغسيل، ثم خرجت إلى غرفتي. وضعت على جسدي ملابس تحتية نظيفة من الصوان، وحين اتجهت لأرقد على الفراش كان بيدي رواية لجورج إدي وخلف أذني صدرت أغنية هادئة اللحن من الكاسيت بصوت ريكي نيلسون. ارتخيت في فراشي، تمددت ساقاي حتى طقطق الكسل فيهما. واستندت بجذعي إلى مسند السرير، ومع مرور عينيّ على أولى السطور، بدأت ترتسم بهجة بنفسي حضرت ببسمة على ثغري.

يلوح في الهواء، يكشر عن نية ما. يريدني، يريد الفتك بي. مازال شيء بنفسي يتوهج بنفس الإحساس. الإحساس الذي لحقني في ليلة أمس، تائه في محيط أعمى، يراوغني شيء يبطن بداخله. توهج شعوري بالخطر من لا شيء؟ من حيوان ضال؟ ما شعرته بالأمس ليس هكذا أبدًا. الخوف قبض لحمي إلى أن توجعت حقيقة قبلما يحدث شيء، قبلما يدركني شيء. وإنني إذ أنظر إلى الكتاب في يدي

والمفترض أنه فكاهي، تعْلق عيناي في كلماته السوداء فقط. تغوص بين حواف الحروف، في بحر الظلام. وفي البحر الأسود بين الشطين الأبيضين يُحبس عقلي، أُحبس أنا. ثم أرى ما يترصدني. وليست الرؤية بالعين بل بنبض الخوف. **لا تفعل هذا مجددًا!** إنني بالحق أنجرف، ما جدوى التحذير المشدد هذا إذن؟ إنني بالحق أنجرف إلى بعيد وبعيد. هناك شيئان بنفسي، شيء يريبني وشيء يستهين. ولا أستطيع حقيقة إدراك أيهما أتبع. لهما نفس القدرة، لكل منهما داع يستحق التفكير. لست شخصًا هيستيريًّا أبالغ في تقدير الأمور. لكنني لا أرضى بتحجيم كل الأمور. ما صابني بالأمس لم يكن إلا نتاج خوف مروع، من شيء لا بد أن له حضور ما. تلك السقطة على درجات السلم كادت لتقتلني. ولا أرضى القبول أن ما ضرب نفسي بالذعر ليس إلا نتاج خيال، أو وهم زائف. أو ربما.. ربما هي حالة نكران ما أنا بها الآن؟ فلت الأمر من بين يديّ وتضخم، فتصرفت على أساسه. الخوف الغريزي بالنفس البشرية من الظلام، خوفي أطلى على ما شهدته برداء آخر. لعبة عقلية مراوغة. وكان رد فعلي عليها شديد السذاجة. رد فعل كاد ليودي بي. حيوان ضال -ربما مسعور- يبقى أمر لا يسرني تصديقه لكن به منطق ما. لم يخرج الأمر عن نطاق الواقع، واقع ما قد يحدث أو لا يحدث. هززت رأسي حتى أفيق من شرودي، سمعت صوت معدتي تزقزق. كانت الساعة الآن التاسعة صباحًا، وكنت أشعر بالجوع يتيقظ في معدتي. تحركت من السرير بكسل، وخرجت إلى الرواق أمام الشقة. عند بداية السلالم النازلة وقفت أنادي توكل، حتى استجاب. ثم سمعت أقدامه تقرع

السلم في صعود. حين وصلني وقف أمامي في انتظار ما سأقول. طلبت منه أن يحضر لي بضع سندوتشات لأفطر بهم. طالعني بنظرة صامتة ثم تناول مني المال ونزل على عجل. راقبته لثوان قبل أن ينجلي من أمامي، ثم أخرجت سيجارة قدحتها على طرف فمي، ونفثت خط داخن تصاعد لأعلى حيث كنت أنظر. فكرت في الصعود لأعلى، حيث الطابق السابع لأرى في وضح النهار ما خفي عني بالليل. جولة قصيرة أريح بها فضولي. هممت أن أصعد درجات الطابق الرابع لولا أن رأيت أقدامًا نازلة منه، ولحظتين حتى تبدى من ينزل السلم. رجل بدين شعره يزول ويرتدي بدلة لونها الأزرق مطموس. موظف حكومي، هذا ما يبدو عليه. نظر نحوي بقرف لحظة طالعني، ثم غمغم بغير أن يلقي السلام حتى: "جيران آخر زمن!"

لأنتبه أنني خرجت بالشورت والفانلة فقط على لحمي. آه، معه حق موظف الأرشيف هذا. عدت إلى داخل شقتي في شبه هرولة وأغلقت الباب من خلفي. أكملت سيجارتي بالداخل بينما أتابع قراءة بقية الكتاب الذي تركته. أبهجت الألحان فصوصي الدماغية، كان تفكيري مع المطالعة سلسًا. بعدما أضفت سيجارتين أخرتين خف ما ضغط عقلي والذي لا مشيئة لي لتسميته صداع. زخم فكري هي التسمية المناسبة. نفثتها في الهواء. دقائق من الرضا الفعلي، وكبح جماح النفس. ثم سمعت طرقات على الباب. وضعت قميصًا على كتفيّ وارتديت سروال جينز، وخرجت. كان توكل قد أحضر لي ما طلبت. سندوتشات فول وطعمية ولم ينس التوصية بالمخلل. ابتسمت للرجل وشكرت له تعبه ثم أغلقت الباب بوجهه

وولجت للداخل. تربعت قعودًا على الفراش، وعاودت القراءة بينما أتسلى بما ينضغط تحت ضروسي. ومع مضغي لشطيرة الطعمية انبعثت لعقلي إشارة منعشة. حل الغذاء جوفي وسلم معه التفكير بإيجابية. بعد قليل وجدتني لم أستطع أن أكمل أكثر من ثلاثة منهم وقد شبعت. حينذاك وضعت البقية في الفريجيدير لما بعد، وأعددت لنفسي كوب شاي. ومع معاودتي به غرفتي، جددت الكتاب في يدي بآخر وقد فرغت من السابق. يبقى هذا هو حلي السحري لملأ فراغ يومي. وحين أنغمس في شيء أفقد حاسة الوقت، لكنني أميز مروره. مر عليّ الضحى كاملاً في ذلك. ولم يكن قد مر بالوقت الكثير منذ أذن الظهر، حين نزعني من حالة ركودي هذه صوت رنين جرس الباب. أنزلت كتاب لـ ف. سكوت فيتزجيرالد في لحظة ما من أمام عينيّ وإن قررت التجاهل والاستمرار في المطالعة، لكن لم يهمد الرنين. نظرت في الفراغ ببصر تائه إلى حين أن نهض جسدي. قمت من مكاني بلا رغبة مني، ترنحت في سيري نتاج خدر سكن أعضائي. عند باب الشقة توقفت للحظة قهرية، حتى تنتهي نوبة تثاؤب مباغتة. حين انتهيت انزلقت يدي إلى الباب وفتحته. ولمّا تجلى من يقف خلفه انكمش فمي وشدت جفوني للجذور.

١٥

هذا موطن لا يصله شمس. وطن بمعزل عن الحرية، له إضاءة شبيهة، إضاءة لها طعم العتمة. وإنني إذ أفتح الباب أشعر بتيار لا مصدر له يعصف بي للوراء. تتذبذب إنارة الرواق المضيئة تحت سقف النهار. الرواق خندق لا يصله شمس، لذا تكون إضاءته على حال دائم مشتعلة، لكنني ليس لي خبرة أو تاريخ مع كهرباء العمارة. دلالة تعرفني إن كانت ضعيفة بشكل دائم أو هو مجرد ظرف طارئ. من فوق رأس الواقف شعرت برقصة الإضاءة. رعشة شوهت وجهها، وجعلتني أنزعج من عينيها وأفزع. عين مضغوطة للخارج، بحدقة متسعة فضولية سوداء. رأيت بسمة رفيعة كالشق في وجهها، وكانت تلف رأسها بمنديل حريري مزركش. ليس لتعفف، هذا ما أخبرني حدسي، بل إنما لإخفاء شيء ما عن الأعين. هذه المرة شعرت أن لها حضور أشد وطأة، ثقيل بخلاف سابق مرة وقفت أمامها. تبقى لها إثارة حاضرة في سيمات وجهها، سيمات محببة وصارمة. وكانت الست نوال الكيلانية تقف أمامي في فستان لونه مزيج من البني والأبيض، طويل وواسع يستر العنق والكتفين إلا الذراعين. بيضاوان لدنان، تضمهما إلى بعضهما بمربط الكفين في حرج ظاهر. إنها من تلك النساء اللواتي مع ذبول شبابهن ينضح فيهن للسطح جاذبية تخلقت من مادة النضج، شيء مشع لا يرضيها بألا يلحظ

بل تشتهي إظهاره في تبرج مركز وليس مبالغًا. وبرغم تجملها هذا الذي يبدو أنها لم تضن عليه بالجهد والمال، إلا أنني ما شعرت في كل ذلك إلا بالتصنع. طمس للطبيعة، إخفاء لحقيقة ما. حقيقة زوال العمر؟ تساءلت والسيدة تنظر إليَّ بعينين متبسمتين وتقول: "مساء الخير يا أستاذ كمال!"

ردت التحية بلسان معوج متلعثم. نظرت لي ثم لداخل الشقة، ففهمت الإشارة لأقول بربكة: "تفضلي بالدخول!"

مضت بخطى واثقة متثاقلة للداخل وكنت خلفها حين سمعتها تقول: "ألف سلامة عليك يا أستاذ كمال" التفتت إليَّ تقول: "عرفت من توكل أنك لحقك بالأمس حادث أليم"

- "بسيطة" أشرت لها أن تجلس: "ليس الأمر سيئًا للدرجة، لكنني أشكر لك زيارتك"

ومض الروج بلون التوت على شفتيها في بسمة وهي تقول: "لا، أبدًا. زيارتك واجبة، كل سكان العمارة هنا أهلي وأخشى عليهم من كل سوء"

جاملتها ببسمة، وقلت: "تشربي حاجة؟"

ردت بهدوء: "لا، ليس لذلك داع. أنا ماشية على طول"

جلست في كرسي بمواجهتها بغير أن أنطق، لأسمعها تردف: "كنت خارجة للسوق لأتبضع لوازم البيت لأن بصراحة نقاوة توكل لا تعجبني، فبحب أخرج بنفسي وأتفرس في الحاجات على طبيعتها.

كما تعلم، عين المرأة تختلف عن عين الرجل في مثل هذه الأمور، لكنني ما كدت أخرج من بوابة العمارة حين تفاجأت بتوكل يندفع إليّ ليطلعني على ما جرى. قلت بنفسي أنها تصير عيبة في حقي إن لم أمض إليك في الحال لأطمئن على سلامتك.. أنت عزيز ههنا يا أستاذ كمال لو لا تعرف"

- "الله يعزك يا ست نوال، أنتِ فعلاً أصيلة وصاحبة واجب".

تورد خداها لتنظر في الأرض بما يشبه الحياء، ثم نطقت فيما بعد لتقول: "لكن.. لماذا تراك صعدت لتلك الأدوار؟"

توقفت نظراتي عليها لبضع ثوان، لأقول: "حظي العاثر"

رفعت عينيها إليّ بجدية وهي قائلة بنبرة يخمل فيها الود: "أقصد، ما كان الداعي؟"

- "مجرد.. جولة، جولة مسائية لقتل الملل".

- "ملل؟" حطت عليّ نظرات متفحصة منها، علها حسبتني أستهين بسؤالها أو ما شابه. لم أعرف أنها قد تكون مفرطة الحساسية هكذا. قالت بوجه جديد ونبرة باردة: "ماذا كنت تفعل بالأعلى يا أستاذ كمال؟"

هززت كتفيّ. ما الأمر حقـًا؟

- "أخبرتك يا ست نوال.. مجرد تمشية انتهت على غير ما يرام!"

لا وهم في ذلك، عيناها حقيقة تتفحصاني، تخترقاني بحثًا عن أي عرض للكذب في كلامي. وفي خضم ذلك سمعت صوتًا مستجدًا على هدوء المكان. طنين خلف أذني. التفت فرأيت ذبابة محلقة في الجو حولنا، فكرت أنها لربما جاءت من نافذة غرفة النوم التي أنسى غلقها باستمرار. الحق -أفكر في هذا الآن- أن هذه هي أول ذبابة ألحظ دخولها الشقة منذ دخلتها أنا أول مرة. هذا أمر غير معتاد، ويعتريني شعور بالغرابة حيث أراه شاذًّا أيضًا على نظري. لكن على كل، ليس هو الأمر الذي سأشغل به بالي.. صحيح؟ لمَ إذن يبدو الانزعاج شديدًا على هذه السيدة؟ عيناها تتابعانها بوجه شعرته يتكور ورأيت فيه حمرة محتقنة. إنه شيء أخذ أكثر مما يستحق، لذا قلت: "ست نوال، أنتِ بخير؟"

سقطت عيناها عليَّ وكانتا فيهما نظرة منفعلة كأنما ضبطتها متلبسة بفعل فاضح. رأيت في وجهها بسمة متقرفة، تبرز عنها تجاعيد فكيها المشدودة. جالت عيناها في جوانب الشقة وهي تقول: "تعرف يا أستاذ كمال، هذا المبنى له تاريخ حسن في أسرتنا. كل أهلي عاشوا هنا، توارثته أمي عن جدتي، جدتي التي كانت تقطن بشقة الدور الأخير، التاسع. لم تكن تنزل للشارع إلا نادرًا، منذ تزوجت من جدي، الباشا الكبير وليد الحسب والنسب الذي كان يتأصل من فرع قرابة ليست ببعيدة من الأميرة فوزية، أحب جدتي وترفعت عيناه عن سواها، منذ تزوجها رضى بها أثيرة له وحده. لم يرتضِ نزولها الشارع حتى، لم يرتض إطلالة وجهها إلا له. شيع في العائلة أنها خبلت لبه، سحرته. أصارحك قولاً إنها لم تكن بذلك

المستوى، بل لو لا تؤاخذني الحق أنها كانت أحط من ذلك بكثير. كانت غجرية التقاها صدفة بمولد سيدي زينهم وقتما كان يزور صديق له بقبلي. أغرمته، ولأجلها نهض بثورة ضد عائلته ونبذ ما قد قرر له. جمعتهما دار بالمنصورية، عاشا بها لفترة إلى حين ينتهي من المفاجأة التي كان سيهديها لها. هذا المبنى، عاشت به جدتي شهرًا وحيدًا قبلما يباغتهما الأجل بفراق لم يكن بالحساب. كان بجسد جدتي علة لم يستوعبها، لذلك أخفاها عن الأعين، ثم كان يأتيها بالأطباء خفية وأقول إنها مخافة ألا يشمت به أفراد عائلته. صارحه الأطباء بأنه مرض غريب، ليس بيدهم علاج له. كان يراها كل ليلة تعانيه، كان يرى ذاك الدخيل بجسدها يقتلها ويداه مكبلتين عن مساعدتها. تزداد أمام عينيه شحوب، تزرق في حين وتسقط حرارتها في الأرض. تنحف، وتذبل شفتيها التي عشق البسمة عليهما. يمتصها شيء أعلى منه قدرة، يبدأ بانتزاعها من بين أحضانه. كانت جدتي قد حملت بأمي في دار المنصورية، وولدتها في يوم مشمس من أغسطس الحار. يوم الميلاد الذي تلاه يوم الجنازة. ماتت جدتي، وجن جنون جدي ليلة وقعت عيناه على عينيها الجاحظتين. مرض نادر.. مرض لم يحسبه أخذها منه، ثم لحظة سمع صراخ أمي عرف ما هو. حقد عليها، ثم هجرها بعينيه. وتحت رعايته أخفاها عن الأعين، ليس بدافع الحب كما كان مع أمها، معها كان بدافع آخر مختلف".

راحت عيناها تراقبان الذبابة التي حطت على مسند الأريكة إلى جوارها تفرك جناحيها، وابتسمت. ثم عادت إليَّ بالنظر والكلام: "علك تتساءل لمَ أستحضر على مسامعك حكاية غريبة من زمن

مضى؟ أصارحك يا أستاذ كمال أنك أنت من أيقظت في بالي شيء كنت قد تناسيته ونسيته. جاءني بالفعل عروض لتأجير تلك الأدوار لتحويلها لشيء آخر، وسعدت بالموافقة.. لكن أو تعلم؟ ما زادت سعادتي الحقة إلا حينما رأيت جدرانها تتشوه. الشقة، الدور التاسع كاملاً وتبعات أخرى بالأدوار الأسفل لم يكن لها داع حقًّا. لكنني على كل كنت قد أدركت فرحتي الحقيقية. فسخت العقد مع المستأجر، وارتضيت بها على حالها هكذا، مهدمة مخلخلة ممحية عنها الذكريات التي سكنتها. ذكريات ما مرت به أمي، وشهدته بعيني!"

طالعت خلقتها مشدوهـًا، لم يصل فمي كلام ولم يجيَ بعقلي تفكير. هششت الذبابة حين حطت على وجهي، ورأيت نظرات السيدة تتابعنها في حوامها. في الأخير كسرت الصمت بأن قالت لي بصوت بح من كثرة ما قالت: "ماء، أود كوب ماء من فضلك!"

لثوانٍ لم أستوعب ما قالته، ثم باغتني التنبيه فنهضت من كرسيي، وتحركت إلى المطبخ. ملأت لها كوبًا من الحنفية وعاودت به إليها. وهناك بينما أقدمه لها لاحظت أن وجهها عاد لطبيعته، لم أغب للحظات وقد خفت العرَض الذي رأيته على وجهها تمامـًا. كانت هادئة متحفظة، ونظراتها هانئة راضية. تناولت من يدي الكوب برزانة، وجرعت نصفه ثم أعادته إليَّ شاكرة ونهضت.

- "معذرة، يا أستاذ كمال لكنني تأخرت بالفعل عن الذهاب للسوق. أما وقت اطمأننت على حالك فلا بد يمنع من ذهابي الآن"

هززت رأسي بغير نطق، ثم تابعت تحركها للخارج صامتًا. وهناك عند باب الشقة توقفت قبالتها وهي في الرواق حين التفت إليَّ وقد مدت يدها لتحط على صدري بنفس الموضع الذي سبق ووضعت درية يدها عليه، وقربت بوجهها إليَّ إذ لم يكن فارق يذكر بين شفتاها وشفتيّ حين قالت: " تبدو شابًّا لطيفًا يا أستاذ كمال، أحب ألا تكرر ما فعلت مجددًا" وفي عينيها رأيت شيئًا يخرج عن طوع الوصف نفخ برد في روحي وهي تقول بوداعة: "أخشى عليك مما قد يصيبك ثانية إن فعلت".

حين أغلقت الباب، جالت نظراتي في المكان. لا أسمع طنين، لم أر الذبابة تحوم في المكان.

* * *

يلتصق على جلدي. لا، بل تحت جلدي. يزحف في تعرج ودوران تحت جلد ذراعيّ، شعرت به. طبقة من جمود، شيء يخمل إحساسي، ويثبط تدفق الدماء في عروقي. أنزلت الكتاب عن عينيّ، الكتاب الذي ظلت صفحاته بيضاء أمام وجهي. لم أقرأ ما به، بل شملني شعور رهيب عزلني عنه. زخم فكري، أودى بي. شعرتُني أغرق في محيط أسود. دارت بي الغرفة، أكانت السندوتشات فاسدة؟ تجمد عقلي، رأيت البخر الدافئ يتصاعد من فمي. أشعر بالبرد، برودة لا مصدر لها احتضنتني. وهذه.. هذه التموجات في السقف والجدران، حلقات تتكون، حلقات غارقة. حلقات بدت كأنما تمتصني، تمتصني إليها. سمعت النَّقيض. من أين جاء الصوت؟ من.. أين! من وراء

الحلقات، التي ليست على الجدران بل الحلقات المرتسمة على جلدي. رأيت الجلد على ساعدي الأيسر ينتفخ على هيئة الزاحف تحتها. شعرته يتحرك في مجرى دمائي، انتفاخ فظيع يرتسم بحوافه. يميز هيئته، الجلد يتمدد حوله. لا ألم شعرته، بل قرف ودوار. السقف يتموج، الغرفة بأسرها تغرق في ماء زيتي أسود. يا ساكن الشقة بالأعلى! قذارتك تتسرب إليَّ يا حقير! حطتُ قدميّ في البركة السوداء. نهضت واقفـًا، أريد الخروج. أود الهروب من هذا الكابوس. حقـًا، أمن تفسير لهذا غير أنني نائم؟ أعاني منامًا ثقيلاً. ثم فتحت باب الغرفة، كان خارجها ساكنـًا. إضاءة الشقة ثابتة، الطرقة بين الغرف هادئة. الجو ساكن ثابت هادئ ولطيف، كأنني حبيس إحدى لوحات رامبرانت. شعرت بعصارة حارقة ترتفع من معدتي. ركضت إلى الحمام، وحين دخلته دفنت رأسي في المرحاض. أفرغت ما بجوفي. ثم حين رفعت رأسي شعرت بالارتياح، راحت المعاناة التي شعرتها. قرصت جلدي، وأحسست بالألم. راح الجمود، لم أر الزاحف. هذا ليس منامًا أو كابوسًا، هذه أعراض هلوسة. هذه أع... أسكب ما بجوفي مرة أخرى في قاع المرحاض. وأنهض بترنح إلى الصنبور. شطفت وجهي بقطرات باردة، ثم استندت على الحوض في محاولة لتنظيم أنفاسي. حين نظرت في المرآة، رأيت الحلقات مرة أخرى. صار سطح المرآة فجأة مائيـًا، وفيه رأيت الانعكاس. ليس لوجهي، لم أكن متواجدًا بها. بل هما، المغطس ينعكس في المرآة، والجدة تحمم الصبي حفيدها. جدتي! رأيت بزاوية السقف رأس يراقب بعين لا تومض ولا تغلقها جفون. رأيت الزاحف الساكن هناك، يرمق

المشهد بتطلع شغوف. وكان ذيل البرص المخطط في لونين هما الأبيض والبني لا يكف عن الرقص البطيء في الهواء. أشعر بالبرد، برد فظيع بدأ يكتسحني. احتضنت نفسي بذراعيّ، وحملقت في تجهم نحوهما. كانا في مكانهما بمعزل عني، كانت الزاوية التي تجمعهما دافئة. وراودني وأنا أطالعهما أنهما ذكرى طيبة. ومضة ذهنية ستختفي حينما أغمض عينيَّ، حين أفعل هكذا سأ... سأشعر باللوف المصبنة تدلك منكبي العاري! شهقت وقت أحسست بالماء يغمرني، جسدي عارٍ بالمغطس. تلك اليد المعروقة تمتد من جانبي لتمسح على رأسي. يزحف الصابون السائل على رأسي، يبدأ بغمر وجهي، وأنني.. أنني أخشى النظر. الماء شديد البرودة، أشعر بتنميل يجتاح نصفي الغارق. لكنها جدتي، وهذه ذكرى لي، ذكرى أنا فيها الآن بهيئة غير الهيئة. إنني لست في عهد الصبا، إنني بجسدي البالغ. اضطرب تفكيري وتشوش، ثم نظرت إلى جانبي. ولم تكن هي جدتي! بل جثمان عفن مضمحل في لونه الأزرق القاتم، عيناه كانتا موجودتين، منقلبتين للوراء لا يظهر فيهما غير البياض، ومن الفم تتدلى يرقة ضخمة لزجة في غشاء شمعي. ذعرت وقت وقعت عينيَّ على هذا. هاج الماء لحظة انتفضت، وأغرق وجهي. فتحت عينيَّ من وراء غشاوة قطرات الماء الحاضرة فيهما، رأيت انعكاسي في المرآة. أقف مستند براحتي ذراعين مشدودين على الحوض، وكان خلف أذني أذان العصر يصدح من أكثر من مئذنة.

وبقت عيناي في المرآة تطل إليَّ بنظرة مذعورة. خرجت من الحمام، ورجعت إلى غرفتي مرة أخرى، ووقت فتحت بابها ودخلت

رأيت أن حالها هو حالها، ساكنة عادية لم يداخلها شيء. رفعت الكتاب الذي سقط مني في خضم تلك النوبة عن الأرض ووضعته على رف الصوان. مدت بقدميَّ إلى الشرفة، بها رفعت رأسي وتنشقت هواءً خارجيًّا يطرد ما اختنقت به بالداخل. استندت بمرفقي على السور وحين أنزلت رأسي بعفوية أطالع الشارع بالأسفل تفاجأت عيني بها عائدة تحمل أكياس بضاعتها، كانت بالمداخل تعاني ثقلها حين سارع إليها توكل يحمل عنها. أخذ منها حاجياتها وتقدمها إلى شقتها، أما هي فقد ثبتت، تصلبت في موضعها، ورفعت الست نوال الكيلانية رأسها للأعلى. لأنصعق راجعًا للوراء. هذا الشعور.. هذا الشعور! مجددًا، مجددًا؟ لم أعرف نفسي عليل بشيء ما، لكنني منذ حللت بهذا المسكن وهناك شيء بنفسي لم يعد كما كان. الإعياء الذي ضرب جسدي بعد مغادرتها بقليل حتى تفاقم إلى تلك النوبة المباغتة والتي يعلم الله ما هي، أيعقل أن تكون بسبب طعام فاسد؟ اضطراب هيج جهازي العصبي كله في هجمة واحدة، اضطراب شعرته منذ قريب. فقط منذ الأمس، شعرت به مرتين إلى الآن! سبق واضطربت معدتي لطعام غير ملائم أو فاسد أكلته بغير دراية. لكن أعراض ذلك لم تكن شبيهة لهذا الشعور. شعور حسبته خف منذ غادرت القهوة بشارع تحت الربع، لكن يبدو لي الآن أن ذاك كان هدوء ما قبل العاصفة، ما قبل التفاقم. يبقى سبب الطعام الفاسد وارد ومنطقي. لكن بنفسي بقى شيء رافض. نظرت للأسفل، فلم أر حفيدة تزاوج الطبقة الإقطاعية وطبقة الغوغاء موجودة بالمدخل. شيء يدعو للتأمل إنها على مثيل غيرها ذوي القرابة من أولئك

الأوباش الذين سبق وامتطوا هذه البلاد، لم تكن كذلك ممن هم على شاكلتها، لم يكن في نبرة صوتها فخر وترفع لدى ذكر قصتها، بل ما خرج في نبرتها هو الحنق والعدائية. شيء عجيب، ومثير للسخرية.

تلك اللحظة أحببت أن أطمس تفكيري للحظات، وآخذ لنفسي هدنة بها تخف فيها تلك التخمة التي أثقلت نافوخي. عدت بالكاسيت من الغرفة، ورفعت صوت نيلسون حتى ليصل إلى تلك الأجزاء البعيدة في مخي، تلك التي لا يصلها فهم أو كلمات. وصلها اللحن، وهدأ من هياجها الإيقاع.

لدقائق ودقائق شعرت بالسلام يعم نفسي، الهدوء يتوغل والرهبة التي ملأت بدني تتقهقر. الميدان يخلو منها بالتدريج، والسماء بالأعلى بدت تصير في لون غارب. وبدأت الشمس تنزف طمثها اليومي في نية رحيل، بينما كان ريكي نيلسون يغني **سأتبعك**. تبرد ذهني الكلمات، تجعلني في حالة تناغم نفسي أحبها. لكن.. لكن ما هذا؟ أشعر بصوت دخيل، لا بل أسمعه. إيقاع آخر مختلف يشذ عن إيقاعي الحاضر. نظرت إلى الشرفة المجاورة، وارتسمت على شفتي بسمة. هل هذا عبد الحليم؟ لحظة. هذا اللحن؟ حلو وكداب! كان عبد الحليم حافظ يشدو بهذه الأغنية، ليتشوش عليَّ ما أسمع. رفعت صوت الكاسيت قليلاً وانتظرت، ثم بعد لحظة فقط صدح عبد الحليم أعلى من داخل الغرفة المجاورة. رفعت الكاسيت عندي درجة أعلى، فارتفعت كلمات عبد الحليم المعاتبة أعلى وأعلى **حلو وكداب.. ليه.. ليه صدقتك**. حينئذ رفعت الأغنية عندي لأقصى درجة،

درجة لن تنافس وأعرف ما أقول. وفيما بعد بدت الأغنية عندها كتشويش ضئيل في زاوية الراديو لأغنيتي الصادحة المصدعة للآذان. ما جعلها في غرفتها تستفز لذلك، وتخرج عن طورها إلى الشرفة لتصيح بي سلوى: "كفى، ما هذا! ما عمرك لتفعل كل هذا؟!"

نظرت في الفراغ متأملاً الحسبة، ثم قلت ببرود لكن بصوت أعلى لتسمع: "لنرى، ولدت في يونيو سنة ١٩٤٩م، أممم يبقى عمري سيتم الثلاثة والثلاثين بالشهر القادم!"

- "ثلاثة وثلاثين! غريبة، لا يبدو عليك مثل هذا الكبر ولا يظهر في تصرفاتك نضجه!"

أعجبني ما قالت فلم أمسك نفسي عن الابتسام. ويبدو أنها لمّا رأت أن رميتها أصابت ارتبكت على غير المتوقع. ولم يكن اغترارها إلا ربكة ظهرت في نبرتها وهي تردف: "على العموم، ليس هذا ما قصدت.. أخفض الموسيقى من فضلك، وكف عن هذه.. هذه التصرفات الصبيانية!"

نظرت لها مستغربًا: "أنتِ من بدأت، فلا يعيبني إلا ما يعيبك!"

حدقت فيَّ بريبة: "صياغتك للجملة هذه، أشعر أني سمعتها في مكان ما من قبل.. لا بل قرأتها أو شاهدتها، أنت تقتبس!"

نظرت في سقف السماء: "لا أعرف ما تعنين!"

- "ليست شخصيتك، أنت تتحدث على طريقة شخصية ما.. نعم، توحدت معها أو أحببت أن تصوغ أقوالك على شاكلة أقوالها!"

- "سلوى، أنتِ تماطلين!"

كنت أنظر لها الآن، وكانت تطالعني بتشكك قابضة يديها إلى جانبيها.

- "والله العظيم بك شيء غير منسجم، تلك النظرة وضمك لشفتك السفلى بتقوس للأعلى حينما تتكلم.. شيء مميز.. ولطيف لا أنكر، لكن أشعر بأنه يتشابه مع شخص آخر.."

فردت ذراعيَّ في الهواء وقد بلغ بي العجب أقصاه: "ألا ينتابك شك بأن ذلك الشخص هو نفسه أنا؟! وبعدين هل هذه طريقتك حقـًّا؟ هذه الطريقة التي تودي أن تعتذري لي بها عمّا فعلتِ؟"

- "أذكر أن أحدهم أخبرني أنني مفرطة بالاعتذار! ثم من يعتذر لمن؟ أنا؟ أنا التي كانت تجلس مع واحدة من إياهم بغرفة نومها في ساعة متأخرة من الليل؟!"

قلت بغيظ: "حقـًّا! ألا تفهمين أنني ههنا الضحية في ذاك الموقف الغبي؟"

قالت بغيظ مماثل على إيقاع أغنيتين لا تنسجمان: "ضحية؟ مثلك مثل كل الرجال ذوي ذيول عوجة لا تضبط غير بالبتر!"

زفرت الضيق في نفس ثقيل، ثم أطفأت موسيقى الكاسيت لأنني سئمت ألا أسمع ما أقول. وقلت بعد ذاك بهدوء: "صدقي أو لا تصدقي أنا كما قلت لك، أنا ضحية سوء تفاهم سخيف بينها وبين جارك الأستاذ زفت حمودة.. وحقيقة أنا أستغرب نفسي الآن حيث

أقف لأبرر حقيقة موقفي لك، وهذا شيء أبعد ما يكون عن طباعي.. أنا لا أهتم أن أبرر لأحد يا سلوى، لكنك لا أدري.. صرت بشكل ما عزيزة إليَّ وهذا غريب أكثر لأنني لم أعرفك إلا منذ قريب"

صدمني ما قلت أكثر مما جعلها تنبض حياءً وحرجًا. توردت وجنتاها ومضغت شفتها السفلى وقد توترت في وقفتها. ما جعلني أبتسم لمشهدها هذا برغمي. وأقول مستغل موقفي هذا: "هذا لا ينفي أنني أخطأت أيضًا، إذن ما رأيك أن أعتذر لك بطريقة ملائمة أكثر؟"

اتسعت حدقتاها في مطالعتي تنتظر ما سأقول. كنت أعرف أن هذه الأيام يعرض فيلم جديد من إخراج جون كاربنتر، لذا عرضت عليها لو ترغب معي بحضور حفلة عرضه لهذه الليلة. حينذاك بدا عليها شيء من الربكة توقعت فيها أن ترفض، إلا أنها طالعتني وعلى ثغرها بسمة راضية حلوة ثم هزت رأسها موافقة.

١٦

كانت الساعة السابعة والنصف حين خرجت من شقتي، وتوما فعلت وجدت بابًا آخرًا ينفتح لتطل سلوى في وجهي. زاهية رائعة، صعقني مدى حسنها. ترتدي على جيبة بيضاء طويلة واسعة بلوزة ستان واسعة حول العنق ياقتها سماوية من الحرير، تتصدر عليها رسومات لأهلة عديدة. وكانت خصلاتها ملمومة من الخلف تاركة غرة شعرها ينسدل إلى وجنتيها في شكل تصفيفة الجرسون الستينية. وبرغم بساطة مظهرها كان كل شيء فيها قد ارتقى بكل تأكيد ليذهلني. شيء أشعرني وأنا أمام كل تلك البراءة الملائكية كأنني صعلوك في ثوب من الخرق. وأمام نظراتي هذه إليها ارتبكت واحمرت وانفعلت في تنفسها، ثم ضمت ساعديها إلى بعضهما رابطة على حقيبة يدها اللبنية. هذا كان للحظتين فقط، قبلما تنظر نحوي من جديد لتثبت في تحديقة مطولة وتعابير مخطوفة. لتقول مشيرة إلى اللاصق الطبي فوق حاجبي: "عرفت الآن ما كان غير المنسجم بك، لم أكد لألحظ.. ما الذي أصابك؟"

تو ما لاحظتي؟ أشك الآن أنها لو قابلتني فيما بعد مخلوع الرأس لما لاحظت إلا بعدها بيومين؛ على كل حمدًا لله لدي تميز أصيل إذن!

- "خبطة بسيطة، لا ضرر دائم"

تفحصتني بنظرة أخرى ثم زمت شفتيها وضيقت عينيها ولم تنطق. فابتسمت لها: "دعينا ألا نتأخر.. هيا؟" فتقدمتني بخطى متوترة، وسرت خلفها مشحونًا بالسعادة والحظ الطيب.

وقفت عيني هناك عند ظل الكيان الذي يحجب الشمس ويسمى الليل. وقليل تطلعت في السماء ثم إلى وجه فتاتي الصافي تحت ضي القمر لحظة ما خرجنا إلى الشارع، تحركت قدماي إلى جوار قدميها بخفة وكان بالجو نسيم طيب يتخلل خصلاتي وينزلق من بينها. كنت بالمدخل وكنت في طريقي لأبتعد عن العمارة الصفراء، لولا توقفي القهري والذي فاجأني أنا نفسي. لولا أن استدرت على أثر شعور يأتيني طعنًا من خلف ظهري. هو الحدس، وهي الغريزة القديمة للنفس البشرية. رفعت رأسي للأعلى، وفي واحدة من شرفات الطابق السابع حطت عيني على ما خيل إليَّ أن الرمقة الحادة وصلتني من هناك. هناك مصدر التهديد الذي تحفزت له غريزتي. لكن بالشرفة وكل الشرفات التي تنعكس عليها إضاءة الشارع لم أر أي شخص يقف بها. كيف إذن ساورني هذا الشعور؟ هو شيء توهمته إذن؟ وما أكثر ما أتوهمه هذه الأيام. لم يكن أحد يحدق بي، لم يكن أحد موجودًا هناك بالأساس.. وقعت عينيَّ عليه، تلك اللحظة بالذات رأيت الظل المنتفخ. الجسد المظلم عديم الملامح في الشرفة بالطابق السابع، لم يكن أي أحد بالشرفة يقف هذا صحيح، بل يزحف! يزحف على عرض جدار الشرفة أعلى مستوى سورها المقابل بثلاثة أقدام ونصف، قرب السقف يطل برأسه من هناك. الجسد مليء ضخم، يشبه أشكال الظل التي ترتسم عن انعكاس الضوء لكن مظهره

بكل تأكيد يشذ. إنه كيان حي، نصفه السفلي غارق في الظلام لكن تلوح منه حركة تنبض من العتمة وجزء كبير من النصف العلوي به وضوح شديد. لو يتسلط هناك قليل من نور، لو ينعكس كشاف سيارة لجزء من الثانية لرأيت وميزت ما أنظر إليه.

- "كمال؟"

تنبهت إلى سلوى، نظرت إليها لثانية واحدة وحين رفعت عينيّ لأشير إليها فتؤكد لي حقيقة ما أراه. لم أر أي شيء. بالطبع كان قد اختفى. وتبدل الظل على الحائط إلى رسمة هندسية حادة لجماد ما لا حياة فيه.

وكانت سلوى تراقبني باستفهام حين قلت لها في شرود: "منذ أقمت ووالدتك في هذه العمارة أحدث وساور أي منكما شعور مغاير.. قلق مستجد؟"

شعرت أنها قد بُترت أنفاسها. اختنقت واقفة وعلى وجهها نظرة ساهمة، إلا أنها لم يسعفها الوقت لتنطق. وكنت لأنتظرها لولا أن رأيت تاكسي يهلّ إلينا بالطريق فسارعت أشير له بالتوقف.

مرق التاكسي بنا بين الطرقات من شارع إلى شارع، وكان يمضي من شارع تحت الربع في بداية مشواره حين وقعت عينيّ من خلف الزجاج على القهوة، ليس عليها بالضبط بل على مجلس بعينه يتخذه اثنان على جانبي طاولة برانية. كان أحدهما عكاشة الذي لفت نظري، يجالس رجلاً في سن الشباب يصغرني ببضعة أعوام وقد كان

يرتدي قميصًا مشجرًا فاقعًا باللونين الأحمر والأصفر. وللثانية أو الثانيتين التي وقعت عينيَّ عليهما رأيت عكاشة وقد أخذ الرجل في حديث محموم، يقهقه ويستعرض ويراوغه بالكلام، والآخر صامت متجهم ينصت بحذر ولا يخفي تزمت تعابيره. عدت بعيني فيما بعد إلى الطريق أتابع إنارات المحال التجارية، أتابع زحام الخلق ما بين رائحين وغاديين لحوالي نصف ساعة قبلما يبرز في واجهتي بوستر ضخم لفيلم The Thing بطولة كيرت راسل وكيث ديفيد، معلنًا وصولي للمحطة المقصودة.

أي وغد يصحب فتاة بمثل هذه البراءة إلى مثل هكذا فيلم؟ خاطرني هذا التساؤل بينما كنت أقطع تذكرتيّ دخوله، ما جعلني أبتسم حين خرجت إليها لأجدها لم تزل تتفحص الغلاف لتستشف طبيعة الفيلم. حولت عينيها إليَّ حين رفعت التذكرتين أمامها، ثم مدت ذراعي إليها تتأبطه وسرنا وسط الداخلين ليستقبلنا عامل الصالة ويرشدنا إلى حيث مقعدين مناسبين بالمقدمة. جلست وهي إلى يساري، وكانت الإنارة مازالت مشتعلة حين همست قرب أذني: "شكله فيلم خفيف" فكتمت الضحكة ولم أنبس. ثم انطفأت الإضاءة، وغطى الظلام المكان قبلما يدير العارض الفيلم ويغرق جو المكان بفسفورية زرقاء.

حين يبدأ جون كاربنتر عزفه على الشاشة لا بد أن تنصت، بحذر وحب، هو عازف بارع. لا بد أن تتمعن سرد المشاهد، بحذر وحب، يبقى هو راويًا مخضرمًا. وحين ترى من عينيه ما يريدك أن تراه لابد

وأن تتشبث بمقعدك الجلدي كأي قط فزع. لابد أنني التزمت بكل تلك التدابير فلم يكن قد مر من الفيلم الكثير وكانت أصابعي تغوص في ذراعيّ مقعدي. تدبير احتياطي كي لا انتفض وقتما تأتي الخضة المنتظرة. وستأتي، الفكرة أن يبدو السرد في حالة ركود حتى تتجلى الصدمة. هنا تكمن الخدعة. وأعرف أنها لم تكن تعرف. لم تكن تعرف أن هذا سيطولها، المسكينة.

ثم أتت اللحظة. روعت سلوى، شهقت وأنبتر تنفسها وغاصت في مقعدها. لكن يدها العصبية طالت يدي بحركة مباغتة كدت أصرخ عليها ويجلجل صوتي بالصالة التي انقبض حضورها واستكانوا فجأة، لكن هذا لم يمنعني من أنين حارق فقد اشتعل الألم بأصبعي المضمد وقت ضغطته سلوى في يدها. اشتد النبض في موطن الظفر المخلوع. ما جعلني أحس أن هذه عاقبة فعلتي مع سلوى. سلوى التي ظلت مصعوقة في مشاهد تمزق اللحم وتفجر الدماء. صدمات متتالية لطمتني وإياها، وعزائي في ذلك رد فعلها العفوي، آنسني تمسكها بيدي رغم ألمي. وبيدي الأخرى تشبثت في مقعدي كأي قط مروع.

وقت انسدلت شارة النهاية توقفت وهي، وتحركنا في الممر إلى باب الخروج في حركة بطيئة خدرة. كانت مازالت قابضة على يدي كطفلة تخاف أن تشرد عن والدها، وظل التجهم يرسم تعابيرها. خرجنا من السينما إلى الشارع الصاخب متبعثر الأضواء. وهف على أنفي نسيم الليل المنعش. بقيت وهي صامتين نسير كدمى خشبية.

وأحسست أن يدي تزرق في يدها. عزفت الأبواق خلف آذاننا وسب سائق سائقًا، وما زلت وهي على حالنا. قادتنا الأقدام في تمشية طويلة بشارع المقطم. وعند واجهة ومبي من نفس الشارع توقفت قدمي، عرفت أنني أشعر بالخواء والضعف لأسباب واضحة. لم يدخل معدتي شيء إلا سندوتشات أحسبها فاسدة. استغربت سلوى التي وجدت نفسها بعد قليل تشد في حجر. راقبت وقفتي، فأشرت لها بأن ندخل. حين جلست إلى الطاولة طلبت شطيرة لحم بقري أما سلوى فهزت رأسها بالنفي واستكفت بمشروب غازي. وبعد لحظات وصلني ما طلبت. تلذذت بذوبان الأكل في فمي. تلك اللحظة عرفت أنني كنت جائعـًا بحق، بغير أن أدري. ما جعل سلوى تتابع سلسلة نظراتها المستغربة بينما ترشف بماصتها من المشروب قطرات معدودة. وقالت: "للتو خرجت من الكهف؟"

- "لم يدخل معدتي شيء يستحق منذ الصباح"

- "بل منذ عقد"

- "حياة العازب كما تعلمين ميزاتها قليلة"

- "لا أستغرب إذن"

- "لا تستغربين ماذا؟"

وقالت في نبرة هازئة: "ألا تنسد نفسك مما رأيت منذ دقائق معدودة، ولا يصدك عن شطرتيك!"

نظرت نحوها بفم ممتلئ شاعرًا بالذنب لثانية أو ثانيتين ثم هززت كتفيّ بعدئذ وتابعت نهش ما بيدي. ضحكت سلوى فخفت شحوبها، وابتسمت لدى رؤيتي هذا. وحين خرجنا من المطعم تأبطت ذراعي من جديد، واستأنفنا تمشيتنا لقليل من الوقت. وقالت سلوى بشرود ونحن بجوار شارع المترو: "سألتني إن كان ينتابني شعور مغاير منذ قطنت بالعمارة؟" نظرت سلوى في عينيّ: "طوال الوقت"

- "ما المعنى من هذا؟" قلت وبي ريبة

فقالت: "هو شعور لا أفهمه، يتأثر له بدني ويصيب نفسي بالإعياء"

- "مثل ماذا؟"

- "رعشة.. أو أقول صعقة ذعر مؤقتة تضرب بدني من حين لآخر، حين يتبادر إلى ذهني نذير ما.. نذير غريزي.. شيء لا أدري له وصف يخلق تلك الأعراض لينبهني أن هناك من يتابعني.. بالشقة، بالمطبخ، في سريري، وأنا بالحمام. وعليه كوابيس لا حصر لها غير واضحة تطبق عليَّ حين أنام ما يجعلن.. ما يجعلني أنتفض في أوقات متأخرة من الليل ولا أقدر على النوم بعد ذلك"

تفحصتني سلوى بعينيها خاشية أن تنعكس على وجهي تعابير ساخرة. وأردفت تقول: "أعلم أن ما أقول به قدر هائل من السخف، لكن ذلك الشعور يمرضني، حين أفكر أنه هناك بتلك العمارة أحد

يرغبني بشكل هوسي" وافتعلت ضحكة بينما تقول: "لا أعرف لمَ أخبرك هذا، لكن أتدري أنه حدث لمرتين أن تيقظت لأجدني في منتصف الدرجات إلى الدور السابع من العمارة.. أقف مذهولة وقتها أحدق في ظلامه الدامس. لا أعرف ما يجري أو ما جرى لكنني أبدًا لم تكن لي سابقة قبل ذاك مع المشي أثناء النوم." ثم نكست رأسها تحملق في الأرض: "علك تقول الآن أي مخبولة قادني حظي العاثر لأخرج معها؟"

هززت كتفيّ وابتسمت أقول: "الحق أنني لم أحتج لكل هذا لأتخذ القرار" حينئذ ضربت كتفي بقسوة.

أوصلنا التاكسي إلى شارع العمارة الصفراء، مشيت إلى جوارها بالمدخل حين تراءى لي توكل ينظر إلينا وعلى ثغره بسمة خبيثة وفي عينيه نظرة حاقدة، بينما يشغل دكته الآن جوار البوابة بعكس ما كان وقت خروجنا. حين تجاوزت البوابة نظرت بضجر إلى موقع المصعد الخرب، ثم صعدنا سلالم المقدمة العريضة إلى بهو السلالم الصاعدة في جانبها الأيسر. ولما وصلت رواق الطابق الثالث لمحت ظهريّ الصاعدين على درج الطابق الأعلى، أحدهما ظهره لقميص مزركش فاقع والآخر مترجرج المشية محدودب الفقرات. يبدو إذن أنه ستكون لعكاشة سمسرة جديدة؟ وقفت سلوى قبالتي عند باب شقتي حين استوقفتها أقول بنبرة قصدتها مازحة لكنها خرجت مائلة للجدية وأنا أسألها: "حين رأيتني في موقفي المخزي ذاك ليلة أمس،

رأيتك وقد نويت الخروج بلا نية أخرى ثم كان أن تراجعتِ عن ذلك وعدت وصفعتني.. ماذا غير رأيك يا ترى؟"

توردت وجنتاها وغطت بظهر يدها الأسارير المنفرجة لضحكة شفتيها. ثم قالت بلهجة مرح من وراء ذلك: "لا أدري. شعرت بأنني يجب أن أتخذ رد فعل ما، فاندفعت إلى أول ما طرأ على خاطري!"

وكانت بسمتي أنا الآخر منفرجة لكن نبرتي صادقة جادة حين قلت: "لا أدري كيف، لكنني بشكل ما أو تحت تصور غير واضح برأسي.. أصدقك!" حاولت أن أوضح "لا أعني أمر الصفعة.. بل أقصد ما تشعرين به هنـ." تغيرت النظرة في عينيها، لم تتركني لأكمل بل بخفة خاطفة وجدتها قربتني وضمت نفسها إلى صدري. كان بالجو شيء مختلف، حميمي دافئ. كان الكون للحظات لطيف هادئ. كون رائع التكوين جميل صاف. رفعت رأسها إليّ، ورأيت مدى قرب شفتيها إليّ. تواجدت شفتاها حيث حطت شفتاي. قبلة طالت ومعها اشتد ذراعيّ حولها كي لا تهرب اللحظة، كي يتوه الوقت وتطول القبلة أكثر. وحين انفصلت لأتنشق وهي خطفات من الواقع، أدركت أنني لم أشبع بعد، لم أقترب من ذلك حتى. تواجدت شفتاها، تواجدت في استسلام. وحطت شفتاي إلى ملمسهما الأملس اللادن. وكنت وهي في هذه اللحظة كيان واحد، بدنان اشتعلت فيهما حرارة روحية لتذيب اللحم في اللحم ويتماثلان. لولا أن باغتنا الانفصال، وحين انتبهنا إلى الزعيق الذي صدر عن الطابق بالأعلى تفرقت الأيادي والشفاه. وتبادلنا نظرات مصدومة غير

واعية. غفلت عن واقع تعيش إلى أكذوبة سعيدة. فردوس مؤقت. أربكتها الضجة، فضبطت هندامها بتوتر وابتعدت بعجل إلى شقتها. طالعتني بنظرة أخيرة قبل أن تفتح الباب وتدخل. حين انغلق ظللت في مكاني متصلبًا بي شرود. وكدت أن أفعل المثل وأفتح باب شقتي لأدخل، حين رأيت صاحب القميص المزركش ينزل السلالم منفعلاً بفم لا يكف عن اللوم والسباب: "تلك الزريبة؟! تريدني أن أسكنها.. والله عال! لكن تبقى غلطتي أنا من سلمت أذني لكلب ضال مثلك أن يرشدني طريقي.. ومنك! منك أنت يكون منفعة.. لعنة الله عليك يا أخي!"

نزل الرجل ينهب الدرجات أسفل قدميه ونظر إليَّ فلم يوالني باله، وتابع إلى الدور الأسفل مواصلاً أسطوانة نهره. وحين تجلى أمام بصري عكاشة يقف بمنتصف السلالم النازلة، كنت لأول مرة أراه بغير قطرة عرق واحدة. بل ما رأيته عليه كانت تعابير حاقدة على نظرة كارهة. ينظر للأمام حيث مصدر الغمغمة المتلاشية للرجل الراحل بكره وغضب تحضره سيمات فظيعة شيطانية. وبدا لوهلة أنه لم يلحظ وجودي. ثم لحظة سقطت عيناه عليّ عاودني ذاك الشعور مجددًا. شعور الإعياء المهيج للقيء. وفي لحظتي هذه تبينت باليقين ما هو. إنه الخوف!

١٧

حين أشرقت الشمس كنت في هندام نظيف -على غير العادة- متعطر بعد حمام طويل. بدأت اليوم بنشاط، بنظافة وتفاؤل. لم أدخن أكثر من ثلاث سجائر فقط منذ تيقظت من ساعة كاملة. لم يكن بي توتر -لتلك الدرجة- على غير العادة. وعلى غير العادة كنت مشرقًا مسّرح الشعر مهذب الخصلات. ثم تنهدت وخرجت من باب شقتي. كان الرواق خاليًا، طالعته لبضع لحظات ثم أغلقت الباب من خلفي وتوقفت فيه. هو نفس الميعاد؟ هو بالمضبوط. مضيت بقدمي للأمام خطوتين ثم عدت ثلاث. ميعاد له اتفاق ضمني بيننا. حسنًا وكيف لا يكون وقد تكرر الأمر لأكثر من مرة وعليها ترسخ كعادة. أقابلها أنا أو تصطدم بي هي. بقيت أغدو وأروح في ثلاثة أمتار بخطى متسكعة. وعيناي تتخاطف نظرات متلهفة إلى حيث بابها. لم يفتح الباب. ذهبت وعدت. قربت منه بضع أشبار. ذهبت وعدت. شعرت ببيضة توتر تفقس. وتفاجأت بعد قليل أنني على وتيرتي هذه زحفت حتى الباب. وقفت أمامه وحدقت في الشراعة عسى أن ألمح الظل القادم من وراء زجاجها المصقول. نظرت إلى تحت عقب الباب. لم يأت ظل. لم يكن يتحرك أحد بالداخل. حينذاك فكرت أنها لا بد خرجت. روحت

وجئت لدقيقتين إضافيتين ثم استمالني تفكيري هذا. تنهدت، ونزلت السلم أشعر بالخيبة.

ليس الوجه الذي نزلت به. في نفس المكان أعود، لكن بوجه آخر. منكوش مغبر مرهق. حال آثر يومي الطويل أن أرتديه. لم يمر الدوام بغير توبيخ غير منقطع من المدير كان تمهيده الافتتاحي عند وصولي بالكلام ثم بقية الدوام بالنظرات. دفنت وسط الدفاتر وردمت ذهني المعاملات وعليها صرت غائبًا عن الواقع آلي الحركة والتفكير والعمل. روبوت تمتد طاقة كهربائه بتمدد ساعات اليوم. والتي انقطعت بغتة بنهاية الدوام. فكأنما صعقت لوهلة ثم بدأت أخور وتترهل قواي وترخى أعصابي المشدودة. وعليه كان نهوضي. وكنت بالمدخل إلى شقتي أجرجر نفسي بالرواق كما كان عليه الأمر طوال المشوار. أود فقط لو أغسل وجهي، أشك أن بي قدرة حتى على التحمم. يكفي أن أزيل زبد العرق الجاف الذي يسد مسامي، ثم أنام. ضج الباب ينغلق من خلفي، وبخطى بطيئة حثيثة لا تخلو من ثقل آلي تحركت إلى الحمام. وضعت يدي أسفل الماء البارد المنهمر من الصنبور. انتعش جلد يديّ به ولمحة إفاقة أصابت نظرتي عند ذاك. عليها مدت يدي في شكل مجراف حملت به الماء لينصّب على وجهي. وحقيقة بدأت أفيق، بدأ الخمول يتقشر عن ذهني. وكان الماء أسفل جفوني حين سمعت صيحة حادة تتأتى عن يساري. كانت ناحية النافذة المطلة على مسقط العمارة. نظرت من نافذتي، وسرعان ما حطت عينيّ على مصدر ذاك. المرأة في نافذة الدور الثاني، رأيت هيئتها من خلف الكريستال، وكانت تبدو جالسة في ثوبها على حافة الحوض، مستندة

إلى شيء أو تستند براحة يدها على شيء. لا، بل كانت تكتب.. تكتب في دفتر تحت يدها. لم أرها واضحة، لكن بدا في لغة جسدها الانفعال، العصبية. فكرت أنها لربما حدث لها موقف مزعج، شيء حرج أثار بنفسها الغضب والكآبة فكانت.. تسجله؟ أو ربما هي مصاريف البيت والميزانية الخربة؟ حسابات خاطئة؟ آلاف الاحتمالات جرت في رأسي وأنا واقف لا أدري لماذا أراقب هذا. إلا أنني فجأة رأيتها وقد انتصبت واقفة وتحركت صوب النافذة. ألاحظتْ شيء؟ سرعان ما تواريت عند هذا. وبعدما انفرج جرار لوح النافذة، أتت إلى مسامعي أصوات تمزيق عصبي. وحين قررت أن أرمي بعيني من جديد، لمحت أول ما لمحت كتيب أو أجندة تشوح في الهواء وسط عصافير الوريقات الممزقة. وكانت هي قد أدارت ظهرها خارجة من الحمام. وظللت للحظات أحملق في المكان المكشوف الآن من وراء النافذة المفتوحة وتحت الإضاءة التي لم تزل مشتعلة ساطعة، عل المرأة تعود فأراها أو أعرف من هي. لكن تلك اللحظة انخضضت على انتباه لجرس الباب يرن!

فتحت الباب على بسمة واسعة متحرجة تبلغ من الإطار للإطار، تعلو على وجه حمودة الباز. وقف أمامي الرجل بخدود براقة تنعكس عن انكسار نيون المصابيح على صلعته. وفور ما رآني قال: "أنا في غاية الاعتذار والله والامتنان" مضغ ريقًا متحجرًا في حلقه لما وجد تعابيري ثابتة على حالها. وأردف: "اعتذر حقًا لأن مشغولياتي صرفتني عنك فأغفلت برغمي والله الامتثال أمامك بالعرفان. أنت رجل والحق يقال محترم لطيف الجيرة وأقسم على ذلك بربي على عرشه

ولولاك لصارت سمعتي بالعمارة كوبيا! فورًا كانت لتكشحني الست بلا مواربة أو اعتبار لقدر من له وزني ومسيرتي!"

تصنعت بسمة، وقلت من تحت ضرسي: "لا شكر على واجب يا أستاذ حمودة"

انتعشت النظرة في عينيّ الرجل وتوسعت الحدقتان: "أنت تعرفني؟"

بالطبع!

ابتسمت أقول: "وصلتني شهرتك!"

رق لابتسامتي، وقال بنبرة يتخبطها الحرج: "شرف يعزني، لكن وبلا مؤاخذة لم أتعرف بك يا أستاذ..؟"

- "كمال"

- "تشرفت حقيقية بهذه المعرفة يا أستاذ كمال، وعليه.."

وكانتا شفتاه مزبدتين يمسحهما لعاب لامع، وعلى جبهته حبيبات عرق بدت تحت الإضاءة المشوهة دمامل برتقالية قبيحة. هذه العمارة لم تر أي وجه للصيانة أو قفا. وكنت شاردًا في ذلك حينما سمعته يردف: "وعليه يبقى هذا سبب زيارتي لك.. ألا تود لو تسري عن نفسك لشيء من الوقت، تخرج من حالة الوحدة هذه وتنقطع عنها يا سِيدي ولو مؤقتـًا. ولا تسألني كيف عرفت أنك

منغمس في هذا القدر من الوحدة، فلا يعرف العازب إلا أخيه التعس العازب!"

حدقت في الرجل: "أين تودنا أن نذهب؟"

حدجني بغمزة: "مكان محترم، نشرب فنجانين قهوة.. نقعد وندردش"

كدت أن أنطق إلا أنه لم يسمح لي وبتر ما بنيتي ليقول: "لن أقبل الرفض، هذه مجاملة بسيطة أمام معروفك الكبير معي!"

لم أقتنع. لا، ليس بعرضه وإنما بتمسكي الزائف بوحدتي المطبقة، وعليه وافقت.

لم أهتم لهذه الدرجة بأن أعدل من هيئتي، وربما ما شجعني أكثر هيئة رفيقي. والذي تراه فتدرك أنه يبيت في جحر صراصير، قميصه الكاستور مقرمش لم يشهد مكواة منذ فترة وربما غسيل تنتشر عليه تحت عين كاشفة بقع رمادية وبنطاله منفوش موبر. خرجنا بحالنا هذا التي تبدينا وكأننا فلتنا للتو من تحت يد كودية زار كانت تطرد من جسدينا أشباح الزمن التعيس بالكرابيج. وكان لحمودة سيارة هنا، هذا ما أوضحته نظراته إلى جانب الطريق. والتي لا أدري أي مغفل قد ينسى أين ركن سيارته، إلا أنني الآن وأنا بصحبته أجد هذا الحكم القاسي يتقلص، ولسيماه المبهدلة ألف تبرير. ثم حدثت الانفراجة بسرعة، ورأيته يتحرك صوب سيارة وسط عدد من السيارات المصطفة على الجانب المحاذي. وعرفت لمَ لم يتبينها

لأول وهلة. كانت خنفسة حمراء اللون تقع في ظلمة تحت مظلة شجرة أكاسيا ضخمة متفرعة. أولج حمودة بها المفتاح ثم دخلها، ولحظة استقررت أنا الآخر إلى جواره حدثت لي خضة العمر والتي لم يجرؤ أن يحدثها معي كاربنتر في فيلم الأمس. وذلك أنه فور ما أدار حمودة محركها وجدنا توكل وقد انقض على مقدم السيارة من مكان ما في أفظع قفزة تخويف في حياتي، وحياتي بها الكثير من السينمائيات المرعبة وتشهد عيناي لو أن بإحداهما لسان لي صراحتي. وقف الرجل يمسح الواجهة بخرقة نتنة بينما يلهج لسانه: "ألف سلامة يا بيه.. مع ألف ألف سلامة، عيني لم تغافلها طيلة اليوم وشرفي.. جعلتها لك عروسة!"

ألهذا لم أخرج رخصة حتى الآن أو أتعلم السياقة؟ الحق أنني لو مكان حمودة لما تهاونت عن دهسه. إلا أن رفيقي الخجل الودود التعس وضع يده في جيبه وأخرج للرجل ما به النصيب حتى ينزاح من أمامه. وحقيقة أراه الآن فأدري أنه شخصية تستأهل كل إشفاق، وفي بيئتنا الاجتماعية الموبوءة بالحثالات شخص مثله لابد وأنه يندهس كل يوم. ثم دار موتور الفيات ١٢٨ الحمراء منطلقة على مهل في الطريق.

بجزء شبه هادئ من منطقة الشواربي توقفت السيارة. نزل حمودة وأنا من خلفه، وإلى جواره تحركت نحو مقصد هو عارفه. ولم يخاطرني للحظة أن الهدوء بالخارج ما هو إلا ستار خادع لصخب عنيف بالداخل، حيث الحانة التي ولجناها من زقاق متطرف لا باب

لها سواه والذي يبدو أن حمودة يحفظه عن ظهر قلب. كان المكان يجمع الأرزقية وعدد أكبر من بدلات حكومية مبقعة، وآخرين لاسمة مميزة لهم ولكن على نفس المستوى. موظفين وغير، وكانت تتبعثر بالجو مزيج من الأحاديث وقهقهة الحاضرون متفرقة بين الطاولات. إلا أن الجو بقى له لون رمادي لم تنفره إضاءة الفلورسنت الموزعة. انقطعت الأحاديث تو ما دخلنا، ومن وراء البار رمقني شائب بملامح كئيبة يتفحص ما ورائي، ونظرات الحاضرين كانت من نفس الطابع. إلا أن هذا لم يدم لثوانٍ حين لاحظوا أني مع رفقة مألوفة. حينذاك أشاحوا بأنظارهم إلى ما كانوا فيه وتواجد بيد الساقي وراء البار قدح من مكان ما انشغل يجففه بمنديل. يبدوا أن هؤلاء لم يعتادوا رؤية زوارًا جددًا أو ربما هو أمر بكل بساطة يرتابون فيه وقد يقول المرء ههنا أن لكل وجه جديد وراءه كارثة محتملة ولا ينقصنا وجع دماغ. تقدم حمودة إلى مجلس جوار البار وحين حطت مؤخرته عليه، نظر إلى الساقي يسأله: "بقلظ لم يحضر بعد؟"

جلست بمقعد مجاور، بينما يجاوبه الرجل بغير أن يهتز جمود تعابيره: "واحدة جديدة بهذه السرعة؟"

إذن بقلظ هذا هو مهرب اللذة لأولئك التعساء؟ تابعت النظر في وجوه الحاضرين وإلى وجه رفيقي من نفس اللون. وكان يقول حمودة: "بل بنت القديمة التي جاءني بها، ألومه على مثل هذا المقلب الفظيع!"

- "على العموم قد صار يندر وجوده هنا، يقضي معظم هذه الأيام بالبانسيون وقلما يخرج منه"

- "معه حق، أنا نفسي كنت ذاهب لهناك إلا أنني أردت رمي السلام قبل ما أفعل!"

ابتسم الرجل لأول مرة: "انشغلت عن المكان طيلة جمعة، عسى ألا تصرفك عنا هموم جديدة"

- "واحد كونياك، لا مزة"

- "نعم أنت راحل"

وحين نزل له شرابه، جرعه حمودة في خطفة عين. ثم نهض ينظر إليّ: "ماذا أحسبت أنني سأخرج بك من قوقعة صامتة إلى أخرى كئيبة، كهذا المكان القذر! انهض يا كمال، هيا.."

بدا على الساقي عند المشرب أنه لم يبال حقًّا.

- "إلى أين هذه المرة؟"

ورأيته يغمز لي مرة ثانية في نفس الليلة، ما جعلني ارتاب فيه بينما يقول: "البانسيون!"

فانسحبت من مقعدي وتبعت خطوات حمودة المتعجلة. قفز إلى خنفسته وحين ركبت إلى جواره انطلق من جديد. ولم يكن المكان المقصود أبعد من شارعين في نفس المنطقة، قطعهما في خمس دقائق ثم ركن بنا من جديد. وكان المبنى المقصود يرتفع على جانب

الطريق العمومي بين عدد آخر من المباني والمحلات التجارية التي عملقتها فترة الانفتاح. قاد الطريق حمودة إلى بوابة العمارة التي جلس إليها حارس أسمر لم يكف عن حدجنا بالنظرات، إلا أنه ربما هيئة رفيقي تآلفت مع رؤيته فلم يزد بالفعل. وعبرنا المدخل إلى المصعد في مواجهتنا. ركبه حمودة وضرب زر طابق بعينه. وحين انفتح الباب انبعثت إلى مسامعي أصداء موسيقى سارحة. وتحركنا صوب نهاية الرواق حيث برزت في وجهنا بوابة زجاجية تشف ما بالداخل وتحجب ما تقدر عليه من ضجيج إلا أنه ما أكثر المسرب منها. وشدت انتباهي الألوان الفسفورية المتلألئة وراءها. ثم إذ دخل حمودة وأنا وراءه، غطّاني لون أرجواني ثقيل، تغير بسرعة إلى وردي وإلى أحمر وألوان أخرى تتابعت. وأول ما وقعت عيني كان على المسرح حيث وقف المغني يحيي سهرته. وكان للمكان أكثر من مصدر للضجة حقيقة إلا أن للمسرح ضجة من نوع آخر تناغمت مع جو المكان غير المتناغم. بانسيون؟ وفنجاني قهوة بمكان محترم؟ الآن فهمت النكتة في الغمزة. ترى ما ستكون عليه نظرة والدي لي لو كان حيًّا وعرف أني صرت أرتاد النوادي الليلية؟

كاد أن يتحرك بي حمودة إلى طاولة بقرب المسرح إلا أنني بادرته وأشرت إلى موقع متطرف عنها في الصالة. فأذعن لرغبتي وجلسنا إلى أول طاولة شاغرة وقعت عينيَّ عليها.

- "إيه، ما رأيك بالمكان؟"

- "ليس لدي ما أقوله"

طالعني بنظرة مستطيلة ثم قال: "حدثني بالحق ما خطبك؟"

- "وماذا دعاك لتقول أن بي خطب ما؟"

- "وجهك.. وجهك يا صديقي" وأردف يقول: "أنت لا تنام؟"

قلت بلا حيلة: "تتضاجع الأبراص فوق رأسي فلا يمكنني عزيفها من أي شيء!"

- "آه، نعم الأبراص.. إنهم لعنة هذه العمارة" وتابع: "لكنها ليست مشكلة لا حل لها.. أنظر لوجهي وستفهم"

خارج من علقة صرعت فيها ضربًا؟

- "لا أفهم"

- "هذا وجه يا صديقي لرجل يتنعم بقسط وافر من النوم!"

- "إذن ما حلك؟"

وقرب وجهه ناحيتي ليقول بصوت أقرب للهمس: "النفثالين!"

تمعنت في وجهه فلم أر أي إشارة للمزاح، قلت: "هذا حلك؟"

معظم
- "حل حاسم، صدقني فأنا لي خبرة لا يستهان بها مع
المركبات الطاردة ولي تجربتي المريرة مع تلك الكائنات"

نعم، مثل الملح؟

حتى
- "يبدو أن لك تجارب كثيفة بالفعل مع هذه الأمور
تواصلت إلى حلك، أنت تقيم في العمارة منذ مدة طويلة؟"

- "لا أكثر من أسبوعين"

- "أسبوعان!"

- "نعم، أنا شخص دائم التنقل. لا أقطن مكانًا واحدًا لمدة أطول من اللازم"

واستطردت متابعًا: "تجدني في أي مكان أو كل مكان، هذا ما تحتمه عليّ مهنتي!"

- "ولمَ هذا؟"

حينذاك وجدته يمد يده في جيب قميصه ويبرز أمام عينيَّ قلمه: "من أجله أغرق في القذارة أو أتسامى!"

أخذني الموقف فلم أنطق واكتفيت بهزة رأس. وطافت حول رأسه هالة حمراء منذرة حين قرب رأسه وتجعدت تعابيره في تشنج خفيف حين نطق بنبرة مثقلة بكل الجدية: "اسمع كلامي ونفذه! تلك الأشياء قبيحة مؤذية جرب معها ما قلت، ألم يأمرنا رسول الله بنفسه بضرورة التخلص منها؟ وهذا إن قيل على لسانه الكريم فلا يعكس إلا مدى خطورة الأمر. الحق أنهم سببوا لي نوعًا من الهوس، وددت التخلص منهم بكل شكل ممكن. تعلم أن أكل عيشي يتوقف على التركيز ومع هذه المخلوقات هذا شيء عسير المنال. إنهم لا يكتفون بالصراخ فوق رأسك حين تنام بل إنهم كانوا ينتصبون دائمًا فوق رأسي يبرقون ويحدقون ويراقبون انشغالي وأنا جالس على مكتبي، أعمل على مؤلَّف جديد. يشتهون تلك اللحظات، لحظات

غرقي في التفكير. لحظات تغيبي عن الواقع وحين أنتبه على تلك النغزة الغريزية بأنني مراقب أفيق على تواجد أحدهم فوق رأسي على الجدار جاحظة عيناه من منابتها نحوي. عينان أكبر من كل الرأس! إنهم دائمو التسلل أثناء التغافل، يتسللون إلى خلف رأسي إلى أفكاري إلى أحلامي حتى.. أصدقك القول يا كمال أنني شهدت لهم ذات يوم حلمًا فظيعًا، مروعًا. كانوا ينتشرون بكامل غرفتي. رأيتهم يغمرون فراشي، يتسلقون جسدي وكنت عاريًا كما ولدتني أمي، وكانوا يمتصون لحمي.. يغمرونني حيًّا. وصدمت وقت وقعت عيني على واحد منهم شديد الضخامة في حجم تمساح تقريبًا، يتسلل زاحفًا على عرض الجدار الواقع على زاوية عيني، يتسلل إلى الجدار خلفي. قبل أن أفيق مذعورًا!"

وكنت أستمع لكل ذلك وشعور بالصدمة يتنامى بداخلي، وكدت أن أعلق على الأمر لولا أن قطع هذا قدوم غريب إلى طاولتنا. كان رجل بدينًا خبيث النظرات حط ردفه الذي يشبه اليد على منكب حمودة. ليفزع الأخير على ذلك وينظر إلى الدخيل: "بقلظ!"

- "ما كل هذه الغيبة يا أديبنا؟"

تبرم حمودة: "وتريدني أن أرى وجهك بعد الذي فعلته بي فتاتك؟ يا وقحتك يا أخي!"

بدا التساؤل في تعابير الرجل: "ماذا فعلت؟"

- "أذاقتني الويل!"

- "لا، خالفها الحق في ذلك.. لأوبخنها على فعلتها هذه أيًّا كانت وأرجعها لك راكعة!"

- "لا يا سيدي، كفاني الله شرها إلى هذا الحد"

قهقه الرجل ليتبختر لغده، ثم قال: "وأنا أبدًا لا يرضيني أن أتركك زعلان.. ما رأيك لو نصعد الطابق الأعلى؟ عندي فتاة جديدة، شامية سترغب في رؤيتها"

مضغ حمودة ريقه، ونظر إليَّ ثم إلى الرجل: "يلا بنا يا كمال، الطابق الأعلى حيث توجد الـ..."

- "عرفت، ولا. أشكرك.. أحسبني سأنتظر هنا، اذهب أنت"

طالعني مجددًا، ثم لمّا تأكد من رفضي نهض يتحرك وراء الرجل يلبي دعوته. عند ذاك أخذني الصمت إلى قوقعة وحدتي من جديد. شيء ربما كتب عليّ، ومن يرى حياتي السابقة ويدري كم كانت ضاجة حافلة بالرفقة يعلم أنه مصير لم أعمل له حساب. وكنت غارقًا في هواجسي أتطلع إلى المسرح، وأتخاطف النظرات إلى حضور الصالة، الزبائن والحسناوات السارحات حين تفاجأت بإحداهن تقف إلى طاولتي وبيدها قدح عامر بشراب مصفر تكسوه الرغاوي. وقالت: "تبدو وحيدًا للغاية"

نظرت لها بدهشة: "درية؟"

- "تركك النذل وحدك؟"

ضحكتُ لهذا، فقالت: "انتظرته حتى يخفى لأتيك بهذا" وضحت سيمات وجهي الرافض تحت عينيها ما جعلها تنطق قبل أن أرفع يدي وأنطق بالرفض: "لا تقلق، كحوله مخفف. توقعت أنك لا تفضل الكحوليات، هذا خير.. أقلها لست مثله!" وضعت القدح أمامي على الطاولة، وأردفت متسائلة: "لكن ترى ماذا جلبك معه؟"

- "هو دعاني"

- "هذه غلطتي، أقسم أنه لولا ما حدث تلك الليلة لكنت سأدعوك لتقضي إحدى السهرات هنا.. أتلك كانت خطيبتك؟"

هززت رأسي نافيـًا. فقالت بمرح: "نعم، نعم تلك العمارة يعيش بها مخابيل لا حصر لهم، لست بحاجة أن تشرح لي"

- " لمَ أنتِ واقفة؟ اجلسي يا درية"

- "على عيني والله، أود ذلك. لكن لا يسمح لي إلا أن أخدم على الترابيزات"

ضحكت أقول: "هذه أيضًا خدمة، ألا تري كما أنا وحيد؟"

بادلتني بأخرى شديدة الصفاء: "بدأت أشعر بالذنب حقـًا!"

وكادت أن تقول شيئـًا آخر لولا أن قاطعها نداء خفي لشخص لم أره، فنظرت إليَّ آسفة: "معلش، مدير الصالة يناديني.. لكن تتعوض والله"

خفت قدما درية لتخطف الأرض راحلة، وبقيت في صمت لدقيقة قبل أن أمد يدي للقدح. ثم بدأت أجرع منه، ودفقات وراء دفقات حتى أتيت عليه. ومرت من الدقائق أضعافًا شردت فيها بنظراتي نحو المسرح. وكانت نصف ساعة مرت عليَّ في ذلك حين تقابلت عيني مع عين حمودة قادمًا بترنح وثغره منفرج لاهث. ضحك نحوي ببلاهة وقال لما وصلني: "أما أمكنك أن تأتي؟"

- "يبدو أنك كنت مستعجلاً!"

احمر للتلميح، إلا أنه قال ضاحكًا: "أنا رجل ورائي مشاغل، لا أحب أن أهدر الوقت.. أكثر من اللازم!"

نهضت من مكاني: "إذن، هيا نرحل"

- "بهذه السرعة؟"

- "اكتفيت"

انزلقنا من العمارة إلى ركوبتنا بسيارته الخنفسة. ونظرت إلى يده على المقود فرأيت أنها بها رعشة، ربما أدري مصدرها. لكن على كل انطلقنا بسلام. وعند عمارتنا الصفراء توقفت بنا السيارة في نهاية رحلتها لهذا اليوم. وكنت وحمودة نسير بالمدخل حين طرأ إلى بالي شيء للتو فكرت أن أتحقق منه، وكانت بالحق فكرة مجنونة لا هدف وراءها لكنني لم أستطع زحزحتها عن ذهني. فتوقفت في مكاني، حينذاك التفت لي حمودة يسألني عن الخطب، فتحججت له بنفاد سجائري وأخبرته أنني ذاهب لشراء علبة من البقالة على أول الشارع

فليسبقني هو. هز كتفيه ثم استدار مبتعدًا. خرجت من مدخل العمارة، لكنني لم أبتعد عنها بل استدرت في الشارع حولها ثم انزويت في زقاق في نفس البقعة هو مسقط العمارة. وهناك على الأرضية السوداء التي تكشط أجزاء من ظلامها تكسرات النور عن أكثر من مصدر، جلت بعينيَّ في المكان. رأيت الأوراق الممزقة. ثم في ذات الحين اهتدت بصيرتي إلى دفتر صغير ساقط بالأسفل مباشرة من موقع النافذة إلى جوار كومة قذارة على جانب الجدار. التقطته بسرعة عن الأرض، وكان لونه بني غلافيه من الجلد. هو دفتر يوميات هذا ما اهتدى تفكيري له، وحين سبقني فضولي إلى فتحه أحبطني أن أغلب صفحاته ممزقة إلا من بضعة قلائل. لا أدري ما قادني إلى هذا الموقف، لكنه شيء بنفسي دفعني ولم أستطع رده. ويتشوش تفكيري حين أفكر بمدى انحراف ذلك الداعي. رفعت الدفتر تحت ناظري وكانت كلماته لا تقرأ في هذه الإضاءة. وكدت أن أنصرف به من مكاني هذا في نفس اللحظة التي تباغت فيها برؤيتي للكلمات واضحة. وأدركت أن هناك طاقة ضوء تسلطت نحوي. رفعت رأسي إلى مكان تمنيت ألا يكون هو مصدره، لكن أمنيتي تعفرت في التراب محبطة. كانت النافذة قد انفتحت ورأيت بها أفظع شيء قد تراه عينا إنسان. وكانت هي الأنثى التي تطلعت لها يوم باشتهاء، إلا أنها على ضياء الحقيقة العارية بدت في صورة أخرى لم تخالج تصوري قط. كانت تقف بلا ثوب يغطيها، شاحبة مترهلة يرتخي جلدها في تجعد فوق بعضه البعض بطول جسدها، يتهدل نهداها بلا اكتراث وتبرز عنه في وجهي حلمتين رماديتين فظيعتي الطالع. وعرفت الآن لمَ

كانت تغطي رأسها بمنديل، لم يكن صلع صاف بل ألوان بنية وبيضاء تبرز كنتوءات عريضة، من الرأس تنتشر على كل جلد الجسد. وكانت تقف الست نوال الكيلانية تحدق فيَّ بنظرة فارغة، لا تعبير وراءها.

١٨

وأذكر أنني استمعت لها في خريف العام ١٩٦٧م وكان والدي إلى جانب المذياع، يملأه شجن قاسٍ، تعابيره يشغلها حزن لا أفهمه. يتدفق إلينا صوت فريد الأطرش في صدوح بأغنية قلبي ومفتاحه. أذكر أنني استمعت إليها معه في ذلك الوقت، شغل الجو حزنًا في تعابيره وكانت السماء خلف النافذة رمادية وشجيرات السنط الموزعة في نواحينا تحت الأبصار كانت كئيبة مستنزفة. وكان الشارع هادئًا خاليًا كأنما متنا جميعًا فجأة بغير أن ندري. أذكر كلمات الأغنية في ذلك الحين ووقع تأثيرها عليّ، تأثير مشابه للحال الذي فيه الآن وأستمع لها. عارٍ في فراشي كما انزلقت من رحم أمي. إيقاع الأغنية به تشوه. صوت الزحف أسمعه، وكأنما الكون يمطر بالخارج وتلك أقدام السائرين في الأرض الموحلة. يجرون أقدامهم، يزحف الصوت عندي. وفريد الأطرش صوته مضخم، مشوش، صداه على أذنيّ بارد. كانت الغرفة من حولي مستقرة في لون أصفر. كنت مشلولاً في مكاني، عيناي مفتوحتان، جفونهما مشدودة إلى الجذور. وكنت أشعر بسائل به لزوجة اللعاب يلامس جلدي، يسري عليه، يغمره. ورأيت فراش السرير هو عبارة عن أبراص. أبراص لا تظهر لون الفرش السابق. كثافتها شديدة. تزحف بلا مبالاة. تغطي كل شيء سواي. وما يثير سخرية في محيط دمي القلق، أنه كان بي انتصاب!

بزاوية عيني رأيت أن الأرض حالها كما حال الفراش، بها جحافل منهم يزحفون في كل الأرضية. يزينونها بلون جديد، لون قبيح. ثم شعرت بالسائل تنزلق قطراته على ذكري. احتر جبيني لحظة ما رأيت أول كائن زاحف يتسلق جسدي، آخر تبعه. وكانت الأغنية لم تزل تصدح، لا تقارب الآن بين صوت مغنيها وصوت فريد الأطرش. كانت كريهة، مضخمة ذيولها مشتتة مزعزعة الأوتار. كانت تنغرس في حيز فراغ الغرفة متراشقة إلى لحمي تطعنه. تفكيري لا وجود له، تنفسي يصعب بالتدريج. إنني ألهث. الأقدام الوسائدية الدقيقة تتسكع على لحمي. تتحرك بلا انضباط. تفاقم بصدري تقزز عنيف لا أستطيع تصريفه. لا أستطيع البصاق. لا أستطيع القيء برغم العصارة التي حرقت الطريق حتى أسفل ذقني. حطت عليّ قطرة دافئة أخرى، هو اللعاب الذي بدأ يغمرني. غرق فيه نصفي السفلي، وبقت قطراته الدافئة ذات الملمس الشاذ تحرق جلدي. كيف الهروب؟ كيف النجاة؟ يا رب السماوات! لربما عشقت ألحان فريد الأطرش ذات يوم، لكن هذه الألحان التي تعزف الآن.. تقتلني. وبرغم خمود جسدي وانطفاء كهرباء أعصابي كان يبقى الاشتداد في ذكري. الأمر غرابته تصعقني، أشعر بالانفصال التام. أشعر بنصفي السفلي يتحجر، ويزحف التحجر ليغلبني. كانت فروة رأسي تحترق. بؤرة اللهب وطنت باطن مؤخرة رأسي. ولم أستطع أن أبارح عيني عن الأبراص الزاحفة. لم تكن تفعل شيء إلا الزحف، لكن ساورني خاطر أن هذه هي الوظيفة المتفق عليها. ليس أن تزحف فقط، بل أن تنسج عليّ هذا السائل الذي يساهم في شل حراكي.

تفرزه بشدة، تفرزه بدأب. وكنت أشعر كأنما جسدي يتم لعقه بألف لسان. وعلى أثر شعوري هذا أحسست بقرصة لفرقعة أحد أعصابي، ثم تبع الفرقعة فرقعات. أعصابي تختل، السيالات الواصلة لعقلي مضطربة مفرطة الطاقة. عقلي يوشك.. يوشك أن يحترق داخل تجويفه برأسي! وعزف آخر غلب عزف أغنية قلبي ومفتاحه المشوهة، النَّقيض. إنهم جميعًا يعزفون الآن، ينتقل العزف من آخر إلى آخر في تتابع. يومض الصوت الكهربائي الفظيع في حناجرهم الضئيلة بالتدريج، يصعق الجدران. ثم رأيت أعينهم تحول إليّ، شيء أسود لعين. ثقوب سوداء تتطلع نحوي. أم ليس نحوي؟ تلك اللحظة رفعت رأسي إلى السقف. مصدر اللعاب الذي لم يمكنني موقفي من النظر إليه. وكنت منصب التركيز على حشود الأبراص المطوقة لي، فلم أكد أراهم. عشرات أو أكثر. أكثر بكثير! رجال عراة اللحم منسوجين وراء غشاء شفاف من سائل دهني ثقيل يثبتهم في سقف الغرفة. نظراتهم بيضاء وأفواههم مفتوحة كهوات لا قرار لها. وبغتة سمعت النَّقيض، ليس المتبعثر الرفيع فيما حولي. بل أعلى وأشد في ضجيجه. صخب مباغت مروع، جعلني أحرك رأسي بدرجة قاسية للأمام لأطل بعينيَّ إلى ما خلفي. وتقابلت عيناي مع عينين آخرين بلون سواد الكون وضخامته. الوجه المدبب المبهق بالبني والأبيض. إنه منهم. أو إنها؟ أكثر ضخامة مني ومنهم. تلك أمهم؟ وتتحفز لفتح فمها. ملكتهم؟ ولجزء الثانية رأيت لسانها يمتد ليرتطم بي قبل أن أفتح عينيَّ. وأتيقظ ها أنا الآن في غرفتي الهادئة.. والخالية!

رن جرس الباب، وإليه نهضت من سريري بتثاقل. حين وقفت بترنح أدركت أنني عارٍ مع ملاحظتي لتلاصق جلدي. كان يغمرني العرق الذي حين تحسسته أناملي، فكرت لمَ يبلغ كل هذه اللزوجة؟

كان الكابوس لهذه المرة قاسيًا. شرد بالي إليه ويدي تلتقط شيئًا ألفه حول خصري. متى خلعت ملابسي؟ أكان الليل بهذه الدرجة من الحر ما جعلني بلا وعي مني أتصرف على هذا الأساس؟ لا أدري، الأمر يختلط في بالي. تحركت إلى باب الشقة، وحين فتحته كان حمودة يقف على الجانب الآخر بانتظاري.

- "صباح الخير يا كمال.."

رددت بكسل: "صباح الخير"

- "مالك؟ وجهك شاحب!"

كان يحمل بيده عبوتين بلاستيكيتين بلون أبيض. تطلعت فيهما وقلت: "اضطراب في النوم"

هز رأسه وكأنما يدري ما أقول: "تلك الكائنات اللئيمة.. ها؟ لهذا أحضرت لك هاتين! هاك!" مد يده إليَّ بالعبوتين وهو يستطرد: "ستنام مرتاح البال، لن يصرخوا فوق رأسك بعد اليوم!"

ضحكت بتعب وكان ذلك متجليًا في لهجتي حين قلت له: "ليس معك شيء أحصن به أحلامي أيضًا..؟"

- "جاؤوك في منامك أيضًا.. يا مسكين!" وأردف ضاحكًا: "على كل هذا لابد أن يتكفل بهم.. المهم، عليَّ الذهاب للجرنال اليوم لتسليم مقال مهم، أتود لو أوصلك لشغلك في طريقي؟"

هذا شيء، في هذا الصباح بالذات أمتن له. طلبت منه أن ينتظرني عشر دقائق فقط، ريثما أقشط عني عرقي الذي صرت الآن متقرفًا منه بشدة في تحمم خاطف. وعليه خرجت له بعد نصف ساعة منتعشًا نظيفًا وقد انقشعت عني كل أعراض كابوسي الماضي.. أو كما آمل. وكان حمودة جالس بغرفة المعيشة حين انتهيت من وضع هندام لائق على جسدي مؤذن بالمغادرة. وقفت في الرواق للحظات قليلة أتطلع في جانب يميني، كان الباب مغلقًا. ظل مغلقًا، ولم تخرج.

- "سنرحل أم ماذا؟" قالها حمودة فعاد إليَّ انتباهي. قلت: "هيا" وبقت عيني معلقة بالباب قبل أن أغرق في درجات السلم. وصلنا بهو العمارة لأتفاجأ برؤيتي لتلك العجوز مرة أخرى. أم سلوى واقفة قرب البوابة تتحدث إلى توكل في شأن ما. ربما ليتبضع لها شيئًا، لكن على وجهها رأيت كآبة حاضرة. وتجاوزت بوابة العمارة وكلمات توكل لها تتردد على أذني بلا معنى صريح: "اهدئي.. لا ضرورة لذلك الآن.. لا، لا يجب أن تفعلي هذا الآن.. بعد يومين على الأكثر ليستجيبوا.. ربنا يجيب العواقب سليمة!"

١٩

كليك كلاك. يدنو الوقت، يقترب. ينفد. كيلك كيلاك. وكانت العقارب تلاحق بعضها في حلقة لا تنتهي على خلفيتها النحاسية، تدور، وتدور. وتلاحقني أنا نفسي، صوت قاتل، مؤرق. كيلك كيلاك! لونها دموي أحمر في قالب مستطيل بحجم الكف وبقلبه العدسة التي تعكس تلاحق الوقت وتضيقه حول عنقي. هل أنا أموت؟ أم السؤال يجب أن يكون؛ هل أنا سأموت؟ هذه الأعراض التي صارت ملاحظة عليّ، شحوبي الدائم، الهالات السوداء التي أطالع بها نفسي الآن في الانعكاس الشفاف لعدسة ساعة المكتب، أهي أعراض احتضار أم لا يكون هذا إلا وهم عن قلق؟ لاحظ رفقتي بالمطعم بأنني أفقد الوزن بصورة مستمرة، لكن هذا يمكن إرجاعه لنظامي المضطرب في تناول الطعام. لكن يبقى ما رأيته لا يفارق بالي، وإن كان حلمًا سرعان ما ينسى إلا أنني وهذا أسفي احتفظت بصورة دقيقة عنه. لكن ألا يمكن أن أكون وقعت فريسة للإيحاء؟ تأثير حكاية حمودة سيطرت عليّ وشحنت عقلي بتوتر عنيف وجب إفراغه في صورة مشابهة؟ الحق أنني لا أدري وتتفقس في بالي تساؤلات لا جدوى منها، وتتربص بي آلاف من كلمات لكي تعترض سبيلي في أي تفكير، تحت مسمى منطقة الأمور وتقنعني تحت وطأة العقلانية أنني غارق في مهاترات لا هدف من وراءها. وكانت ساعة

المكتب أمامي الآن تشير في مكعبها الدامي إلى السابعة إلا خمس، وكدت أغرق في شرود جديد لولا أن جذبني إلى عالم الواقع صوت مألوف.

- "أبو كمال!"

ورفعت عينيّ لأجد صديقي القديم عبد الجواد يقف فوق رأسي. نهضت بدفعة سرور جددت الدماء في شراييني، وسلمت عليه بعشم وحضن زائد. وكان صاحبي يقول: "إيه، ما الأخبار؟"

- "الحمد لله، كما ترى"

حدق فيّ وقال بنبرة جدية هي سلاحه في الإضحاك: "لا أرى سوى خراب مستعجل، ماذا حل بك.. يتهيأ لي أنني لو صفعتك الآن لصرعت ميتـًا!"

- "ليس الأمر بهذه المأساة"

- "حسن، دعني أجرب وسأريك!"

ورفع يده أمام وجهي، قبل أن أقول: "أتتعجل قتلي بهذه الدرجة يا ابن اللئيمة!"

وضحك يقول: "على العموم، لا يهم. هيا نتحرك لا نريد أن نتأخر.. انتهى دوام عملك صحيح؟"

- "حلمك عليّ يا عبد الجواد، إلى أين؟"

- "لم تفارقني إلا أسبوع ونسيت عيد ميلاد أخيك، يا جحودك!"

- "اليوم!" وتابعت أقول: "والله كدت أنسى، إذن سأعود للبيت أغير وآتيك في ساعة مبكرة من الليل وبالمرة أحضر لك هدية!"

- "كفاك عبطًا يا كمال، أي هدية أنحن عذارى في سن المراهقة نتهادى وننفخ في الشموع؟ هي سهرة عادية مع رفقتنا القديمة، لا هدايا ولا سنة حلوة يا جميل!"

- "أقلها أغير هندامي"

- "يومك بسنة، لهذا جئتك أنا.. ألا تنوي أن تركب هاتف وتعفيني من هذه المشوَرة؟ والله لولا أني متأكد أن السهرة لن تكتمل إلا بك لما اعتبرتك.. كفاك مهاترة الآن ويلا!"

هززت كتفيّ بلا حيلة ثم استأذنت بالمغادرة وجهزت الدفاتر للمناوب بعدي في الشيفت الليلي. وحين خرجت معه استقبلتنا سيارته البولونيز ميراثه عن أبيه. ودقائق قليلة حتى وصلنا بيته والذي كان بالفعل قريب من منطقة عملي، بشارع ميدان الأوبرا. ثم لحظة دخلت الشقة تفاجأت بأن كل الرفقة حاضرة. كانوا ثلاثة من أعز أصدقائي الذين شهدت معهم أيامًا أفضل، قبل أن يتفرق ترابطنا بغير أن ينقطع، كل منا قصد حاله سواء في درب الصعلكة أو المجد المهني. وأول من لاقاني كان شوقي عرفات والذي همَّ من ارتخائه بجلسته على الديوان الذي كان يشملهم الآن كما شملهم في مرات أخرى عديدة، وأقبل نحوي مادًّا يده بالسلام ثم القبلات والأحضان وهو يقول: "أبو كمال، عاش من شافك!" وكان شوقي مدرس تاريخ بمدرسة الحسينية، ونهض عماد تباعًا والذي ذكرني

مظهره الآن وقصبة النارجيلة بيده كان ينفخ فيها ويسلكها تمهيدًا للسهرة، بمظهر عادل أدهم في فيلم ثرثرة فوق النيل بل كانت الجلسة كلها تحيي في ذاكرتي مشاهد الفيلم، ولما رآني عماد أفلتها من يده ونهض يحتضني بعشم زائد: "يا جدع! لمَ كل هذه الغيبة؟" أما عماد فهو طبيب بمستشفى المنيل التخصصي. والثالث الذي شعرته ينهض بتكاسل فأدركت أنه تنميل بساقه، داءه المستمر، صديقنا ذو الوزن الثقيل ميلاد، والذي نتشارك أنا وهو دروب الصعلكة. لذا حدجته بعيني: "إياك!" ومضغت ريقي: "أنت كوم وهما كوم!" إلا أنه لم يكترث واندفع يدفنني في لحمه: "واحشني.. واحشني.. مهما حلفت لك لن تصدق قدر سعادتي برؤيتك!" وحاولت أن أجيب لكنني كنت محشورًا بين ثدييه فلم أكد أنطق أو أتنفس. وحين عتقني لوجه الله استرددت أنفاس الحياة من جديد، وأنا أقول من وراء سعلة ووجه مخطوف: "خبر إيه يا جماعة، هو شهر وحيد انشغلنا فيه عن بعضنا لمَ كل هذا الزخم والمبالغة؟ لم أكن على الجبهة يعني وتم أسري!"

وقال عبد الجواد في مرح: "دعوه وشأنه يا غجر، الرجل مريض مسكين ألا ترون كم نحل حتى صار كما عود القصب.. هو ليس بحملكم!" وتشارك الجمع الضحك على حسابي. فتركتهم واقفين لشأنهم وروحت افترش على وسائد الديوان الوثيرية جالسًا، وكانت بمواجهتي النارجيلة وعدتها تتوسط السجادة الفارسية المفروشة. ونظرت لهم أقول: "إذن؟ لا أرى كعكة أو شموعًا؟"

فوجدت ميلاد يبتسم ليخرج من جيبه اللفة السلوفانية، ويقول: "تنتظر فقط من يشعلها!"

قلت: "هذه ليست جلستي يا جماعة تعرفون"

- "يا أبو كمال لن يطلب أحد منك أن تشاركنا، يكفينا أن نشبع من رفقتك يا صاحبي" قيل هذا على لسان عبد الجواد، والذي اقترب يجلس جواري.

- "حسن، لكنني والله لا يمكن أن أطيل.. كما ترون حالي"

نطق شوقي: "يصعب على الكافر، ماذا يجري لك؟" جلسوا جميعـًا وأنا أقول: "ظروف المعيشة، لم أستقر تمامـًا وهناك.. تخبطات.. تخبطات تؤثر عليَّ قليلاً "

-"لمَ لا تتزوج يا أخي؟ لا تقل لي أنك تتخذ هذا اللئيم قدوة!" لطمت كلمات عماد وجه عبد الجواد فدهش منفعلاً، وضحك يقول: "وماذا فعل لكم الزواج؟ أنت تعس غرقان ليلك ونهارك بالفورمالين وشوقي جننه التلاميذ فأدمن تنشق الطباشير وأخينا المسكين ميلاد على الجانب الآخر تائه حيران يا ويلاه يجمع مصاريف المدارس والأكل والشرب وكل متطلبات البيت بلا رحمة.. ولمَ كل وجع الدماغ هذا الله الغني يا أسيادنا!"

ما جعل الجميع ينخرسون وكل على فمه بسمة آسفة. وقلت لأكسر الصمت: "ما زلت يا ميلاد تعمل في نفس محل الميني فاتورة بالسبتية؟"

- "وماذا بيدي لأغيره يا أبو كمال؟ دعك من هذا.. خذ يا عمدة ولع.. ولع الشموع!" ومد اللفة إلى عماد الذي تكفل بتشغيل القعدة. فرك حشيشه وجهز ناره، وبدأ يعزف بالتسليك ثم بعد لحظات قليلة انبعثت غيمة ثقيلة سرحت في جو الحجرة. وكان مني أن أخرجت علبة سجائري، ثم بدأت أنفث دخانًا حيًّا مضادًا لدخانهم المخدر. ارتفعت جميع الأدخنة إلى السقف لتخيمنا، وكانت تتراشق إليَّ في موجات طويلة أرهقتني وأرهقت جفوني. وكانت النارجيلة قد استقرت بالمناوبة في يد عبد الجواد حين قال: " والله لا تحلو مثل هذه الجلسة غير باللمة!"

- "مسكين" قال عماد الذي بدأ يرتفع إلى مرتبة أعلى منا فغشت عيناه وهو يقول: "لعلك سئمت منها وأنت وحيد"

- "بل كدت لأعزم على التبطيل وحياتك!"

وضحك عماد يقول: "يا له من جنون! ذكرتني بحشاش عتيق جيء به إلى المشفى من ثلاثة أيام جريح بجرح بالغ يفيض منه الدم في سيل لم تستطع صده حتى الخرقة المبللة التي لفها من جاؤوا به حول جرحه، أتاري الأفندي دخل في عركة مع حشاش آخر بالغرزة التي جمعتهما لينتهي النزال لغير صالحه، ويفتح الآخر يافوخه. لذا توجبت جراحة فورية، وكان المسكين على المحفة تحت يدي يحسب أنه يحتضر وتفرقه عن الموت خطوات ما جعله يقسم وينذر على نفسه أنه إن أنجاه الله لن يقرب الكيف ما حيا! أما ما توعدنا به فيما بعد فهو الموقف الذي ظللت ومن حضره نتندر به ونضحك

لفترة، إذ إنه فور ما تم حقنه بالبوبيفاكين بدأ الرجل يسرح في ملكوت غير الملكوت. كمياء المخدر وكمياء الحشيش انسجما معًا في تناغم، ودخل صاحبنا في نوبة هلوسة قلما تحدث بمثل هذه الطريقة!"

وقفت أعيننا عليه منتظرين أن يستكمل إلا أن النارجيلة تناوبت إليه فانتظر يعب منها في جوفه في تقطعات ثم في النهاية نفس طويل مستمر. وسأله عبد الجواد: "ماذا جرى له؟" فأفرغ عماد الزوبعة الرمادية من صدره في جو الغرفة، وضحك باستخفاف يقول: "راح صاحبنا يحكي قصة حياته" حدقت فيه بغير فهم، وبعدما نفضت دخان سيجارتي بمنفضة رخامية بجواري قلت: "ماذا تعني؟"

- "أعني رواية الأيام.. بالطبع قرأتها؟ حسنٌ، كان يروي علينا ونحن في وسط العملية أحداث أيامه، لكن بسردية مختلفة. حكى لنا سيرته الذاتية بصوت مموه لكن تفصيلي، فأخذ يتكلم عن أحداث عاصرها ومر بها في الماضي القريب وما أبعد ثم ما أثار عجبي أن مبدأ الانطلاق لحكايته أو طبيعة سرده أن روايته للأحداث طرحت في الحاضر المعيش، بمعنى آخر أنه كان يروي لنا ما يمر به الآن وما يلاقيه ومن يتحدث معه وما إلى ذلك من أمور أخرى تنطوي داخل عقله. إنه كان معنا في غرفة الجراحة، لكن في ذات اللحظة هو في مكان آخر يمر بظروف وأحداث ومحادثات أخرى.. كان الأمر به تخبط شديد الحقيقة، لكن تزعزع الأسلوب هذا بدا مبررًا بالكامل إذ كان أصل الحكاية كلها تتدور في عقله حيث كل المسارات تتصادف

وتترابط في كتلة واحدة كل ذكرى فيها عبارة عن وريقة.. ووريقات متطايرة هنا وهناك.. وصاحبنا تحت تأثير هذا الانسجام الكيميائي النادر كان يمرح هناك داخل عقله يقفز ويتقافز على ذلك المرج الأخضر الواسع يحاول جمع كل ذكرى في حكاية واحدة، لكن المهم أنه حي فيها ويعيشها!"

- "يا للجنون!" نطق ميلاد

- "كل سنة وأنت طيب يا عبد الجواد" نطقت وقد هممت بالنهوض.

- "السهرة ما زالت في أولها يا أبو كمال!"

- "اعذرني يا شوقي، طيلة اليوم في الشغل لم أضع لقمة في معدتي وأشعر أنني أتعفن.. وداعًا يا جماعة، والله كان بودي أن أطيل لكنني يلزمني حمام عاجل يزيل كل ما عانيته اليوم"

- "مع السلامة يا أبو كمال" قالها عماد، ونهض عبد الجواد بطوعه ليوصلني للباب. وفي الرواق الواصل لمدخل البيت، لفتني داخل حجرة عن يميني بابها كان مفتوحًا شيء أذهلني ولم أكن قد لاحظته تمامًا وقت دخولي. وقفت أتفحص أسطوانتيّ الغاز القصيرتين المركونتين بالداخل ومصحوبتين ببندقية في حجم الذراع باهتة صدئة بعض الشيء فوهتها عريضة بما يتسع للنفث. فنظرت لعبد الجواد الذي كان خلفي: "أهذا؟"

ولما رأى ما أقصد، هرش في رأسه وضحك يقول: "نعم، قاذف لهب.. لا تخبرهم!" وراح يغلق الباب ثم تقدمني نحو المدخل، فقلت بدهشة: "وماذا تراك تفعل بها؟"

هز كتفيه وهو يقول: "لا شيء حقـًا، رأيتها في أحد مزادات الخردوات بالحسينية فراهنت عليها للتسلية.. وربحت. ولا أدري الآن حقـًا إن كان ربحًا بالفعل أم مقلبًا!"

ضحكت: "مقلب خطير، لو اشتبه أنك تملك شيئًا كهذا لركبت أول مواصلة لما وراء الشمس!"

وفتح لي الباب قائلاً بنبرته المرحة: "لا تبالغ.. وبعدين لا تنس أن لي خالاً ضابطًا بقسم الإنقاذ!"

فقلت من وراء بسمة: "حسنٌ، يبقى لا شبهة هناك!"

عدت إلى الدرب الأحمر بعد نصف ساعة تقريبـًا، وحين وصلت العمارة وتجاوزت بوابتها شعرت بأن الانتعاش المفرح الذي اكتسبته من جلسة الرفاق يزول ويتبخر إلى انقباض. وتفهمته بسرعة وقت صعدت إلى طابق مسكني لأرى توكل يقف مع أم سلوى أمام شقتها، يحاورها في محاولة إقناعها بشيء ما. وما أوقفني على باب شقتي إلا حين سمعته يحذرها: "لابد أن يمر على المختفي يومان قبل الإبلاغ!" وتلك اللحظة انصعقت في موقفي. تحركت تجاههما فوجدت في عينيّ أم سلوى حزمًا على ملامح كئيبة، إلا أنها بدت

مصممة على ما تنوي. ولأول مرة في حياتي أستبيح التطفل لأقول بصوت مأخوذ: "خير يا جماعة!"

فأدركت الضيق في وجه توكل الذي التفت لي يقول: "لا شيء يا بيه، هو أمر بسيط سأجد له حلاً مع الحاجَّة لا تشغل بالك"

كاد أن يردعني هذا الرد وأتقهقر في تراجع إلا أن أم سلوى انتفضت قائلة: "لا شيء! ما هو الذي لا شيء والأمر البسيط؟!" ونظرت إليَّ في شبه استغاثة: "ابنتي مختفية منذ أول أمس، وكلما وددت الخروج والاستنجاد بالشرطة صدني هذا اللئيم بحجج فارغة!"

تلك اللحظة كنت في كون غير الكون، ضربتني صاعقة سماوية زلزلت حواسي. منذ أول أمس؟ ليلة كانت معي! متى؟ متى حدث هذا؟ رأيتها تدخل الشقة بنفسي.

- "لئيم! سامحك الله يا حاجَّة"

- "ابتعد عني ودعني لحالي"

- "الحق عليَّ إني خائف عليك من الشارع الذي لن تجيدي التعامل معه لا تؤاخذيني لسنك وقلة تجاربك معه.. يا سيدتي أنت لا تكادين تخرجين!"

- "توكل!" قلت في نبرة حازمة: "اذهب أنت، لا حاجة بالسيدة لخدماتك الآن" نظر إليَّ الاثنان فأردفت أقول لأم سلوى: "دعيني أرافقك لقسم الشرطة إذا سمحتي" وتبدت السيدة لي تلك اللحظة شديدة الضعف عاجزة ترتعش، تطقطق نظراتها بالامتنان. نظرتُ

لتوكل الذي كان لا يزال متصلبًا في مكانه: "تحرك يا توكل لمَ لازلت هنا؟" ولم يفتني مدى الحنق الذي اتقد في وجهه وهو يحدجني بنظرة كارهة، إلا أنني تجاهلته ووجهت كلامي للسيدة: "انتظريني داخل شقتك يا أمي، عشر دقائق أغير فيها هندامي وأعاودك لنذهب"

وسمعت وقع أقدام توكل الراحلة من خلفي، وهزت السيدة رأسها إليّ: "شكرًا يا بني.. اسمك كمال صح؟ أذكر.. أذكر، هذا معروف والله لن أنساه يا ولدي"

ابتسمت لها بأسى بينما تتحرك متعبة إلى شقتها. ودخلت أنا بدوري إثر ذاك شقتي. خلعت ملابسي ووضعتها في سبت الغسيل والذي صار الآن تلة صغيرة للملابس الوسخة. ربما أخصص الجمعة لغسيلها لو لم يطبق عليّ التراخي والكسل. نزلت أسفل الدش، وانحصر ذهني مع انهمار الماء على التفكير. وجهها، عيناها، والخجل الحي في ملامحها. ماذا حدث؟ ماذا بالحق جرى؟ ربما الأمر ليس بتلك الضخامة، تختفي؟ تختطف؟ ربما هي عند صديقة، عمة، خالة. قريب من جهة ما، لكن أوَ تترك أمها المريضة وحيدة؟ الأمر جلل حقًّا، وأنه برغمي لا يصدق. بعدما زالت رغاوي الصابون عن بدني، بللت الأرضية بنزولي. استعجلت الدخول فلم أجلب معي أي غيار، وذهبت إلى غرفة نومي مكشوف البدن. لكن عند الصوان توقفت لأراقب نظراته الصامتة الساخرة، لم يكن به أي ملابس جديدة إلا رب غيارين داخليين. التقطهما بغيظ وسترت بهما لحمي. وتحركت إلى خارج الغرفة معاودًا للحمام، أعدت ما وضعتها في سبت

الغسيل. نفضت القميص ثم ارتديته وبالمثل فعلت بالبنطلون. حقًا إنها أزمة الرجل العازب! وأنغصني هذه اللحظة ما سكن الثياب من عطن، ولا أدري كيف حدث بهذه السرعة أو لعله انتقال فوري من القديم من الملابس إلى الحديث. وبمروري مجددًا من غرفة نومي مشطت خصلاتي المبعثرة، وتعطرت بأي شيء قد يقتل العطن في مهده. وكنت بالفعل في عجلة من أمري، فخرجت إلى الرواق شديد التوتر تتفصد جبهتي بالعرق. وقفت أمام باب الشقة المجاورة فلم أجده مغلقًا بل مفتوحًا يكشف لي نواحي البيت. لكن لأجل اللياقة رننت جرس الباب، لكن لم تجب السيدة. عاودت هذا مرة أخرى فظل الأمر على حاله، ثم ضغطت الجرس طويلاً وقد ثبت إصبعي على الزر فكاد أن يغطس تمامًا بغير أن يقب. لكن أيضًا لم يبد أنه سمعني سامع، لذا تجرأت الدخول. تجولت في الصالة وناديت لكن ابتلع صمت المكان صوتي، ما جعلني أشعر ببيضة قلق تفقس. لذا توغلت أكثر، وبدأت اتسكع في أنحاء البيت، وأفتح الأبواب المغلقة من غرفة إلى غرفة. ليست هنا؟ وعند غرفة بعينها توقفت بغير أن أتجاوزها. بل إنني وجدت قدمي تستبق التفكير بالدخول. غرفة سلوى، وقفت فيها بحيرة وقد لفح وجهي الشذى المتروك عنها. وكانت الغرفة نظيفة مرتبة غير مهملة كما الزريبة التي تلاصقها بالشقة المجاورة. أما ما لفتني في الغرفة فهو المرسم الصغير الذي يقابل مكتب دراستها والذي كان أيضًا منظم الأدوات. سرت نحوه ودهشت بالرسمة الأخيرة التي تملأ صفحة دفتر الرسم. رسمة مازالت بالرصاص فقط لم تداخلها أية ألوان، ومررت يدي على صفحات

دفتر الرسم فوجدت عدد آخر من رسومات خلاقة رائعة التكوين مصممة بعناية وتفصيل. ذهلني مقدار الجمال في خطوط الرسم واستخدام الألوان أما لوحة الواجهة فهي الوحيدة التي لم تصبغ بألوان؛ أم لم تمهل لتصبغ؟ راح مصممها في سر غامض قبل ما ينهيها. ورأيت فيها وجه أعرفه. رأيت الشاب حاد الملامح غزير الخصلات يعلو حاجبه جرح داراه بلاصق. وكان يبتسم بإرهاف ويحمل على كتفه كاسيت عملاق يخلق في الكون من حوله عصافير من النوتات. تسبح الموسيقى تملأ مدى الصفحة. ما جعلني أتوقف الآن في هذه اللحظة أمامها، ولا أشاء التحرك. فليحترق الكون، لتضيع الحياة، وليبتلع النفوس السوداء ثقب أكثر حلكة.. إنني ههنا متيم. ماذا فعلت يا سلوى؟ إلى أين روحتِ؟ وشعرت كأنما أنا على وشك التحجر في مكاني، لولا أن انتبهت لصوت ما بالخارج. وعليه تحركت إلى خارج الغرفة، ثم لمحت عند خروجي غرفة بنهاية الطرقة. لفتني بها شيء لا أستوضحه. وكانت هي غرفة المعيشة، أول ما دخلتها لاحظت التلفاز دائر على فيلم قديم، نعم كان هو فيلم موعد غرام لعبد الحليم وفاتن حمامة. ورأيت العجوز جالسة إليه في جلسة غير منضبطة ولا تبدو مريحة. جو الغرفة كان مظلمًا، لا تضيئها غير شاشة التلفاز الرمادية وشذرات ضوء آتية من الصالة عبر الطرقة. كانت هيئة العجوز بادية إليّ، لاحظتها لكن بدا عليها شيء مريب. لم تكن ظاهرة بصورة واضحة فناديتها وتذكرت في ذلك مظهر الملابس التي كانت تفزعني أثناء نهوضي ليلاً أيام كنت أهملها على الكرسي في مسكننا القديم بشبرا، كان ينخلق عنها كيانات مروعة لا

أصل لوجودها. أما العجوز الآن فكانت تحت بصري غير ذلك، إنها حقيقية ولا تشابه يختلط عليّ. لذا تقدمت نحوها عدة خطوات مندفعة غير حذرة، ولمَ الحذر؟ حدسي أخبرني أنه كان يجب أن أفعل. وانعكس ضوء الشاشة الرمادي على وجهها، فامتصته عيناها الفارغة. الفارغة من كل شيء، من كل معنى للحياة. رأيت العجوز منحورة العنق، رأسها مائل للخلف يفصله تكة عن السقوط فتدحرج إلى الأرض حيث تمزق لحم عنقها بعنف شديد ما بتر الأوتار وكسر أجزاء بالغة من عظامها. وبدا أن مرتكب تلك الفعلة قد أخذته شهوة مجنونة في ذلك جاوزت حدود موت المرأة العاجزة نفسه والتي بدا أنها كانت أضعف من مقاومته. إلا أنه أطبق عليه الضجر والإرهاق من كثرة ذهابه وإيابه بالنصل الغائص في لحم العنق. وقد تمكن منه ضجره بأن تركها في النهاية على هذا الحال بغير أن يقدر على الإتمام بفصل الرأس. وقفت في مكاني عاجزًا، انصعقت لما أراه. توترت يدي ورأيت التشنج يسري بذراعيَّ، لفحتني برودة الموت المقيمة بالجو. وتمكن مني الهلع، فتراجعت، وخرجت من الطرقة مهلهلاً ما جعلني أتعثر في نهايتها. ونهضت من جديد، وركضت بذعر إلى شقتي. ولحظة أغلقت الباب من خلفي خارت قواي وانسحبت روحي فانزلقت بظهري في انهيار إلى الأرض خلف الباب.

٢٠

آتاني صوته المتدفق. يزحف بتأن، تعطله ثغرات أو حواف البلاط فيكب فيها. يملأها، يغرقها ويتخطاها. ويستمر في زحفه إليَّ، إليَّ وحدي. تسرب من أسفل الباب في خطوط مخلبية جارحة تجر نفسها. تخنت الخطوط، وامتلت بكثرة الإمداد. زاد فيها التدفق حتى أغرقها وفاض على سواحلها. مضى يغزو المكان، فيضان جارف غطى الأرضية حتى وصلني. وشعرت باللزوجة تلوث يدي اليسرى، تلمسها ثم تغطيها ذلك حين فتحت عيني لأرى سائلاً رماديًّا يحاصرني. هو الدم، لكن اللون زائل، اللون غير واقعي. لكن تبقى رائحته الفواحة حاضرة، ويبقى أثره الرهيب للنفس حاضر. هو الدم، وإن كان كل المكان من حولي، كل الشقة تحتفظ بألوانها إلا أنه وحده من بقى في حالة سلبية وسط كل ذلك. دماء تسيل، تكاد تغرقني، غمرت ذراعيَّ وغالب بنطالي. وفي لحظتي هذه أفقت منتفضًا. ارتعشت وأنا أرى السائل يحاوطني أنا وحدي، لم يعد يمضي في طريقه. ليس هدفه أن يغرق المكان بل أن يغرقني. وبدأ يتجعد ويموج حولي في زوبعة بطيئة. ارتفعت الدماء الرمادية فوق نعلي، غطت الحذاء واصلة إلى ساقي. إنه مستنقع دامي ويريد إغراقي. فتحت الباب بذعر أرجو الهروب، ليباغتني الذعر مضاعف ويفاجئني بالواقفة أمامي. هو الموت الذي رأيته في غرفة تزينها إضاءة فيلم

رومانسي، أبيض وأسود. رمادي الواقع. وكانت تقف أمامي العجوز على مقربة أشبار من وجهي منفصلة عن ألوان الواقع ينعكس على زاوية وجهها ناحية العين اليمنى ضوء أبيض شاحب وباقي الجسد غاطس في الرمادية. الرمادية في سائل الدم الذي غرق به الرواق كاملاً، وكانت العجوز تطالعني ورأيت في وجهها ذي الميلان القاسي لانحدار رأسها، أنها تبتسم. وكانت هناك حقيقة بسمتان. بسمة تبدو صافية على ثغرها، وبسمة أخرى أساريرها سوداء واسعة الانفراج، بسمة الموت في عنقها. اللعين ذبحها يسار إلى يمين، ليس من مقدمة العنق كأي ذبيحة يتقي الضمير في ذبحها. يتضح لي الأمر الآن. وكانت المسكينة باسمة، قالت كلمات لم أسمعها بصوت إنما اختلجت مقدمة رأسي في فهم ابنتي، أشعر بها في هذا المكان.. لم تزل حية! ويبدو أن الفتيلات التي كانت تضم الرأس إلى العنق صمدت بما يكفي، فذابت تحت وطأة الثقل وانحلت الرأس تلك اللحظة تحت عينيّ مرتطمة بالسطح السائل غارقة فيه بلطمة جعلته يهيج وتنهمر قطراته حول الفجوة التي صنعها الرأس. ولثانيتين وقفت غير مستوعب قبل أن أسمع لطمة أخرى عن الجسد خلفي بالسطح السائل إلا أنني لم أمهل لأنظر، فحين التفت فُتحت عيناي على دنيا الواقع. ورأيت أنني لازلت في مكاني على الأرض مستند الظهر إلى الباب، وقبل أن أفكر فيما سأفعل أو أسترجع ما رأيت سمعت شيئًا يندق فوق رأسي. كان صوت ارتطام عنيف يأتي من الطابق الأعلى. وما دريت ما السبب أو الحافز. ونظرت لهيئتي هذه اللحظة فوجدت أنني واقف، متحفز للخروج. فتحت الباب، وزفرت نفسًا

ثقيلاً عن صدري ثم تحركت إلى زاوية درجات السلم. كم الساعة الآن؟ لا أعلم بالدقة، لكنني أدري أنه وقت متوغل في قلب الليل. صعدت بخفة على الدرجات وكانت الإضاءة في هذا الحين متذبذبة في كل الرواق، إلا أنني وقت نظرت فيه رأيت باب الشقة بالمنتصف مفتوحًا. شعرت بنذير في نفسي، شعرت بالخطر. وإنه لا تأتي المصائب فرادى، إنني أعرف هذا. وإنني يمكنني التفرقة الآن بين صدمة الحلم وحقيقة الواقع. والواقع أنني أرى الآن أن هنالك شر حاضر في هذه اللحظة، في هذا المكان. ارتبكت خطواتي ورجعت إلى الوراء وسارعت على عقبيَّ حين رأيت ثمانية أبراص لونها كريه لكن عادية تخرج في المقدمة من الباب، الباب الذي لولا أنه صفق بشدة في فتحه ما كنت أنا هنا الآن في هذه الساعة. الأمور تجري مسرعة ولا أكاد أمسك أي خيط. ثم فجأة وأنا أقف على درجات السلم متواريًا خلف جداره الأيمن أترقب، شهدت سرب منهم يتبع سابقيه على الأرضية يتحرك. رقص الضوء رقصة العمى. ثم رأيت وسط الإضاءة التي تجيء وتذهب شابًا ربما يصغرني بأعوام قليلة، هو ساكن هذه الشقة. رأيته يخرج بترنح وسط السرب. كانت تحط قدماه بلا اتزان على الأرض فيستدرك السرب بسرعة وتنظيم ويتركون فجوة لمحط خطواته. وكان كأنما هو تائه يتحرك بلا وعي بينهم. رأيت رأسه عالق وسط هالة لا أميز لها لونًا ولا يتركني تذبذب الضوء العنيف أن أميز. لكنني رأيت عينيه، ورأيت الغيمة البيضاء المشوهة قابعة هناك تغلف كل مقلة. لم يكن يرى. كان ينساق بلا دراية، تقوده قدرة ما. وفرشت الأبراص الأرضية في قدوم نحو جهتي. ما

جعلني أتراجع بسرعة إلى موقعي الأول. نزلت إلى الطابق الثالث، تخفيت وراء السلم إلى الجدار الأيمن متسارع النبض، لا يهدأ الدق بين أضلاعي. وحين تلصصت البصر متوقع نزولهم إليّ، وجدتهم على دربهم يبدؤون بصعود درجات الطابق الخامس. زحف السرب إلى وجهة يعرفها، وفجوات الأقدام المخدرة تفرقهم كل حين وحين. يصعد بينهم مجبرًا على وجهة ما. وكان واصل إلى قلبي حينئذ نصلين، نصل الخوف ونصل الفضول. انتظرت بصبر نافد وخوف مدقع. وحين انجلوا تمامًا عن السلم صعدت الدرجات متتبعًا لهم بحذر. إنهم يختطفونه، قال حدسي ولم يخطئ. إنني أتتبعهم مرة أخرى. هذا ليس حلم، نذيري الذي لا يخطئ يؤكد ليّ، لكنه يظل واقعًا لا يسهل تصديقه. بدأت أرتقي سلالم الطابق الخامس، وكان نذيري يرتفع، يرتفع مؤشره إلى علامة حمراء متوهجة. وانتفضت في ذات اللحظة وأنا بالرواق حين حطت قدمي على برص متأخر ودهس تحت نعلي. لأكن أكثر حذرًا، لأكن منتبهًا هذا أمر يستأهل كل جدية! وتلصصت على سلالم السادس فوجدتها تخلو. وارتقيت إثر ذلك بلا عجل وبتوتر شديد. أحسست بألم في عينيّ لكنني تحملته، الإضاءة يصبح تذبذبها حادًّا مؤذيًا. لكنني مستمر، إنهم جحافل تُسيّر الرجل، ويتقزز لهم بدني. إنه يسري بينهم كـ. كدمية ماريونيت! وخاطر مفاجئ ارتطم بجدار عقلي. لمَ أنظر له؟ لمَ أنظر للأبراص اللعينة! لمَ لم أنظر إلى المسيطر الحقيقي؟ المستعبد الذي يسوقه بالطوق! وكانوا في الطابق السادس توطئة للجهة التي ربما عرفتها منذ البداية بغير تأكد، الطوابق المحظورة. سيصعدون الطابق السابع،

وعند هذا رميت عيني على السقف وأبقيت البصر هناك متحديًا رقصات الضوء. أذكر المظهر الذي كانت تبدو عليه روزماري حين كشفت غطاء المهد عن وليدها، أذكر المدى المروع الذي خلق في تعابيرها وشدة انبثاق عينيها من محجريهما. تلك المهابة التي روعتني في ذلك المشهد من إخراج رومان بولانسكي، أشعر بها الآن، أشعر بانبثاق عينيَّ من محجريهما وأرى، أرى في نفسي مدى الهلع الذي قبضني في يد صقيعية وأنا أرى الذيل الضخم لواحد منهم، لكن حجمه يقاربني ويفوقهم. أراه فوق رأس ضحيته يرقص على السقف. وعند هذه اللحظة ذاب فضولي وانكمش، هزني الخوف ولم أشأ تبين الطبيعية الكاملة لذاك المخلوق. تراجعت، ولم يكن بي أي تعقل أو اتزان تمكن مني الهلع فجريت أنزل درجات السلم. ولم أتوقف حتى عند شقتي لألوذ بها، بل تفاجأت بأنني قد تجاوزتها إلى الشقة المجاورة والتي كان بابها لم يزل مفتوحًا منذ تركتها. وقفت عندها، هنا تبدأ الخرافة أو يثبت اليقين. إن المرأة بالداخل مقتولة لم يكتشفها أحد بعد. دخلت الشقة، وتحركت في الطرقة المؤدية إلى غرفة المعيشة. وعند الأريكة التي حسبت أنها ستفتت كل تشكك عندي، كل مرض يبطنه عقلي ويتهمني به. الهلاوس والأحلام والكوابيس التي لا أصل لها. لم تكن المرأة موجودة بالمكان! لكن هذا لم ينف حقيقة أنها كانت قتيلة هنا. الدماء التي وضحت حمراء الآن تقتم شيئًا فشيئًا تحت إضاءة التلفاز والذي كان يعرض فيلمًا ملونًا هذه المرة. أرى الحقيقة بأم عيني الآن في الدم الذي يغرق الأريكة والأرضية. لكن لمَ اختفى الجثمان؟ أم ترى عاد القاتل

لينظف مكان جريمته؟ ينظف؟ أهو مازال عائدًا إذن؟! وإنني ليربكني التفكير بين ما حدث هنا وبالأعلى.

رجعت إلى غرفة سلوى، وهناك عند المرسم وقفت أطالع وجهي في دفترها. وبرغم إرهاقي وتعب بالي ابتسمت. وقبضت بيدي لحم راحتي.

٢١

ومض التبغ في يدي، إنني أشتعل وينكبس صدري بالدخان. نظرت إلى السيجارة التي بدأت تزوي نارها في رحيل خافت، ثم مججت منها حتى لسعت شفتي العلوى. احترقت كل السيجارة، ولازال ذهني مشتعلاً. الأفكار تكبس على بعضها البعض، تتلاحم وتتسارع. وإنني خائف مرتبك. راح تفكيري إلى سلوى، أحسب أنها لو موجودة معي الآن ما عارضت فكرة تدخيني. أو ربما كانت ستكره قليلاً شراهتي فيه. لكنها تبقى بها عقل إن غض النظر عن ما بها من سذاجة أجد أنها لن تكون متخلفة كبعضهن، واللائي ما إن يرون من قد يشاركهن هذه الحياة الدنيا أو ربما حتى لو الاحتمالية أقل من واحد بالمائة أنه قد يصير، تجدنهم يتحفزن ويبرزن المخالب والأنياب. لا تدخن! ألا تدري أنه شيء قاتل.. مضر بالصحة.. يزهق المال والروح... يقتل الأطفال في أفغانستان ويجعل أمريكا تغتصب فيتنام! ويدورون في حلقة مفرغة قاتلة في إذاعة نشرة وزارة الصحة المكتوبة على جدار العلبة. أحسب أنها لن تكون كذلك أو أتمنى، بدني قد تسمم بما يكفي. وليتها كانت علاقات صحية تلك التي دخلتها. الأمر لا يعقل، أقولها بمنتهى الجدية؛ أن تهدد المصري بترك التدخين فإنك بذلك تقوده لانفجار حتمي فكيف بظنك سينفس عن غيظه إن كان سيقمع في كل الأحوال. وها هو شيء بنفسي يهدأ وينطفئ

مع زيادة احتمالية أنه لم يصبها أذى. لكنني أخشى حقًّا أن أخدع بالتفاؤل.

أقف الآن وراء باب شقتي، لا أدري كم من الوقت مضى على وقفتي هذه. مر الكثير على ما أدري، أرى أن ضوء النهار يتسلل إلى حيث موضعي. ما شهدته في ليلتي الفائتة لن يقرب النوم مني لأيام قادمة. فكرت أنني لابد وأن أبلغ الشرطة، لكن تفكيري راح للجثة المختفية. الأم وفتاتها، اختفاء لا أفهمه. وفكرت أن المجرم بفعلته الثانية تلك وإخفائه لأمر الجثة لابد أن له خطة ما، يضمر بنفسه شر آخر. حيرة يخلقها في مسرح الجريمة. أخذ الجثة يخفيها بينما كنت في صدمتي نائمًا، لكن الوقت لم يسعفه ليستكمل ما أحسب أنها خطته. إخفاء أي أثر للجريمة، أي أثر قد يزعم به أحد أنه كانت هنالك هنا جريمة من الأساس. تفكير اعتباطي، ربما لا يبدو به أي قدر من منطق، لكنني ملت له. ولا أحب أن أذهب لقسم الشرطة فأعود لأجد المكان على غير ما تركته. لأبدو بموقف لن يمكنني توضيحه. إنه لابد عائد، أو هذا ما يقنعني به حدسي. لكنه على الرغم لا يبدو في الأمر أي عقلانية. ماذا سيحدث لو عاد فعلاً ؟ ما الذي يمكنني أن أفعله؟ هل سأتمكن من صده والقبض عليه؟ لا أعرف، لكنني أدري كم أنا حاقد عليه. سأنتظر قليل من الوقت حتى ينشط الصباح ويتيقظ الناس فتفوته الفرصة. حينذاك أتصرف على هذا الأساس. أبلغ الشرطة، أتبع العقلانية. العقلانية؟ أي عقلانية في ما رأيته بالطابق الأعلى، ساكن تلك الشقة أين هو الآخر ذهب؟ أين أخذ! الذي رأيته، الأبراص والزاحف على السقف، ماذا سيظن بي لو

رويت على أحد هذا؟ حدثان يطعنان بعنف منطق التفكير عندي. جريمة أقسى من أن تكون واقعية، مرتكبها آدمي. وحدث آخر لا معنى له، لا تفسير بجعبتي في شأنه. وإنني لأموت وأتهم نفسي بالتخريف لكن هذا أيضًا غير منطقي. فمنذ متى أدمنت على عقاقير للهلوسة وتنشيط الخيال؟ إن كنا لا نصنف القراءة والتدخين على هذا الأساس فلا شك في براءتي. وإن هذا أيضًا لا ينفي غيظي!

وفجأة لطم بالي خاطر ما. نظرت للرواق للحظتين أتأكد منه أنه سيبقى على حاله ريثما أعود. وتحركت بعجل وخفة إلى غرفة نومي. رفعت حاشية الفراش من يمين المؤخرة، ثم مدت يدي وجذبت الدفتر البني وعدت به لمكاني جوار الباب. لا أحسب أن فيه أي فائدة ما، منذ أخذته مجازفًا بعاقبة أن تحسبني مالكة هذه العمارة متلصصًا منحرفًا أو تطردني على ذلك حتى. لكن تبقى فيه بضع ورقات سليمة، أجزاء متجعدة بشدة، أخرى ممزقة، كلمات متناثرة. كل هذا ينبض له شيء بنفسي بأنه قد يخبرني شيئًا أجهله. يوضح لي النقاط السوداء في تفكيري. أو ربما هي مجرد مذكرات امرأة تعيسة وأنا متلصص منحرف.

١٧ يوليو ١٩٦٥م

ميعاد لم أحسبه مع جنين ميت، حزنت هي لفراقه ولعلي حسبت أن مع لعنتها قد صاب مشاعرها تبلد إلا أنه تبقى اللعنة حية، أشد إيلامًا مع بقاء المشاعر.. ظلت تحب ذلك الشيء.. أحبته لأنه منهـ.... *تمزييق*

صفحات كاملة بعد جزء الصفحة هذا ممزقة ثم

٢٣ يوليو ١٩٦٥م

إنها لم تتحدث إليَّ أبدًا في يوم من الأيام، لكن دائمًا صوتها في رأسي حاضر. في صغري، وبرغم الأبواب المغلقة التي كانت تفصلني عنها إلا أنها كانت تظل تتحدث إليَّ توصل إليَّ حبها، شفقتها. وإن كان جدي يتشكك فيَّ فهي ظلت واثقة مني. مهما أبقاها حبيسة، مهما فصلها عني تظل تحدثني. أما هذه الأيام فهي جريحة جدًا، يُوقظني صراخها، يفزعني حزنها، اثنان آخران ماتا. الرجل الذي جئتها به كان ضعيفًا عاجزًا، لم يتحمل إلا أيامًا معدودات، لم يتحمل نهمها. إنها تحتاج المزيد والمزيد، واحد في كل مرة لا يكفي.

تمزيق..

تمزيق...

تمزيق....

تمزيق.....

تمزيق.....

تمزيق..........

١٢ أغسطس ١٩٦٥م

هذا ليس حبًّا، ليس الحب الذي أوده. هذا استعباد، ما فعلته من أجلها قديمًا لم يكن ليكفي بل إنها تحتاج أن تحملني أوزارًا أخرى، فقط لأنني ولدت بهيئتي الطبيعية! ولأنني منها فهي لا تتركني لحالي، يأتي إلى بالي في أحيان متفرقة التفكير بالهروب. عمري يذبل في خدمتها، إنني أدين لها أنها ظلت معي تحتضن نفسي طوال فترة طفولتي الباردة. لكن ألم ينقض الدين بعد؟ إلى متى أظل أفعل ما أفعل فقط لأرضيها وإنها أبدًا لا ترضى *تجعيد ثقيل لا يجعلني أميز كلمات كثيرة بهذه الصفحة وإن كانت تبقى كاملة إلى حد ما* تزداد شرهًا يومًا بعد يوم، وما أقدمه لها لا يكفي.. الرحم يحتاج غذاء مستمرًا، سيل تغذية متدفق لا ينتهي.

تمزيق.

تمزيق..

تمزيق...

بلا تاريخ زمني

معدل الإنجاب صار به انضباط، يصلني شعورها بالرضا. أو هذا ما حسبته، الأمر الذي جعلني أتهور بفعلتي. لم أفكر أنها تريدني في خدمتها على طول الوقت. فكرت أنها الآن تنعم بلحظات استقرار، وماذا يضير أن أتمتع أنا أيضًا بلحظات نقاهة؟ أرفه عن نفسي. أتذكر أنني فتاة. أعيش حياة طبيعية ولو حتى لدقائق معدودة. جعلني هذا أتهور. أغراني ميلي لهذا التفكير

بالتهور لم أدر ما ستفعل.. لم أدر ما ستفعل.. والله لم أدر ما ستفعل.. أنا غبية.. أنا غبية.. أنا.. آسفة! كان شابًّا طيبًا، يجمعنا عمر واحد تقريبـًا، ولأنه هو جاري بنفس الحي فلم يفته ملاحظتي. كنت ألاحظه يتحرق شوقـًا لرؤيتي حين أخرج صدفة. ثم لمّا استدل على العنوان الأكيد لبيتي بدأ يرسل لي الخطابات تلو الخطابات، وكم كان لطيف الشِّعر رقيق الكلمات. أحببته بغير أن أسمع صوته حتى، ثم جاءت فترة التهور حين قرر زيارتي في بيتي، ربما بعدما تأكد من أنني وحيدة. وعلى الباب تفاجأت به متحرجـًا مرتبكـًا، حينذاك لم أشأ صده.

في ليلتي هذه، استيقظت ولم أجده جواري بالفراش.. بل وجدتهم هم يملؤون كل الغرفة.. أشياؤها اللعينة أخذته مني للأبد.. للأبد.

فقرات غير مكملة وسياقها غير محدد، هذا ما ألتقطه وبرغم عدم استيضاحي لأمور كثيرة إلا أنني أشعر بشيء مريب قد بدأ يزحف على جلدي.

٢٥ فبراير ١٩٧٦م

تصادف أن أجدك مرة أخرى أيتها الكلمات العزيزة، كلماتي، منذ ما حدث مع الرجل الذي أحببته وقد صرت خاضعة لها تمامًا وكم كرهت نفسي لذلك. لكنه الخوف. لكنه الخوف.. وإنني راكعة أمامه، وإن كانت هي لا تتحرك أو تنطق إلا أن الهواء الرهيب الذي تسكنه في حيز هذا الكون اللانهائي يفزعني. وليس

الخوف وحده ما يربطني بها. إنني معه أظل أحبها، لكنني أكره ألا تحسبني سوى خادمتها. لكن ماذا أقول؟ حين أخذت مني الحب الوحيد الذي عرفته بحياتي غضبت وسخطت، لكنها احتوت ذلك ولأول مرة ترد على سؤالي. كيف أكون هكذا؟ من أنا؟ لمَ لست مثلهم؟ وأرتني، تلك الليلة بالذات أرتني. أرتني الحقيقة القاسية التي جعلت جدي يموت حسرة، وعرفت معنى تلك النظرة في عينيه حينما كان ينظر لي. نظرة احتضار، لم يحتقرني بل إنما هي الحسرة هو التيه الذي جعله في بداية مراهقتي ينحر نفسه بشفرة ليتعذب للحظات أخيرة على أرضية الحمام قبل أن يموت. وكيف كانت تتسلل له هو، هو الوحيد الذي كان في متناول يدها. الذي نبذ نفسه عن العالم لخاطر أمها ثم لخاطر الشيء المريع الذي خرج من بطنها. عاش منبوذًا عن كل معاني الحياة، ونسي بكل الأشكال أنه يكون من الأحياء. وكان هو حارس زنزانتها الذي لا يغيب ولا يكل عن حماية الناس من شرها. لكنه غفل حماية نفسه منها، هو الوحيد الذي كان في متناول يدها. هو الغذاء الذي اعتمدت عليه بغير أن يدري، تسللت إلى أفكاره وتغذت على عقله. تلك الحقيقة المرة التي جعلتني أنفض هذه المذكرات عني ولا أعاودها إلا الآن بعد كل هذه السنوات..

انقطعت عن القراءة إذ سمعت الهسيس الكهربائي المنفر. رفعت رأسي عن الدفتر فوجدت الكائن البغيض يطل إليّ. تلك اللحظة انتفض الدم في عروقي ليتفجر في قلبي بنبض عنيف هزني في مكاني واضطربت له. وصمت البرص عن نَّقيضه يتابعني بعينيه. كان هادئًا

مسالمًا، لكن هذا لم يساهم إلا في جعل بدني يقشعر. وشعرت بغيظ رهيب يتفاقم إلى فمي، لكنني حافظت على انفعالي منضبطًا وفكرت أول ما فكرت بالنفثالين الذي أهداه لي حمودة. أنزلت عينيّ عنه وتظاهرت بعدم ملاحظته، ثم تحركت إلى غرفة المعيشة وبطرف عيني رأيت أنه لازال ساكنًا بمكانه. ترك حمودة العبوتين بجوار سيقان المقعد الذي جلس فيه وقتذاك. وهناك وجدتهما لم يتزحزحا من مكانهما وكنت قد غفلت عنهما تمامًا. التقطت واحدة بهمة، وبعجل عدت إلى مدخل الشقة، وهناك حيث الموضع الذي كان به البرص وجدت أن اللئيم قد فر واختفى. زفرت بضيق ثم جلست إلى جوار الباب من جديد وتركت عبوة النفثالين إلى جانبي. لأعاود القراءة من حيث توقفت. وأشعر الآن وأنا أكتب هذه الكلمات متنفسي الوحيد أنني أطعن الورقة، بغيظ وكره وحزن وخوف أتكلم مع نفسي في هذه الأوراق. وأتذكر ما أرتني إياه في حلم ليس بحلم، وكيف عرفت هي ماذا تريد. ما هي غايتها النهائية والتي ستجعلني أخدمها فيما بعد لأجلها. لم يتوقع هو ما فعلته، جعلته حبيس عقله. ووقت أنجبتني كانت الطعنة الأولى التي صابته في مسار احتضاره. أما هي فلم تتوقع أن ينجَب عن هذا النسل الملعون كائن بهكذا مثالية منذ تم لعن أمها بسر شيطاني وقت فارقت قبيلتها التي لم ترحم حبها..

تبقى صفحات ممزقة بعد هذه، بها أجزاء من حروف وكلمات، لكنها في النهاية بلا جدوى. كل ما قرأته عبارة عن فقرات غير مكتملة سياقها مجزأ أو بلا سياق تقريبًا، للحظة أو اثنتين فهمت ما

بالأمر لكن سرعان ما طار عن بالي الاستيعاب ومعه ذاب أي فهم. لم أدر أن الوقت مر عليَّ بمنتهى هذه الخفة، لم ألحظ مرور أي أحد بالرواق حتى. وكانت زاوية الشمس في انحدار نحو الغروب هذا ما وضح من مسار الظل المنبسط عن أشعتها إلى مكاني. ضاع مني نصف النهار بينما أنا جالس هنا أقلب هذه الفقرات مرة تلو مرة تلو أخرى بلا جدوى حقيقية. لذلك لا أرى الآن إلا أن أنهض وأبلغ الشرطة وليكن ما يكون. لكنني لن أتحرك بغير أن يكون معي شاهد. وارتاح بالي لهذا الخاطر. ثم نهضت أتحرك على هذا الأساس لشقة حمودة الباز.

٢٢

لطمني الهدوء الحاضر في الرواق حين فتحت الباب. الأضواء مستقرة بريئة. لكنني أتصور أن مظهري هو مصدر الشذوذ الوحيد في جو المكان. لا خطر هنالك. وكأنه لا يوجد طيف لامرأة شبه مفصولة الرأس على بعد أمتار قليلة. مضيت أتحرك إلى نهاية الرواق، ولمّا عبرت عند باب الشقة المجاورة وجدت الباب على حاله. الحال الذي جعلته عليه. لا مغلقًا ولا مفتوحًا، مواربًا كأول مرة وجدته. حتى إذا عاد لا يشك في شيء، وليته نفع الأمر. انتفخ صدري بهواء جاف، نفخته في التو وتابعت المشي نحو شقة حمودة. طرقت الباب بخفة وانتظرت قليلاً. لم أسمع صوت أقدام آتية ولا صرير باب بالداخل يفتح. طرقت مرة ثانية وانتظرت. لكن مثل المرة الأولى. كدت أفعلها للمرة الثالثة ثم لطم بالي شيء حاد، هو تساؤل. من يطرق الأبواب في هذه الأيام؟ صحيح، من يفعل. هرست زر الجرس تحت إصبعي في ضغطة طويلة مستمرة. لكن لا نتيجة مختلفة. لا أحد بالشقة. تراجعت مخذولاً. وفكرت فيما سأفعل جديًّا، وعليه نكست رأسي في الأرض أفكر في طريق عودتي إلى شقتي. وحينما مررت جوار الشقة إياها استُوقفت. نظرت بهلع حقيقي للباب الموارب وشعرت فيه بانفراجة أكثر بقليل أم هي أقل بقليل؟ يا لعقلي الذي يتوه! أوصل بي الاضطراب لهذا الحد من الوسواس؟ فلأمضِ

في طريقي، فلأعود لشقتي وحسب. وأظنني كنت سأفعل. إلا أنني أدركت مصدر الريبة. لم يكن للأمر علاقة بمدى انفراج الباب بل بالظل الذي سكن حيز الفرجة وأوهمني الاختلاف. وقد لمحت حركته الخاطفة وميزت الاختلاف في تدرج لون العتمة. وفي تو اللحظة تسمرت في مكاني إثر سماعي لحركة بالداخل!

دفعت الباب بيدي وأطللت بعيني للداخل. لا شيء. لا شيء أراه. بل شعور، تيار مقبض اندفع إلى حيث موقعي. صار المكان أكثر وحشة منذ آخر مرة كنت به. الخوف وليد اللحظة. ما كان بالأمس هو تشوش حجبني عنه. حقًّا هل هذا صحيح؟ أم أن بالنهار وقتًا ينكشف الوضوح يصير الخوف أشد قسوة. النهار موطن الخوف الحقيقي، موطن الغموض المكشوف. فكيف تحدد تفاصيل السواد في واقع يزهو بالوميض. ما كان بالليل هو مجرد قلق خجول. القلق الثقيل المؤذي هو ما جثم على صدري الآن وأبطأ تداخل الأنفاس إلى رئتيَّ. وكانتا قدماي لا تزالا عالقتين بالخارج. إلا أنني أزفر ما سد مجرى التنفس. أحرك قدميَّ وأدخل الشقة. بدا الوضع هادئًا يعكس جو الرواق وإنارته الصفراء. ربما فأر، قطة، حيوان متسلل؟ الحركة كانت مبهمة لم أستطع تحديد ما هي بالأصل. لكنني هنا ودخلت، فلابد أن أعلم وأحدد. اقتادني الصوت في رأسي إلى الجهة إياها من جديد. ولماذا أروح غيرها؟ هي بداية انكشاف الشر. أمشي في الطرقة بهدوء وخطى حثيثة لا ترتفع عن الأرض. وتصلبت من جديد، ورأيت الظل المعكوس في نهاية الطرقة على حائطها الأيمن! أهذا ذيل؟ كان له ظل ضخم وظهر مترجرج، زاوية رأسه في انحدار تعكس حال

الوجه المدبب. بل شديد الاستدقاق. الظل فيه نشاط، كأنما هو لفأر يحفر نفقًا بهمة. ويرتفع من خلفه جزؤه المرن في انتصاب حلزوني. الذيل. أمضغ ريقي، بصعوبة أفعل. وأجبر قدميَّ على المتابعة. وبمجرد دخولي الغرفة، تفاجأت برؤية من استدرك وجودي في التو. نظر خلفه، ورمقت المفارش التي يهلها في يده والتي كومها من خلفه. المفارش المشبعة بسائل الموت الأثير.

- "توكل.. أنت!"

منحني تعابير بريئة على بسمة صافية: "ليس الأمر كما تظن.. أنا فقط هنا للتنظيف" وبرغم أنه لم يبد الكيان الذي تصورته، وكانت لملامحه تفاصيل إنسانية في عينيّ إلا أنه توترت ساقاي، وهممت بالتراجع. إلا أن التعابير الصافية تكدرت، ونظرني غريمي بحقد وكره. وبسرعة خاطفة. بالحق شديدة، تحرك إلى مكاني ولكمني في صدري فبخ منه الهواء. واندفعت بحدة للوراء. وكان للألم طعنة حامية. كدت أن أسقط لكنني استبسلت في الوقوف وخرجت زاحفـًا بعيدًا عنه من الغرفة. إلا أنه تبعني، وشاط ساقي فارتفعت الأرض لترتطم بوجهي.

- "ما كان عليك أن تأتي هنا يا أستاذ كمال"

الرجل به عنفوان شديد. طاقة يستحيل أن تكون بمن هو في سنه.. بمن هو إنسان! وانفجرت كليتي اليسرى تحت ثقل ركلة مباغتة، فهاج الدم إلى فمي وقد احترقت له حنجرتي وكل حلقي.

- "لا تحب أمي هذا، لا تحبه أبدًا.. أبدًا!" يختلج صوته من خلف أذني بتوتر وهو يقول: "لا تحبكم بهذه الحال.. فرائسها لا يجب أن تتسمم أبدنتها!"

أي شيء، أي شيء يخلصني من هذا اللعين. التفت له: "ماذا تكون؟"

وانفرج ثغره في بسمة: "خلق أعظم منكم!" تلك هي الفرصة. قفزت وراء قبضة يدي، وصابت اللكمة رقبته. فتحشرج متراجعًا للخلف على وقع المفاجأة. تجاهلت التصدع العنيف برأسي، والألم المستشد بكل وجهي واندفعت إلى خارج الشقة. إلا أنه لحقني عند باب الشقة وشاط ظهري فاندفعت بلا سيطرة إلى الخارج تجاه الجدار المقابل. وقبل أن تتهشم جمجمتي تحركت يدي اليمنى بعفوية وعجل لتأخذ الضربة عني. ثم ردت في الجدار، ليلتوي ساعدي ويصرخ الألم على لساني. لكنني ما زلت مصرًا. مصرٌ على النجاة، وتحركت مخطوف الأنفاس إلى حيث شقتي. عيناي تغشى من الألم والدم النازف من أنفي يرسم طريقي. كنت أسمع خطواته المتأنية تترصدني، إنه خلفي وواثق أنه انتهى أمري. وشيء بنفسي لا يقدر مجادلته بل إنني أميل لتصديقه. هنا تتحتم نهايتي. هاج الخوف في دمي فاندفعت تحت وطأته على باب شقتي. ولصدمته تعثرت. وانفتح الباب لأسقط بالداخل. وكنت أحمل ذراعي الأيمن إلى صدري فلم أجازف أن تصيبه ضربة أخرى. وفضلت أن آخذ الوقعة على كتفي. سقطت بالأرض وقد تبخرت كل آمالي. ثم أتاني

وقع أقدامه، أم أن تلك نبضات قلبي. ثم رأيت قدميه الحافيتين تتقدمان إلى الداخل. موت محتم، هو ما أطل إليه الآن. اقترب من موضعي، وتصاعد التشنج على صدري. هل أغمض عينيَّ الآن وأصمت كي لا يتضاعف الألم عذابًا؟ أموت بصمت وتخفت الضجة التي خلقتها بالحياة من يوم ميلادي. وإنني كنت وحيدًا، وحيدًا للغاية. وإنني أرى الدنيا تسودُّ. الألم ينبض. الخوف ينبض. أصابع باردة تزحف على جسدي، وبالأركان في الأرجاء أرى ظلالاً تتشكل. كلهم يراقبونني. كلهم جزء من كيان واحد، الموت. أغمض عينيَّ الآن، فلأفعـ.. لكن ماذا لو لي فرصة ما؟ لو ضئيلة أفضل من منعدمة! هذه اللحظة بالذات لمحت بطرف عيني عبوة النفثالين. وبغير تمهل التقطها ونفشتها في وجهه ليتطاير المسحوق ويغزو عينيه ويغمره!

جرجرت قدميَّ للوراء، توطئة للحركة التالية. النهوض وإيجاد ما يمكنني الدفاع به عن نفسي. إلا أنني تحجرت في مكاني دهشة وقت وقعت عينيَّ عليه. فتأجلت خطتي السابقة على إثر نتائج خارقة للتوقع لفعلتي. رأيت وجهه وقد استشرت فيه خطوط قصيرة متفرقة، هي ديدان حمراء ملتهبة. وضع يديه على وجهه، وكانت بالجلد عليهما حمرة مشابهة إلا أنها أكثر وضوحًا. ليست ديدان بل تمزقًا! ثم انتابته حالة مجنونة عصبية. راح فيها يمزق الثياب على جسده. وكان الاحمرار متوهجًا في كامل جزعه. تفتقات هنا وهناك. جلد السطح يجف ويموت. الجلد الداخلي متوهج نازف. رفع يديه عن وجهه فرأيت عينين غارقتين في السواد. عدستان داخل

بعضهما بكل عين، عدسة صغرى ظلامها يخلق انعكاسًا ولمعة، ومحيطها الخارجي للعدسة الكبرى باهت شاف للضوء. ثم انخلق الذعر الحقيقي في مواطن نفسي كلٌ في وقت واحد، حين رأيت ما رأيت. نتوء لحمي يبرز في نمو عجول كأنه يهرب من جسده أو يتخذ نفسه كآلية دفاعية ما تحفزت في أوان فائت تحت ضغط اختلال أنظمة جسده. وبرز النتوء وتضخم من الموطن بنهاية جزعه وتحت عيني رأيت تسلسل العمود الفقري يتغير، يطول ويبرز من أسفل الجلد ثم.. يتداخل مع جزء اللحم الناتئ، والذي انفرد على وقع حدوث هذا إلى طول ذراعين كاملين!

لن أنتظر، لن أفعل. لست بذلك القدر من البلاهة! ركضت إلى المطبخ، وهناك ارتعشت يدي على رؤية السكاكين فوق حوض المغسلة. لا حل آخر! أما أنا، أو ذاك الشيء المريع. وانتقيت الأضخم من بينهم. ثم إذ تبينت حدة النصل حتى انطلقت إليه.

كان مازال على حاله، يحترق وقد ثارت عليه خلايا جسده. يرقص باختلال بتفاوت الألم. وتقدمت إليه انتفض بالرجفة. ثم على مقربة خطوتين منه رفع عينيه التي يقبع بهما فضاء الكون الموحش نحوي. وانطلق النصل إلى صدره. كدت اختل في موقفي لما تبينت أن الضربة ليست بالحدة المطلوبة. وقبل أن يهجم عليَّ ويردني عنه، أثقلت يدي المصابة مع اليد السليمة ونزعت السكين لأكرر الفعلة بشدة أكثر بجرأة أكثر. وغاص النصل في اللحم، وتفجر السائل الأحمر المقيت على وجهي وملابسي. وتمكن مني الجنون، نسيت الألم في

ساعدي وعاودت النزع والطعن. مرة. اثنتين. خمس. ثمان. في أنحاء متفرقة بكل جسده، بطنه وصدره ويده التي حاول صدي بها وذراعه. انشق اللحم في بروز النصل. وملأت الطعنات ذهني في تصورات عقلية لا رؤية لواقع الأمر الجاري. وسقط المسخ على الأرض وكنت منكبًّا عليه، يعتريني هلع وذعر ولا أكف. وكان نصل السكين غارقًا في لحم عنقه حين سمعت وقع الأقدام بالرواق. رفعت رأسي فرأيت أن أحدهم يقف عند الباب.

٢٣

سمعته يتقدم نحوي. كان بي خور وضعف، رأيت قدميه في بنطال فضفاض ولما رفعت رأسي نحوه وقد شددت على النصل في محاولة لجذبه والتحفز. إلا أن أناملي ارتخت تحت تأثير الألم والمفاجأة. كان هو حمودة، ينظر إلى بقعتي بذهول. وقال: "كمال.. ماذا فعلت؟!"

بح الصوت في حلقي حين وددت الحديث، وحين انتظم تنفسي نطقت بشكل لائق: "ما أي إنسان كان سيفعله!" وأردفت: "ألا ترى ما أراه؟"

وحطت عيناه على الجثمان، ثم اندفعتا مبتعدتين. ومضغ ريقًا ثم حاول النطق: "كمال.." إلا أنه قاطعه صوت حركة بالخارج لشخص ما يصعد الدرج. فتحرك بسرعة، وأغلق الباب. ووقف يستند عليه، كأنما ليصد أي شخص قد ينوي الاقتحام. وكنت أنظر في شخوص عينيّ القتيل، ظلام العدسة الداخلية وشحوب الخارجية قليلة الكثافة. ثقبين في الوجه لغور لا قرار له. وقال صوتي المرهق: "ما هذا الكائن؟"

فنطق حمودة: "لا يهم.. المهم الآن ما ستفعله"

- "ما سأفعله؟ سأبلغ الشرطة بالطبع! حمودة هناك شيء غير طبيعي يحدث بهذا المكان.. سلوى مختفية، أمها من سعت للبحث عنها قتلت بطريقة مريضة بشعة.. قتلها هذا الشيء، وكاد أن يقتلني أنا الآخر!"

بدا أن الرجل في صدمة، خاو لا يدري ما يقول. كأنما يتسرب منه كل تعبير، ويفرغ المعنى من نظراته. ونطق بصوت لاهث: "لا.." إلا أنه لم يدر بما يتابع. فنظرت إلى الدفتر البني الملقى على الأرض وأشرت له إليه. لم يستوعب ما أريد إلا أنه تحرك في تباطؤ ورفعه عن الأرض.

قلت: "أقرأ ما به"

حدق به ثم فتحه يمرر عينيه ويقلب الصفحات الممزقة إلى الأجزاء شبه السليمة. ثم بعد أن أغلقه نظر إليَّ يقول: "لا أفهم!"

هززت كتفيّ: "ولا أنا، لكن هناك كلمات به لها ترابط شديد مع موقفي هذا.. مع هذا الكائن! لا أفهم المعنى لكن التأثير.. الإيحاء يخبرني أن هذا جزء من مأساة لا أعرفها، خيط ما يربطه بها"

خفض حمودة عينيه إلى جثمان توكل، بلحمه الممزق العاري وثبتت عينيه عند ذيله القصير غير المكتمل. ثم نطق يقول: "لن نستطيع إبلاغ الشرطة"

استغربته: "ماذا تعني؟"

- "لأن هذا لا ينفي حقيقة أنك قاتل يا كمال، مهما صورت لجهات التحقيق لن يستوعبوا ما تقول حتى مع رؤيتهم لهذا..

جهات التحقيق لدينا يا كمال لو لا تعلم ليست بذاك الأفق الذي تتصوره.. سيتكتمون على الأمر وسيحيلونك إلى الجنون أو التعفن وراء القضبان.. لن يسير الأمر أبدًا كما تتخيل!" وزفر من صدره الضيق نفسًا ثقيلاً ليستطرد القول: "أما أنا فرجل لست أملك غير سمعتي.. والتي ستتدهور إن جاريتك في أمرك هذا، لأنني لو لا تدري لمجرد دخولي هذه الشقة اللعينة ووقوفي معك الآن قد صرت بشكل لا يقبل الشك شريك لك في.. في جريمتك!"

نظرت نحوه بعينين اتسعتا: "جريمة، أي جريمة؟ إنه.."

ونطق من أسفل ضرسه: "نعم، إنه ليس بشريًا.. لكن تبقى جريمة، قل غير هذا وسيرمى بك في الخانكة. سيصنف أنه مريض بشيء ما، ذا تشوه خلقي.. أي شيء من هذا القبيل، وأنك لم ترحم عجزه أو لم تفهم وفعلت ما فعلت.. تصور ما ستنقله الصحافة، تصور ما سيشيعه الناس بشأنك وكيف أنك مريض قاسي القلب.. مختل!"

- "معقول أن يكون مجتمعنا بمثل ذلك الضيق!"

- "صدق أو لا تصدق.. الآن فكر معي كيف سنتخلص من هذه الورطة، وقبل أن تعترض لابد أن يختفي الجثمان. أي أثر لوجوده هنا سيضيعك ويضيعني معك!" وكور قبضته: "لولا بلاهتي واندفاعي إلى شقتك.."

وحدجته بنظرة مستاءة، إلا أنه كان معه حق. أنه مذعور لكن لا يجافيه العقل، هذا صوته الذي يتحدث. وفي هذه اللحظة ومض

في بالي الحل: "أعرف أين سنضعه" وطالعني حمودة بنظرة طويلة ثم لم ينطق.

انتظرنا حتى يغيب وضوح الشمس ويتوغل هدوء الليل. جلس حمودة بسكون على الأرض. ونهضت إلى الحمام أغتسل. أزلت الدماء عن وجهي، وغسلت تلك التي لوثت خصلاتي. ثم استخدمت مطهر للجروح من الأجزخانة. خلعت ملابسي الملطخة، واستبدلتها بملابس بلغت درجة عنيفة من العطن أثر الركنة الطويلة في سبت الغسيل. وحين خرجت من الحمام، اتجهت إلى غرفة نومي. كان بالصوان ملاءات بديلة. انتقيت واحدة طاهرة بلون سماوي، ثم خرجت بها إلى حيث موضع الجثمان. وحين فردتها أمام حمودة فهم ما أبتغيه، فنهض يساعدني في لفها حول جسد توكل. وفي هذا دق الألم ساعدي الأيمن، فلم أستطع كبت الأنين. وحين انتهينا وجدت حمودة يفتح باب الشقة ويخرج بصمت وسرعة. لم أدر ما خطبه إلا بعدما عاد وبيده رباط ضغط. وابتسم بإرهاق ليقول: "يبدو أن موته لم يكن بتلك السهولة!" ومددت ذارعي، فبدأ يساعدني في لف الرباط حوله.

في تمام التاسعة مساءً بحسب ما أشارت لنا ساعة معصمه، اتخذنا قرارنا بالخروج. بعدما تأكد هو بهوس ووسواس شديد من هدوء المكان وخلوه من الصاعدين والنازلين.

- "مستعد؟" سألني، فنظرت إلى ذراعي وقلت: "أحاول"

رفعت الجثمان المكفن بالملاءة من ناحية الرأس، ومن ناحية القدمين رفع حمودة. وكان بالحق له ثقل توترت له أعصابي وتصبب جبيني. خرجنا من الشقة، وأغلقت بقدمي بابها على منظر الأرضية الفظيعة المتلطخة. وبدأ حمودة يصعد درجات السلم. وكنت أعاني وراءه. تعجبت أنه لم يبد عليه أي تعب، أو هذا ما رأيته. بدا الوزن الذي نحمله هينًا عليه، أعصابه وتعابير وجهه في حالة جمود لا اشتداد. تعابير هادئة طبيعية. وانقطعت عن تفكيري إذ سمعنا أحد الأبواب يفتح بالطابق الرابع، تلك اللحظة تراجعت. وحفزني حمودة بعينيه أن أنزل السلم الذي صعدناه للتو. وفعلت بعجل وارتباك، وحاولت باستماتة التماسك كي لا يسقط الجسد ويتدهور الحال أكثر. عدنا به إلى الطابق الثالث، وأشرت لحمودة بأن نعود للشقة ونؤجل هذا إلى ما بعد، وكاد يوافقني إلا أنه حملق بأعلى الدرجات لثوان بدا أنه شرد فيها. ثم نطق: "لم يأت أحد" وفكر مردفًا: "ربما كان يخرج قمامته لا أكثر.. هيا لنسرع الآن!" وفعلنا. انطلق وظهره للخلف على درجات السلم وكنت غارقًا في معاناتي أحاول مجاراته. لم أدر أن له مثل هذه الطاقة والهمة الرياضية! وصعدنا الدور الرابع، وبالمثل ارتقينا درجات الخامس. وكنت شديد الانهاك عند السادس، إلا أنني تحاملت على كل ما بقى لدي من تحمل وتابعت. ارتفعنا على الدرجات إلى الفم الظلامي المفغور للدور السابع. أولى الأدوار المحظورة. صعده حمودة وأنا من خلفه. وانقبض صدري مع استقبالي للرطوبة الساكنة بجدرانه. التفت حمودة إلى خلفه في الرواق: "هناك" وتحركت وراءه، لكن مؤشر الخطر بداخلي

ظل يرتفع. وتخيلت شيئًا في البعيد يتحرك خلف كتفيّ حمودة. لم يكن خيالًا عابثًا، إنما هيئة مشكَّلة في لون الظلام. قلت لحمودة: "توقف!"

نظر لي: "لماذا؟ دعنا نضعه في إحدى الغرف ونغادر!"

إلا أنني صممت: "سنتركه هنا" ولم أنتظر رده، تركت كتفي الجسد فسقط نصفه العلوي بارتطام إلى الأرض.

- "ماذا تفعل!" همس بنبرة حادة. لكنني تجاهلته وركزت فقط مع الانقباض الجاثم على صدري. إنني أتنفس بصعوبة، وليس هذا إلا لأنني أرى شيئًا قد بدأ يهرول من خلفه ناحيتنا!

- "تحرك يا حمودة.. اتركه!"

نظر إلى الخلف بتوجس ثم عاد إليّ بنظرة جديدة متفهمة، تخيلت مظهرها المروع تحت ستار العتمة. ركضت إلى الدّرج ونفض حمودة القدمين اللذين يرفعهما عن يده وتبعني.

نزلنا إلى نور الدور السادس، وشهدت بعينيّ التذبذب الذي لطم الإنارة. وقفت وحمودة بالأسفل نلهث في مواجهة بعضنا. ليكون هو أول من ينطق: "يا رحمة ربنا، وجهك أبيض كالحليب.. لم أكد ألاحظ هذا، أنت شاحب كجثة! متى كانت آخر مرة وضعت شيئًا بمعدتك؟"

لم أنظر له، لم أتحدث وظللت معلق البصر في فجوة الطابق السابع.

٣٤

مُلئ الحيز أمامي بالمائدة بطبقي السلطة وربع الفرخة التي طلبتها وإلى الجوار عدة أرغف خبز. أما أمام حمودة فقد سكن طبق مكرونة بالصلصة وآخر به شوربة عدس وثالث تزينه قطعة كندوز ثقيلة غارقة في مرقها. حدقت في طعامي ولم أمسسه، فسمعت صوتي أقول: "أخبرني يا حمودة أنني ليس بي جنون"

كان يضع طبق الشوربة على فمه يرتشف منه مباشرة، أنزله والحساء يلمع على شفتيه ويسيل على ذقنه ليرد: "لا أدري والله يا كمال، تبدو حالتك مريعة لكن هذا لأسباب أراها منطقية.. ما شهدته وما فعلته هو شيء عسير على الاستيعاب.. شيء خارق للعادة"

- "ماذا تظن بما كتب بالدفتر.. تلك اليوميات؟"

غاصت معلقته في طبق المكرونة فأخرج منها نقلة ضخمة، حشرها إلى فمه. وظل للحظات يمضغ بحلق منتفخ بغير أن يجيبني، حسبه أن لديه شهية عظيمة ولا كأننا كنا ننقل جثة منذ قليل. حقيقة ما خطبه؟

- "لم أفهمها، كما قلت لك.. يحتمل ما بها أكثر من تفسير" ثم حدق بنظرة مستفهمة: "لكن أخبرني لمن تعود؟"

تنهدت: "للست صاحبة العمارة، نوال الكيلانية"

سقطت ملعقته قبل أن يغوص بها من جديد في المكرونة على الأرض. وتجهم في مطالعتي.

كنا جالسين في كافتيريا تقع على بعد شارعين من عمارتنا، وكانت برغم ضجيجها الحاضر عن أكثر من مصدر داخلها من الزبائن على الموائد، والضجة الآتية من الشارع تبقى أصوات أخرى حاضرة تفصل بين كل هذا وبعضه. أصوات صرخات المتدربين بصالة الجمنازيوم أسفل الكافتيريا.

قال حمودة بنبرة متباطئة: "كيف تحصلت عليها؟"

- "شهدتها تلقي بها في المسقط، فأخذتها من هناك" لمَ أشعر بهذا الذنب؟

عاد إلى طبيعته، وهز رأسه كأنما بأسف ثم قال: "أنت لا تُعقل" وعاد إلى طبق حسائه.

أما ذلك فقد استفزني لأنفعل بشكل أقرب للصياح: "أنا من لا أعقل حقـًّا؟ أخبرني ما خطبك يا حمودة.. شأنك مريب يا أخي بك تبلد عجيب، أخبرك أن سلوى مختفية وأمها ذبحت وأنت تبقى كما أنت لا يهتز لك شعرة وتستمر على حالك تغب وتأكل كأننا داخلين على مجاعة!"

وقف الطعام في حلقه، وقد غص لما أقول. ورأيت الاضطراب في عينيه والحمرة تتقد في أذنيه، وبعد لحظات نطق بأنفاس غير مستقرة: "لأنني لم أستوعب يا كمال.. تأثير الصدمة عليَّ مختلف.. إنني أغرق نفسي في إلهاءات عديدة حتى لا أسمع أفكاري. أخبرتني بالفعل بكل هذا، وهو أمر فظيع عسير التصديق لكن عينيك وجدية

هلعك جعلني أصدق.. وموقفك الآخر مع ذاك الـ. شيء، كل هذا ضخم عسير.. كنت واقفـًا أمامك وقتذاك في حالة صدمة لا أستوعب أي شيء. فهذا ما جعل كل تصرفاتي إلى الآن تبدو برجماتية جافة مدفوعة بالغريزة، وتلك دافعية جعلت كل مشاعري مشوشة متخبطة.. أنا لا أفهم يا كمال ولا حتى أستوعب.. لكنني والله هلع مثلك أو أكثر منك!"

زاد إحساسي بالذنب: "تلك العمارة يا حمودة بها شيء غير طبيعي و.. سلوى إنني أفزع كلما فكرت بما قد يكون جرى لها!"

- "ماذا ستفعل؟" وكانت عيناه فيهما خواء: "هل ستهجر العمارة؟"

- "أريد، لكنني كلما فكرت بالأمر أشعر بأن شيئًا بنفسي لن يرحمني إذا فعلت.. لن أفر يا حمودة، لن أستطيع حتى إذا أردت قبل أن أعرف ماذا يحدث هناك.. ضميري لن يسمح لي بأن أترك فتاة ربما يكون هنالك فرصة لنجدتها من مصير قاس" واعترفت بصراحة: "وددت لو أقول إنه غرامي، لأنني بالفعل تحدثت معها وأعجبت بها، لكنه... ليس هذا. هو بالفعل ضميري. وحقيقة يا حمودة هناك أمور كثيرة لا استوعبها مهما بدت بسيطة، وأنني أشعر بتوهان شديد وخواء طاقة"

- "إذن، حاول أن تأكل شيئـًا. لا تقس على جسدك أكثر!"

أمسكت الملعقة ومددت بها إلى طبق السلطة.

سألت حمودة ونحن خارجون من الكافتيريا عن الساعة، فأخبرني أنها تجاوزت الحادية عشرة والنصف. أحسست أنني بشكل ما

مشحون، طاقة وشعور آخر شجن حزين. تناولت ما أقدر عليه من طعام، كل طبق السلطة وتناتيف من لحم الدجاجة. أما رفيقي فيبدو عليه القهر الشديد تحت وطأة غريزته، وقد أتى على كل طعامه ولولا الحياء لمضى يلعق الأطباق. حقـًّا ما زلت أفكر أنه رجل به شأن مريب.

ركبت إلى جواره في سيارته الخنفسة، ثم مضى ينهب بها الطريق. وعند جانب سوبر ماركت من نفس الشارع وجدته وقد كبس الفرامل فجأة وكأنما تذكر شيئًا بالغ الأهمية غفل عنه. طلب مني أن انتظره خمس دقائق حتى يعود. أومأت بلا فهم، وانتظرت في مكاني متحجر البدن ساهم الأفكار. حتى أفقت من شرودي على وقع فتحه للباب وبيده ثلاثة جراكن من منظفات مختلفة وبيد أخرى حاجيات لم أتبينها لوجودها في أكياس من النيلون بيضاء. واستنتجت ما بها، إنها كماليات التنظيف. لقد صرنا مجرمين برخصة مشروعة الآن! بعد هذا تحركنا إلى العمارة، وصلناها وصعدنا إلى شقتي. تركته عند المدخل وقد بدأ يشرع في هوسه غير المستجد بل إنما ما عاش عليه واعتاده. وفي حالتي هذه كان لمصلحتي. دخلت المطبخ وكانت بي رغبة شديدة في كوب شاي. وحين فرغت إلى وحدتي بالداخل، وهدأ بدني المضطرب. شعرت بالعتمة تحاوطني، شعرت بالخوف وأردت أن أصرخ. وراحت عيناي إلى برطمان الشاي في المطبقية وما شعرت بعدها إلا بتشنج جسدي وقد غرقت في حزن ثقيل، فغمرت الدموع وجهي. وكنت على حالي أبكي.

٢٥

لنتحدث عن الخوف، لنرى ما قد يخيفك.

لا أريد النوم. لن يصلني نوم، ها أنا فاتح عينيّ للفراغ أحيا على سرد ما برأسي. تحاوطني الرؤى، أرى مشاهد من الذاكرة، أسبح في الأفكار السوداء. وها أنا أقف مذعورًا كيوم طردت من رحم أمي. ها أنا وهذا الواقع الذي أحيا فيه. وإنني لا يفارقني منذ الآن شعور بأنني حبيس كابوس لا ينتهي، إنني في رحم آخر محدود الحركة، محاط بسائل مخاطي يبطئ من حراكي. إنني مقيد، إنني لا أهدأ. لا يهدأ بالي، لا تكف الأفكار السوداء برأسي. وحيث موقفي الآن بالشرفة أرى القطران ينهمر من السماء. يغرق الكون في السخام، ويدفن الناس والمباني. وإنني حقًّا أعجب للناس بالأسفل كيف لا يروه، وأشفق عليهم فهم بغير رؤيته قد اعتادوه. اعتادوا واقعهم الأسود، وتعايشوا مع الخوف في ثوب واحد. وجوههم واحدة مهما اختلفت، نالتها سمرة شمس هذه البلاد وتعست أرضها كواحلهم بالسواد. إنهم يضمحلون أحياء. لا أمل لهم وكيف يكون وأجسادهم كل يوم تتعفن أكثر من سابق يومهم. وإنهم تحت عينيَّ لازالوا يروحون بالشارع ويجيئون. وإنني يجب أن أهدأ. وفكرت، ليأتيني خاطر كان مختبئًا بمكان ما بزوايا عقلي.

خرجت من غرفة نومي، مضى عليّ وحمودة ما بقى من الليل في محاولة إزالة أثر الدماء التي لطخت المدخل. استخدم في تنظيفها كل عزم وكل منظف ممكن في كل جزء بالأرضية وحوافها وبين البلاط. ما يجعلني أشفق على المعمل الجنائي إذا فكر في تحري أمري. وإنه لخاطر مضحك بقدر جديته. أخبرني حمودة أنني يجب أن أنام، يجب أن أرتاح ولا أقسو أكثر على جسدي. وقال إنه سيفعل هو المثل وبعدها سيأتيني لنستعرض ما مررنا به بذهن متيقظ وبموضوعية أكثر، نتحدث ونرى. وكانت الساعة قد بلغت السابعة صباحًا حين خرج من شقتي، وفمه لا يكف عن ترديد النصيحة، بينما كنت أرى في عينيه تعبير يعكس مدى فظاعة حالتي. وها أنا ما زلت لم أعمل بالنصيحة. لكنني لا أريد النوم. أفكر في الأمر فأجده منغصًا، يتشتت له ذهني. ربما الفكرة نفسها تخيفني، أن أترك جسدي هكذا. بلا دفاع، في حالة ضعف وعجز. ماذا يا ترى قد يجري وأنا بهذه الحالة؟ لا أريد النوم، أريدني فقط أن أهدأ.

دخلت الحمام، لامست قدماي سيراميكه فشعرت بانتعاش يتسرب إلى خلاياي. وقفت أتفحص المكان بعينيّ، أين وضعتها؟ روحت ناحية المرحاض وفكرت أنني ربما رميتها به. أو ربما خبأتها في خزانه، لذا فتحت غطاء الخزان. لم تكن هناك. بعثرت الملابس في سبت الغسيل وأيضًا لم أجدها. أذكر أنها كانت معي، آخر مرة رأيتها هنا. من كان ليحسب أن آتي بحثًا لمثل هكذا شيء. لكنه كمثيل غيره يرمى عليّ فيغمرني وقتما أنفره عني وحتى إذا احتجته شح وندر. وقفت أهرش رأسي ثم رأيت الأجزخانة وألفت النظر نحوها. اتجهت

إليها وفتحتها، لكن ما أبحث عنه بالطبع لم يكن بالداخل فمع استعجالي لفتح ضلفة الخزانة وجدت أن حركت يدي كانت منفعلة بشكل مبالغ تأثير قلة النوم مما تسبب بهز الخزانة في مكانها. ولم تنعدم فائدة الأمر إذ تدحرج الشيء الذي كان يقبع فوقها وهبط كتفاحة نيوتن على أرضية حمامي. أمسكت قطعة الحشيشة في اللفة السلوفانية ورحت بها إلى المرحاض. أسدلت غطاءه واتخذته كمقعد. لم يمر عليَّ بعد ذاك سوى أربع دقائق حتى جهزت سيجارة محشوة مثيرة للتجربة. أحتاج أن يخف نبض قلبي، شهقت من الهواء المحيط وزفرته بعدما استقر مفيده بصدري. وضعتها على حافة فمي، واشتعلت القداحة ليلعق لهبها دبر السيجارة. والتي استثارت نشوة ودخانـًا. وتهيج لها صدري، فلم أدر بنفسي إلا وقد انفجرت في سعلة جافة جرفت الطريق حتى حلقي، فبصقتها على سيراميك الأرض. وعجبت لما تطلعت فيها كم كانت سخامية اللون، سوداء لزجة. تحاشيت النظر إليها ومججت جرعة أخرى، تريث لها بدني. ثم هدأت خلاياي بهدوء آليات صدري الدفاعية. بدأت أشعر بالارتخاء. تدليك لطيف بأنامل عذبة على مفاصلي الملتهبة. على لحمي المصهد. شعرت بأنسام منعشة يروق بها البال. وانفرجت شفتاي في بسمة. لكن من خلف أذني سمعت كأنما شيء يقطر. مججت من السيجارة ما يجعلني أتجرأ على سب الحياة. ما يجعلني أتحدى الموت في نزال. ما يجعلني أخلع سيفي من غمده وأقف وحدي مواجهـًا لجيش الروم وأقول بصرخة هي صيحة إيكاروس حين سقط وقد ذاب جناحيه الشمعيين في مواجهة الشمس

الحارقة. أقول وصدري يصرخ: لن تطأ بعد اليوم أقدام غزاة أرض هذه البلاد! ويذوب نصل سيفي في لحم الحلم، وما زلت أسمع من خلف أذني صوت يقطر. رفعت رأسي عن السيراميك، ورأيت في الجدار المواجه لي ثقبًا صغيرًا غائرًا. لم يكن سواده عتمة، بل إنما سائل له نفس اللون. قطران، يزحف بخجل ويسقط قطرة بعد قطرة. نظرت إلى هذا بعينين بليدتين ثم رفعت السيجارة إلى فمي. مججت الدخان الدافئ، وراح ذهني يسبح فوق رأسي. ثم انتزعني مما أنا فيه رنين جرس الباب. حاولت تجاهله إلا أنه استمر مرة بعد مرة. فنهضت بتثاقل، وتحركت إلى الباب بضيق لا يخفى. لمّا فتحت الباب وجدته محصل الكهرباء يحمل دفتره العملاق ويحيني ببسمة. نظر باستغراب للسيجارة التي لم تزل تحترق في يدي، ثم عاد ينظر في وجهي وقال بتقرّف: "قراءة العداد"

أفسحت له المجال، فدخل بعجل وسرعة حتى ينفض. تحرك صوب العداد، والذي كان معلق على يسار الباب بالمدخل. تطلع لثوان يقرأ علامة المؤشر، ثم سجل بضع كلمات في دفتره. وهز رأسه إليَّ مستأذنًا بالمغادرة. كدت أغلق الباب خلف ظهره لولا ما عاقني من هذا. نظرت للأسفل فوجدت الامتداد الطولي للحم ينبثق من فوق مؤخرة الرجل ويتلاعب على عتبة الباب. قلت له بصبر نافد: "ذيلك يا أستاذ!"

فنظر الرجل إليَّ بتحرج، ثم ابتسم معتذرًا: "لا مؤاخذة"

رفع ذيله إلى قرب رأسه، فاستطعت إغلاق الباب الآن. لكن بعدما انغلق توقفت لبرهة أفكر، أشعر بأن هنالك حلقة مفقودة. شيء غفلت عنه أو نسيته. فتحت الباب مرة أخرى، فوجدت الرجل ينظر إليَّ مستشيطـًا أحمر الخلقة ثم انفجر يصيح بنبرة وقحة: "ألا فليلعن الله الحشاشين أو لتأخذهم داهية.. ملعون أبوها وظيفة!" وانصرف يزبد ويرغي بالقول والغمغمة. عدت وأغلقت الباب بلا فهم حقيقي. شعرت بتنميل حقيقي في قدمي اليسرى وأنا عائد إلى مجلسي بالحمام. فتحت بابه ودخلت، تجاوزت عتبته بخطوتين حين لاحظت التسريب المتدفق من ثغرة الجدار. دفقات سوداء تفيض تلطخ الأرض وتغمرها! مضيت مذهولاً نحوها، لا أفهم. كان زحف القطران قد غطى بقعة واسعة من الأرض ومضى يزحف نحو قدميّ. تراجعت خطوة، ثم سمعت! يا مولاي الرحيم! انفجار آخر من الحائط على يساري. دفقات هائلة. ثم سمعت تقلقل حجارة الحائط بجزء آخر. خط قطران رفيع نازف يزحف من ذاك الجزء، ثم تقشر الملاط وانفلق الحجر في فجوة كحلق خرطوم بدأ يرش الأرض هو الآخر زيتًا. فجوات عديدة بدأت تتفجر بالتباع من كل الجدران حولي. هالني ما أراه وجحظ له بصري. الأرض غرقها صار مسألة وقت. الحمام نفسه سيُبتلع. وأحطت بالبصر الصنبور وحوضه والمغطس ودشه والمرحاض، الأشياء الطبيعية تبقى على حالها طبيعية. صورة هادئة مسالمة، لم تنزف منهم أي قطرة سواد وهم المصدر الوحيد المتصل بالأنابيب العمومية التي قد يختل فيها الصرف وينقلب عائدًا إليها. لكنهم لم ينفجروا عن شيء، الأشياء

المجنونة هي ما تبقى مجنونة. وانفجر بالحائط ثقب جديد ومن يدي سقطت السيجارة غاطسة في بحر القطران الصاعد. أردت الفرار، وفعلت ما فكرت فيه.. أو كدت. تحركت صوب الباب لأخرج، فتزحزح من مكانه بلا عازة ليد بشرية تمنحه الدفعة. وانغلق بشدة وعنفوان ردني للوراء. وقفت حائرًا بلا حول. القطران ظل يتصاعد، وصل قدميّ وأغرقهما. ثم بدأ يتشبث متسلقًا ساقيّ. حاولت رفع إحدى قدميّ والسير إلا أنني تباغت بقدرة جذب شديدة تثبتني في مكاني. حاولت أن أنزع نفسي من هذا إلا أن الأمر لم يجدِ. وتصاعد القطران، ارتفع وارتفع، وأغرق الحمام وغطاني حتى المعدة. ثم لم يستكف، ومضى في طريقه حتى ليعلو صدري ويصل إلى ذقني. وأذكر أنني في أواخر صيف ١٩٧٧م رأيت فتاة أغرقها الموت، وبصق جثمانها إلى شط رأس البر مطرحة إلى جواري وفي عينيها التي سكنها صقيع موحش، عرفت أن مصير مشابه قد مضى يتبعني. تينك العينان التي رأيتهما حينذاك، أراهما في حاضري هذا. أراها هناك طافية فوق سطح القطران، يدها في الهواء تلوح لي. وبلعني الموت. انزلقت في السواد وقد غمرني القطران. ثم.. أشعر بالتوازن. قدماي انفكا من قيدهما، بل جسدي كلي. رفعت يديّ أمام عينيّ. ونظرت في الكون المحيط، كان لونه الأسود. وبه كنت وحدي، هذا كون آخر. فضاء، لا يسكنه غيري. وكان بخلاف هيئتي وحيز جسدي لا شيء واضح آخر. تنفسي طبيعي، نبض قلبي هادئ. وإنني لست بميت.. صح؟ وهذا الصوت.. نعم إنني أسمع صوتًا ما. لحن هادئ، غناء رخيم. إيقاع متناغم مع سمعي الطبيعي. تحركت فلم تتشبث

قدمِيّ بالأرض، مضيت نحو مصدر الصوت. وظل الصوت يصدح ويرتفع، حتى أنني ألفت الموسيقى، ألفت صوت المغني. آلفيس برادلي؟ ولم أبتعد كثيرًا في هذا الكون الخالي الممتد. وبرز إليّ على الأرض كاسيت، الكاسيت خاصتي. وكان به شريط مشغل، صدح منه غناء آلفيس برادلي أنتِ دائمًا في بالي.. أنتِ دائمًا في بالي.. أشياء صغيرة كان يجب أن أقولها وأفعلها.. أنا فقط لم يمهلني الوقت..! وشعرت بأن الواقع يطوف بي، سرحت في الكلمات الملحنة المتجاذبة إلى قلبي. وشعرت أنني حزين، وودت لو أبكي. ربما لم أتمسك بكِ.. كل تلك الأوقات.. أوقات الوحشة.. وكنت كأنما استسلم بدني، راح مع اللحن. وشعرت بيد، أناملها واقعية مرفقة تتحسس منكبيّ. أعتقد أنني لم أخبرك أبدًا.. أنني سعيد جدًا لأنك ملكي.. والتفت للوراء، لأرى من توقف خلفي. ولمّا نظرت لم يدركني إلا الذعر. وصرخ آلفيس برادلي أنتِ دائمًا.. دائمًا في باااالي..

مجددًا أراها، في هيئتها المضمحلة. جسدها الأزرق الذي خطاه الموت ونثر فيه بذوره. وها أنا الآن في ديارها، هذا الكون المغلق، وفي السمات الزائلة للحم وجهها المفتل يطل إليّ وجه قديم. للجدة التي أخبرتني الحكاية، التي أحببتني في الحكاية. أخبريني.. قولي لي إن حبك الحلو لم يمت.. وظلت تطل إليّ بعينيها المقلوبتين، الذين برغم تناقض المحيط الأبيض فيهما عن محيط القطران الذي يجمعنا إلا أنه لون لم يشذ عن جوه. بل كان وليد المكان. ظللت في حالة جمود، وظلت هي على نفس الحال. نزلت ذراعها إلى جانبيها. وظلت ترامقني بعينين لا تريان، وأحسست بحركة في حلقها. شيء

يتحرك هناك، يبرز من الداخل ولا تظهر إلا أعراضه على الوجه. وظلت الموسيقى تعزف في المحيط الخالي. تراجعت خطوة للوراء وعينيّ لا تفارقانها. وكانت ثابتة، هي جماد. كائن أسطوري فقد روحه، لكن ترى أي شر يحركه الآن.. من مماته؟ وزادت الحركة في الفم. حركة بغير طوعها، هذا ما يتضح لي. وفجأة بدأ الفم يفتح، بل يدفع للفتح. كأنما هي حركة عصبية، لكن لم تكن كذلك بل هناك بالداخل من يدفع الفكين. يا فتاة، إنني آسف للغاية كنت أعمى.. تلك الدودة، أكانت بالفعل دودة؟ رأيت شيئًا لا أتبين ماهيته وقد تدلى من جزء ثغرها المفتوح يحاوطه غشاء مخاطي. أهو دودة؟ للوهلة الأولى يحسب هكذا إلا أنه كان.. إصبع يتحرك! أعطني.. أعطني فرصة أخرى لإرضائك! وبدأت زاويتي الفم تتمزقان، الشدقين بعنف ينفرجان. الفك للأعلى، الفك للأسفل. اللحم يتفسخ، ومن فمها رأيت الرأس يحاول التحرر. رأس بالداخل؟ إنسان كامل بالداخل. مزق اللحم الميت، كسّر العظام الهشة. انشقت رأسها، تفتت أنفها وراحت كل عظام الوجه تتفرقع وتذوب بدوي مسموع تأذت له روحي، وشعرت فيه كأنما شوكة قش تجرف كل بدني. وخاطرني الآن وأنا أرى هذا أنها مجرد حكاية أخرى، ترويها بصمت على بصري. وكيف هي قسوة الأمر، قسوة تحرر الحكاية. تحرر عشرات الحكايات التي سمعتها ولم أرها. تدمر رأسها، وشاع إلى رماد في الهواء ثم سمعت الارتطام بالأرض. جسدها ظل في جموده واقفًا. أما ما سقط فقد كان الجسد الذي قبع برأسها، ورأيته داخل شرنقته. كان ملفوفًا بها، يحاوطه الغشاء المخاطي. همد للحظتين ثم عاود

التحرك، مد يديه ومزق الشرنقة. وإذ طل برأسه للخارج منحني ابتسامة عريضة لا أسنان فيها على عينين متحجرتين حادتين. وكنت أحدق فيه بنظرة ذاهلة. أحدق فيه؟ أم أقول أحدق فيَّ! هو وجهي، هو أنا. أنا في الشرنقة. وتراجعت للوراء على أعقاب مذعورة. أريد أن أفر، أبتعد. أريد أن أشيح بنظري، ولا أعرف! ثم جاءت النجدة بصورة لم أتوقعها، في عثرة أسقطتني. ارتطمت رأسي بالأرض، وأغمضت عيني على إثر الوقعة لثانيتين حتى إذا فتحتها وجدتني مسطحًا على أرضية الحمام. ومن حولي كان هادئًا على حاله الطبيعي، مهتز بعض الشيء في عينيّ إلا أن هذا تأثير صدمة رأسي. استندت على مقعد المرحاض الذي سقطت عنه، ونهضت. لكنني لم أزل أسمع لحنـًا في أذني، متغير بعض الشيء. أو لا يتشابه بتاتـًا مع اللحن السابق. لا، ليس لحنًا واحدًا بل اثنين، أحدهما مغمور والآخر صاعد حاد. نعم، لحن منبه متجدد باستمرار. إنه جرس الباب يرن! هززت رأسي وحركت ساقيّ تجاه باب الحمام. ومن نافذته لاحظت وأنا أسير أن الدنيا أظلمت بالخارج. أقضيت كل النهار بالحمام؟ مازال اللحن الآخر بأذني، ليس آلفيس بل موسيقى لأغنية أخرى لا أذكرها. فتحت باب الحمام، وبطرف عيني لمحت من خلفي السيجارة ملقاة بالوسط هناك على الأرضية. وكانت لم تزل بها نقاط حمراء ملتهبة!

٢٦

- "أنتِ حقيقية؟"

هناك لحن بارع مازال خلف أذني، يتصاعد بخفة وتباطؤ. وقالت لي درية التي أخذت عينيَّ أمام الباب المفتوح: "ماذا تقصد؟" أحاطتني بنظرة متمعنة ثم استطردت: "يا للمصيبة! ماذا أصابك؟" ومدت يدًا وضعتها على جبهتي. شعرت لملمسها برودة طيبة انتعشت لها خلاياي الدماغية. وتابعت درية بملامح قلقة: "أنت محموم بشدة!"

- "أتسمعين هذا؟" قلت، فنظرت إليَّ بغير فهم: "الموسيقى؟" قالت: "لا أسمع شيئـًا"

- "جميلة" تورد خديّ درية، لتقول: "الله يكرم أصلك يا سي كمال.."

- "أعني.. الموسيقى"

زمت عينيها تطالعني، ثم نطقت: "حالتك لا تسر، أفسح الطريق لن تتركني طيلة الليل هنا بالخارج!"

تزحزحت من أمامها، دخلت وظللت متحجرًا في مكاني أطالع الرواق الخالي. إلا أنها لم تتركني، وجذبتني بيدها من مرفقي كأنني طفل تائه في زحام المولد.

- "ارقد هنا!" جلست على أريكة غرفة المعيشة حيث أخذتني. إلا أنها ما رضيت: "قلت ارقد.. أفرد قدميك!" وكدت أن أفعل بطاعة، إلا أنها استوقفتني، وقالت: "انتظر.." وقربت أنفها ناحيتي تتشمم قميصي.

- "هذا الثوب رائحته نتنة.. متى آخر مرة غسلته؟" فتحت فمي إلا أنها لم تسمح لي بالنطق: "لا يهم، اخلعه"

- "درية، أنا لا.." وقاطعتني: "انزعه عنك يا سي كمال، هذه الملابس المتعطنة تخنقك وتفسد عقلك"

طاوعتها، وفككت أزراره فتعرى لحم صدري حيث لم أكن أرتدي شيئًا أسفله. وضعته جانبًا، فالتقطته إلى يدها لتحدق فيَّ بنظرة آمرة أخرى: "وبنطالك!"

- "وهذا.. ماذا تراه يخنق؟" وضحكتُ، إلا أنها ظلت متزمتة عابسة لتقول: "آه يا من يلايمني عليه.. عارفة أنه هو وراء انتكاستك هذه ولولا ذاك اللئيم لما تعاطيت لهذا المدعوق"

ابتسمت: "حمودة؟ لا تسيئي به الظن أنه رجل مسكين"

- "بل أنت هو الطيب" وفردت يدها نحوي: "اخلع بنطالك!" وفعلت، لأبقى أمامها بعريي إلا من سروال تحتاني. قالت لي وعلى ذراعها ملابسي: "حاول أن تسترخي قليلاً، سأعاودك بشيء ترتديه"

حركت جسدي، وهممت بتمديد جذعي وأنا أقول بصوتي الناعس: "كلها متسخة، لن تجدي شيئًا عندك" ولم يأتيني منها رد. لم أرتح في نومتي هذه، ظللت في حالة تقلقل إلا أن السقف أخذ عينيّ، شعرت بفضول لتأمله. وكنت أسمع خطى درية في الشقة

تتحرك في جهات مختلفة، يطاردها اللحن الذي لا أهتدي له. وبعد دقيقتين تنبهت لشذاها المعطر وهي تقف بجواري قائلة برفق: "ارفع رأسك" رفعتها بقدر المستطاع، وحين هبطت مني وجدت في استقبالها حشو وثير رحب ناعم. وضعت درية الوسادة تحت رأسي، واستقبلت جبهتي برودة لم أتوقعها جعلت جلدي يتوتر لها وينفر للحظات، ثم هدأ وشعرت ارتخاءً معه. وهذا بعدما وضعت لي درية الكمادة المبللة. تنهدت أزفر صهد صدري، وقلت بلا مراعاة لنبرة صوتي: "ما سبب زيارتك هذه يا درية؟"

- "قلت لك إنني سأعوضك في آخر لقاء بيننا" وتابعت: "حسنٌ، لم أعلم أني سأجدك في تدهور هكذا، وفكرت أنني سأكون قليلة الأصل لو تركتك بمثل هذه الحالة"

- "تعلمين؟" ارتاح ثغري في بسمة: "أنا ممتن لهذا" وأغمضت عينيّ وقد غمرتني راحة بلغت كل أطرافي. أمان عجيب احتضن قلبي، وشعرت بأنامل درية الرقيقة الصغيرة تتلمس كتفي. ذاب وعيي في فراغ الكون الواسع، وتسربت العتمة إلى داخلي لتتمرغ فيها اليقظة وتتوه. وفتحت عينيّ وقد أدركت اليقظة من جديد وقتما شعرت ملمس الكمادة الباردة تحط على جبهتي. تكيفت مع السابقة بأخذها من دفئي، لكن بعدما تجددت اختلف الشعور مجددًا. وخرج صوت مبحوح من فمي بينما أقول لدرية: "أهناك دلو بارد بجوارك؟"

فرأيتها من خلف غشاوة ضبابية تحجب البصر الصحيح عن عينيّ وهي تقول: "يا خبر، أنت عطش؟ سآتيك بالماء حالاً"

كانت تستند على الأرض بركبتيها جالسة إلى جوار رأسي تتابعني بعين متفحصة قلقة. قلت لها وهي تهم بالنهوض: "انتظري.. أعني سرعتك في تغيير الكمادات" ولمّا بدا عليها أنها لم تفهم، وضحت: "لم تمر على الأولى ثوان حتى بدلتيها بأخرى في لحظة"

ابتسمت لي بعذوبة كأنما ترى طفلاً بدأ لأول مرة يتهجى الحروف لينطق. قالت لي: "هذه الكمادة السابعة التي أضعها لك خلال ساعة واحدة يا سي كمال. لكن الحمد لله حرارتك هدأت كثيرًا"

ساعة؟ قلت لها: "لم أشعر أنني نمت"

وضحكت تقول: "ليس على المريض حرج"

وضحت لي بعدما ذابت غشاوتي، وكانت الآن أراها وقد عقصت معظم خصلاتها في كتلة واحدة إلا من بضع قليل متمردة انهمرت من الغرة إلى وجنتيها. وتشممت منها رائحة صابون تنظيف، ثم رأيت بقع مبللة على ثيابها ونقاط من الرغاوي الجافة في نهاية ساعدها الأيمن. لاحظت محط نظراتي، فابتسمت مرتبكة ثم مسحت على ذراعيها الواحد تلو الآخر وقالت: "وجدت لك بعض ملابس مكومة في سبت الغسيل، فقلت أسلي نفسي ريثما تتيقظ" وكانت كأنما هالة روحها المشفقة تملأ المكان من حولي وتحصنه ضد أي هجمات سوداء شريرة. شعرت بدفء حميمي طيب، وكان هذا شعورًا مستجدًّا عليَّ منذ قطنت هذه الشقة، ملأ بسرعة فراغًا باردًا موحشًا بداخلي. قلت لها: "لا أحب أن أعرف أن بسبب ما تعاطيته قد أشعرك بخيبة الأمل فيَّ، لكن تلك كانت.. كانت حالة خاصة" أشعر أنني أتحدث بلا وعي، لست مدركًا لطبيعتي العقلية. أهذي

تحت وطأة منام رائق وردي ينعش نفسي ويخفف عقلي. أي حالة أمر بها الآن، أيكون كل هذا هو تبعات التحشيش؟ وتلمست حافة عيني دمعة كبتها على الفور وأنا أسمع درية تقول: "لا تولي للأمر بالًا، لست أول واحد أعرفه يدخن الحشيش"

- "هذه المشكلة يا درية" قلت بصدق: "لم أرد يومًا أن أكون كأي واحد آخر، شعرت أنني أتميز.. شيء سخيف حين أسمعه يصل لأذني الآن لكن هي الحقيقة، مهما بدوت فيها مغرورًا أو حتى ملحوس العقل. وحين كنت أجلس أمام شاشات السينما كنت أرى نفسي في البطل الذي ينجو، هو أمر تعيس ومثير للشفقة لأصدقك القول لكنني أدري أنني لست أنظر للأمر بمثل هذه السطحية بل بمنظور آخر مختلف. كانت تحيا تلك الفكرة في رأسي عند رؤية مشاهد معينة، تلك المشاهد الخطيرة، القاسية والمؤلمة التي نشعر فيها بالتوتر أو الخطر عندما تظهر بادرة لقرب نهاية بطل قصتنا، إما أن يموت أو أنه بالفعل مات. تلك المشاهد كانت تتيقظ فيها كل حواسي، وكنت أتعجب لدى النهاية حينما ينجو ذاك البطل بطريقة ما، أو تكون النهاية سعيدة. شيء بداخلي كان يرد على كل هذا بالتسخيف، كنت أرى في الأمر رخصًا واستهزاءً حقيرًا للواقع. وما كنت أمنع نفسي من التفكير والتفكير في ما سيكون عليه الأمر لو مررت بظروف مشابهة، لو حضرت مخاطر بعينها، لو واجهت شر حقيقي يهدد حياتي.. إلام سيصير الأمر أو كيف سأبدو وقت نجاتي؟ لا أدري حقًا يا درية لمَ أحادثك بمثل هذه الترهات لكنني الآن قد صرت حشاشًا، وليس على الحشاش حرج صح؟"

كانت قد جلست على الأرض إلى جواري مستندة على ركبتيها. كان وجهها قريبًا وبسمتها فيه حاضرة، وفي وسع عينيها رأيت بريقًا لجمال حاضر. لكن أغاظتني خصلة منسدلة تقاطع درب رؤيتي. فمددت يدي وبعفوية خالصة أزحت الخصلة جانبًا، وفي بالي حضر أكثر من خمسمائة مشهد رومانسي من أفلام ساذجة ابتذلت هذه الطريقة. لكنه يبقى شيء حقيقي أثره ملموس بالنفس. ربما هو الشيء الحقيقي الوحيد في كل هذه الصورة الجمالية. ثبتت يدي على جانب وجهها. استشعرت دفء وجنتها والملمس النقي الناعم لجلدها. قلت لها بصوت لا يشبه صوتي: "لا أدري يا درية ما بي، لكن كما قلت هي حالة خاصة"

لم ترد. إنما وضعت يدها على يدي، وقربتها من شفتيها. ثم شعرتها تلثم باطنها. قبلة جعلت ليدي مجرى دماء متجددًا ونبضًا خاصًّا. نهضت من رقدتي وبرفق جذبتها إلى عندي. ولم أعرف أن مجلس الأريكة الضيق قد يبلغ مثل هذا الوسع، ويتسع لي ولها. ضممتها إليَّ، وتنفست منها عبقًا هو معنى الحياة التي تشتعل بها روحها وينخلق منها جسدها فيأخذ اللحم والجلد من نفس الحرارة، من نفس مورد الطاقة. وضعت شفتيَّ على شفتيها فذاب وعيي في شكل آخر من ألوان الحياة أكثر طبيعية. وانزلق عنا كل ما هو غير طبيعي من ثوب أو غطاء يستر اللحم عن اللحم. وتحول وعيي في خضم اللقاء إلى الرؤى. ظلت تومض في عقلي في شكل لقطات ذهنية لا رؤية لواقع الأمر الجاري. وفكرت أنني لربما سبق وحدث لي هذا من قبل، إلا أنه خاطر تلاشى كأي شيء آخر عن بالي وصفا ذهني

للحماوة الحاصلة. ورأيتني ورأيتها في رؤى أيروتيكية، لتصورات عديدة مثيرة. "أخبريني لو آذيتك، فأتوقف" قلت بصوت يغلبه اللهاث. وأجابتني: "لن تفعل" ضمت نفسها إليّ، وسمعت الأريكة القديمة تصرخ أسفلنا.

غرد طائر في السماء، حسبته الليل ما يزال قائمًا والمسكين في السماء شارد. إلا أن نور النهار كان قد شع في الأرجاء حولي. فتحت عينيّ من وراء غشاوة ولم تكن درية بالجوار. إلا أن خمولي ذاب وانقشط لحظة جلجل إلى أذني صوت صارخ أفزعني عن الأريكة لأنهض إليه. كانت الضجة آتية من الشارع، ووراء الملابس المنشورة على أحبال الشرفة نظرت فرأيت تجمعًا هائلاً للبشر حول الطريق. ومن بينهم ومض في عيني خط دم زاحف.

٢٧

مازالت ملابسي رطبة، البنطال والقميص متجعدان. ومنظف الغسيل فيهما يزكم أنفي. جمال مصطنع، تزيين لحقيقة بشعة. أليس هو الواقع الذي نعيشه؟ اندفعت وسط الجمع من الخلق مهلهل الذهن والثوب. حشرت نفسي بينهم حتى وصلت إلى الأمام، إلى المشهد الذي يطوقونه. ثم تصلبت، تحجر كل ما بي. وفي صدري ضجت صرخة جوفاء لم تهجره. نظر لي الناس لثوان ثم عاودوا النظر للجثة المضرجة في بقعتها الدامية. وقال قائل من بينهم، شخص لم أستطع رفع عيني إليه سمعته يقول: "المسكينة رأيتها تخرج من تلك العمارة مستعجلة.. أو مفزوعة!"

ونطق آخر، استشفيت من نبرته المتزعزعة أنه مرتكب المأساة: "هذا ما حدث والله.. والله العظيم كانت تعبر الطريق هكذا، مذعورة. ومهما حاولت كبس الأبواق لتنبيهها كانت لا تلتفت.. كانت غافلة تمامًا وحاولت والله الانحراف عنها إلا أن المسار كان قد اصطادها!" ظلت عيناي ثابتة عليها، لا تفارق براءة موتها والشخوص الهادئ في عينيها. وفي لحظتي هذه كنت لا أزال أشعر لملمس لحمها على لحمي. وعاودت دمعة الأمس تتلمس حافة عيني، ولم تكن بي قدرة لردها هذه المرة فراحت تسيل على وجهي بدفء بطيء إلا أنني حين رفعت لها يدي لم أجد لها أثر على خدي. لم تكن موجودة، لم تتواجد بالأساس.

انسحبت من بين الناس، وعيني لا تكاد تغادر النقاط المتبعثرة بجوار اللطخة الحادة عند مقدم السيارة المستوقفة أمام جثمان درية. لم تصل الشرطة بعد؟ تساءلت لتنبعث من نفسي سخرية مريرة كادت لتجعلني أضحك لولا اغتمام عضلات فكي. ثم ابتعدت بخطى غير مستقرة هامدة يتجلى فيها رواح طاقتي. خطوات قليلة حتى توقفت.

- "العين بالعين وبادينا من ظلم!" بنظرة متخابثة وفم باسم مفغور. نفس الوجه والتعابير لاقاني بها توكل ليلة رجعت وسلوى معي من السينما. تلك الليلة راقت فيها الدنيا وتوردت بشكل غير محسوب لم تنغصها إلا نظرتين. نظرة أولى لاقاني بها توكل بمدخل العمارة، ونظرة ثانية ختمت بها ليلتي وقت لقاني عكاشة. تلك النظرة لا تخفى عن وجهه الآن وهو واقف على بعد أمتار مني وراء الحشد. وإن كان منفرج الأسارير تحت سقف النهار ففارق الأمر ليس بالكبير تحت سقف النهار المصطنع في ليلتنا تلك. شعرت بالإعياء. ارتفع الخوف إلى حلقومي. صدني الخوف عن أي حركة للأمام، عن قدح وقود الغضب الخام الذي أعلم يقينًا بوجوده تتكدس به خزانات نفسي، إلا أنني.. تراجعت. غلبني الخوف وشيء آخر من نفس الطعم فاح مذاقه بفمي. تراجعت، عاودت النظر للأمام ولم أكرر النظر خلفي مرة أخرى. وفي هذا كانت خطواتي تتسارع وتتسارع إلى حد عدم انتباهي أنني قد بدأت أركض. نفس الشر بوجهه، بوجه توكل. كلاهما، كلاهما من نفس الشر!

توقف! توقف يا قلبي عن الصراخ! إنني أضج وأضج بنبض متسارع خفاق يزخ الدفقات تلو الدفقات من دمائي في سريان جارف شديد. لم تتوقف قدماي، وإنما لم أعد أركض. حافظت على خطى متوازنة لكن سريعة حتى لا ألفت لي الأنظار. كي أبدو في حال طبيعي، وبجوفي الجنون سارح! ساقتني قدماي بعيدًا وبعيدًا عن موقع العمارة، وعن الحي بأكمله. ما ذنبها؟ ماذا فعلت! وماذا أنا فعلت؟ أشعر بشيء معدني غليظ يقرص على لحم صدري. أشعر بالعفن، بالعفن يتسرب إلى داخلي، روحي تتآكل. وقلبي تكاد تختل نبضاته، يوشك على التوقف. سيتوقف إثر انفجار كل أعضائي التي أخذت كفايتها من دمه وصارت مستوى الضخ إليها فوق الحاجة، مرتفع بشكل خطير. جبيني محتر، العرق يتكوم عليه وينهمر منه كما ينهمر المطر من سحابة في نوفمبر. أحاول تنظيم أنفاسي، أحاول الإبقاء على وعيي لكن تظل الحياة مهتزة. وجوه المارة غائمة. وإنني أشعر بأن حياتي تتسرب. عكاشة؟ أكان فخ انقدت إليه بحماقتي؟ فخ لمأزق خطير. أيًا كان ما حدث لدرية بداخل تلك العمارة فهو بالتأكيد.. بالتأكيد شيء فظيع. مازالت رائحتها ملتصقة، مازال جزء من روحها متشبثًا بعظامي. نظرتها الدافئة، قلبها بنبضه الراغب. أشياء كثيرة منها لازالت عالقة بعقلي، أقع تحت رزحها وكم يشعرني هذا بأنني مكبل ثقيل الروح. لم تكن لي شيئًا بالتأكيد لم تكن، وإن حسبتها كذلك في البداية إلا أنها لم تحسبني. نظرتين. ما زلت أشعر بنظرتها الحية وهي تطالعني، مازال بدني يقشعر بنظرتها الميتة المنصرفة عني إلى فراغ الكون المسالم. ولابد أنه عند لحظة معينة وسط هذا

التفكير المحموم لعقلي الهائج أن أجد جسدي قد اكتفى وترنح توطئة للانهيار. مثل هذه اللحظة بالذات. لذا توقفت. ولأول مرة منذ بدأت الركض أرفع عينيَّ للأعلى. أين أنا بالتحديد؟

واستدللت على المكان بسرعة. يا مولاي الرحيم، كيف وصلت إلى هنا؟

كنت في درب فراري الأعمى قد تجاوزت شوارع القلعة، حتى إذا استقر صوابي بعض الشيء، أدركت الآن أنني وصلت مدينة الموتى. واقفًا بحيرة يجول من حولي قاطنيها بنظرات مستغربة يرمقونني ويمضون إلى حالهم. مخرت كل الطريق إلى هنا! وبالأمام على مقربة خطوات استقرت في طالعي قهوة كتب على يافطتها، مجاهد. اتجهت صوبها بتثاقل، أحمل جسدي. كالمهتدي في صحراء التوهان. وحتى إذ لاحظت مقعدًا قريبًا خاليًا تركت لجسدي أن ينهار عليه. وكانت طاولات القهوة قليلة لا تتجاوز الاثنتي عشرة طاولة معظمها خالية. مكان ضيق كئيب، إلا أنه يصلح لاستراحة قصيرة. وما كدت استقر في جلستي حتى انتفضت ناهضًا أجري خارج القهوة، وبالجوار منها إلى حائط وقفت أفرغ كل العصارة الصفراء الحارقة التي احتشدت أسفل ذقني. وأحسست في هذا كأنما جوفي يتهرأ. إلا أنني وقتما انتهيت عاودني إحساس جديد، كأنما هو البعث. روحي صارت أكثر خفة. وعدت إلى مقعدي أمام نظرات النادل المتوجسة، ثم بادرته بطلب كوب شاي بالنعناع.

هبط كوب الشاي إلى جواري، وضعت يدي عليه أتلمس حوافه. وكان بصري يزوغ بين المارة. الحرفيين، أصحاب الورش،

الأطفال والرجال والنساء. أولئك قوم وجدوا الحياة في الموت، وجوار مقابر البائدين من المماليك أقاموا لأنفسهم مساكن مستقلة. حتى أن الأكثر الغالب منهم قد أمتهن حرفة الموت، التشييع الحفر والدفن. عبث وعشوائية مجنونة قلما توجد في غير بلدنا. لم تستقر عيني على شيء، وبالمثل فكري. إلا أن الأخير كنت أساهم في مراوغته، لا أريد أن أعيد ما مررت به، لا أراه، لا أفكر به. أريد ولو للحظات أن أنعم بصفاء روحي. بنقاء الموت. أنظر إليهم إلى انعكاس وجهي في وجوههم ويذوب بصري. السعادة تشبيه أما التعاسة فقصة، ألم يقل تولستوي هذا؟ يمر عليّ الوقت وأنا في شرودي غائب. سمعت الطنين خلف أذني فعرفت أن القهوة بدأت تزيد بالرواد. النهار يروح، كلٌّ يفرغ من عمله ويخلو للهوه. متنفس أخير في يوم راحل. شعور، مجرد أن يكون لهم شعور. ليسوا آلات لجني القوت، ليسوا أشباه بشر. حق بسيط يتعكزون عليه، ويسلمون به. ونظرت إلى اثنين كانا قد أخذا طاولة إلى جواري وبدأوا يرصون حجارة الدومينو. بمرح ظلا يلعبان ويتضحكان، وبرغم هذا لم تركز عيناي إلا على مدى تعاسة هندامهما، ملابس باهتة مبقعة بالعرق والعفار. نظر لي أحداهما وابتسم لي بالتحية. إلا أنني ظللت على حالي في تجهم. لماذا أشعر بهذا الخواء؟ وراح بصري للسماء أراقب ذوبان النهار. ومع مرور الوقت كانت قد استقرت فكرة ببالي. نهضت من مقعدي. ومن مطرحي بقعر الأرض عرفت أنني أخذت كفايتي وقت نظرت للشمس ورأيتها في انحدارها اليومي البطيء سارحة. غادرت القهوة وما كدت أتجاوز ثلاثة شوارع في الطريق الذي أخذته هاربًا

وأعاوده الآن متمهلاً، حتى سمعت أذان المغرب يصدح عن كل مآذن القلعة.

سأجمع أغراضي، ولأرحل من هذا المكان. هذا ما ثبت قراره في صدري لحظة وصلت إلى أمام العمارة وبقى الاضطراب كامنـًا بقلبي على حاله متزايد الضربات. كان المدخل خاليًا مهجورًا. لا توكل هناء ولا بديلاً له. وتبقى هناك حيرة في نفسي ألا ضجة حدثت بسبب اختفائه. لأهجر المكان كما يهجر المسكين بلد كريه، ولأترك ورائي أيـًا كان السر الغامض الذي يسكنها. والذي نحوه يظل فضولي راقدًا معتلاً وبنفسي خوف أفظع يلح عليّ بالطاعة والفرار. كل هذا فكرت به وتساءلت بشأنه بينما أصعد درجات السلم، وحيث وصلت الطابق الثالث متوجهـًا إلى شقتي بلا تمهل، استوقفت في منتصف الرواق. لم أتوقف لسبب محدد، إنما هو أنني مجددًا بدأت أسمع ذاك اللحن. اللحن المختلف الغريب على أذني، بدأ يعلو. برؤوس أصابعي لطمت جبهتي. أيعقل أنني لازلت واقعـًا تحت تأثير ما تعاطيته؟ فكرت أن هذا غير ممكن. كان اللحن كأنما هو نداء خفي، جذبني لأرجع عدة خطوات للوراء. وحيث درجات السلم الصاعدة، نظرت للأعلى نحو الطابق الرابع. مصدر الصوت يتأتى من خلاله، لكن ليس منه. المصدر أبعد وأبعد. وقفت لوهلة أتطلع في ذلك ثم زفرت القلق الحار عن صدري، ووضعت قدمي على الدرجة الأولى توطئة للصعود. ربما كنت أعرف الحل منذ البداية، منذ البداية هو قريب إلا أنه الشك والزعم بفرضية الواقع وما يحتمه العقل والمنطق برد جموح ما يتصف بالخيال. لذلك يبقى التوقع في بالي أن ذاك النداء

الملحن هو من نفس المكان. ارتعشت قدمي إلا أنني استبسلت وثبتها، ثم قبل أن أنطلق للأعلى، سمعت أقدامًا تقرع الدرج بالأسفل في تتابع وسرعة. عكاشة؟ نظرت بذعر عبر الفجوة بين السلالم ليتبين لي أنها هي الست نوال الكيلانية! تحجرت عينيَّ عليها، لكن حين رأيتها توشك على رفع رأسها للأعلى متنبهة تحت وقع شعور غريزي، تراجعت للخلف في لحظة حتمية. تسارع النبض أعلى وأعلى في صدري حتى كاد يخرق طبلتي أذنيّ بينما أتحرك بخطى خفيفة غير مسموعة وسريعة تجاه باب شقتي. ارتبك المفتاح في يدي في ثقب الباب. ضغطته، فارتد إليّ. عاودت من جديد فغُرس بتحجر بغير أن يميل. تركته ونظرت إلى يدي بغيظ. كان القرع على الدّرج لم يزل يرتفع، يقترب وبدا أنه في أي لحظة الآن ستصل إلى هنا. تنهدت في محاولة لضبط اضطرابي، ثم أمسكت بالمفتاح من جديد. هذه المرة لان في يدي، ثم دار في الكالون وانفتح الباب. لأج الشقة قبل لحظة وحيدة من هبوط نعلي حذائها رواق الطابق الثالث. تريثت وأنا أدفع الباب نحو الغلق. إلا أنني حين سمعت صوت قرع النعل يستكمل طريقه على الدرج الصاعد للطابق الأعلى توقفت. خرجت إلى الرواق مرة أخرى. وبتوتر تحركت إلى هناك، نحو السلم. نظرت للأعلى، ومن جديد أزفر القلق الذي يصهد به صدري. ثم بدأت صعود الدّرج خلفها. خلف النداء الذي لابد نادها كما ناداني.

٢٨

أعتقد أنني تغيبت عن عملي بما يكفي لجعل مدير المطعم يركلني إلى خارجه إذا أريته وجهي، وعلى العموم لم أكن لأفعل. أذكر أنني قلت لسلوى أنني لا أدري ما سأصير عليه بعد شهر، وفي ذلك ربما فهمت ما هو عليه حالي. إنسان هوائي، يرى كل الأشياء عابرة، مؤقتة الوجود. مهما غلا شيء عن شيء أو زاد في زهوه وقدر روعته. مثلها. عرفت هذا، أدركته وبالرغم وجدت شيئًا فيّ يستحق أن يحب. حقًّا، من يا ترى يفهم النساء. إنني دائم التنقل، دائم الترحال بين كل الأشياء. حر كجرادة لا تكف عن التقافز من مكان إلى مكان ولا تسعها أرض للاستقرار. أو أوهم نفسي أنني حر في بلدي التي تسخر من الحرية. هكذا يثار ذهني، وأنا أتابع بقفزات متروية على الدّرج. أنتظر حتى تسبقني بمسافة معقولة. طابق وحيد يفصل بيننا، ثم أتابع طريقي وراءها. مازال قلبي على حاله ينوي قتلي في القريب العاجل. لم أكن في يوم رياضي، لكنني مشيت مسافات طويلة. يمكن لقلبي أن يتحمل، مثل ما يمكنني العناد أمام كافة الهواجس التي تصدني عن الاستمرار. كنت في الطابق الخامس الآن. وقفت منتظرًا. طق طق طق. فليستمر النعل إلى حيث أدري أنه يستمر. الدرجة تتبع الدرجة والسيدة بخفة ورشاقة مازالت تصعد. لم تتوقف في طابق مما صعدتهم ولو لبرهة. إلا أنها -هذه اللحظة بالذات – توقفت!

وانتصبت أذنيّ كعود بث الإرسال. أهي فعلت أم أنه.. ابتلع صدى الصوت الصادر عن نعليها؟! قفزت على درجات السلم درجتين درجتين، بسرعة وبلا تمهل. عبرت الطابق السادس كأنني لم أعبره، مررت به إلى الدّرج الصاعد. نحو ظلام الطابق السابع. صعدت بلا تفكير، إلا أنني عند الدرجة الفاصلة بين النور والعتمة ارتبك ذهني فتوقفت بلا إرادة مني. كأنني كنت مشحون بطاقة ما، استنزفت بغتة ووجلت روحي لذلك الفراغ الذي أحدث بها. توقفت لبرهة، ولمّا لم يشر عليّ عقلي بفكرة ما تابعت المضي إلى الدرجة المعتمة واخترقت الظلام. ولحظة فعلت عاودني قرع النعل من جديد. لم يكن هذه المرة على دّرج، بل جاءني الصوت من فوق رأسي برواق الطابق الأعلى. نظرت للأمام في عتمة هذا الرواق حين لفحتني ريح غادرة لم أدر لها أي مصدر إلا أن جسدي تحفز لها وأقشعر. يا ربي العظيم، إنما يبدو هذا المكان مستقلاً بذاته، عالمًا موازيًا يفصله شعرة عن عالمنا. ووجهت بصري الذي تأقلم مع العتمة واحتدت ملاحظته إلى حيث درج الطابق الأعلى. وكانت الفكرة البارزة في رأسي حين بدأت أصعده أنني استوعب لمَ ابتلع هذا المكان كل أثر صوت عنها. هذا مكان منفرد بذاته، هو بالفعل عالم آخر أما هذا الطابق فما هو إلا مقدمته. وتيقنت من ذلك حين صعدت لتعصف بي صدمة حادة بعثرتني إلا فتات. لم أحتج ضوء، لم أرد أي نور صناعي. لكنني رأيت واكتشفت المدى المروع لما قد يفعل بالإنسان!

بلا ريب لم أحتج قداحتي. احتجت فقط أن أفتح عينيَّ أكثر ولا أغمضهما. احتجت ألا أخرّ في مكاني منهارًا صريعًا. احتجت أن

أزفر الأنفاس التي كتمتها، وأعاود تنظيمها في دخول وخروج. دعست بقدمي لزوجة انغمس فيها حذائي وغمرته. وبرغم هذا لم أستطع تحريك عينيّ، والنظر للأرض. تصلبت أراهم، على نور كشافات النيون الموزعة على عوارض الجدران بمسافات غير متباعدة بالأرجاء. بعضها مازال به رمق ضوء والبعض الآخر هلك من زمن كما يبدو. وكانت الأضواء غير كثيفة بالمرة، لسبب لا يخفى فقد وصلها كما هو واضح نسيج من نفس المادة التي دهست بها، وغطى عليها بطبقات وطبقات حتى صار الضياء الصادر عنها أملس ناعم ضعيف التأثير يزيد عن معنى العتمة بدرجتين أو ثلاث. لكن كان بالفعل كاف لأرى. لأراهم. وربما تحت سقف ضوء طبيعي لقلت درجة صدمتي في رؤيتهم للنصف. هو التأثير، والمبالغة التي يفرضها عليّ الموقف بظروفه. لكن تبقى الصدمة متأصلة. رجعتُ خطوة للوراء فضجت اللزوجة تحت نعلي بخفوت. ما جعلني أتصلب من جديد. حاولت زق أنفاسي، ثم تطلعت فيهم. في خلقهم الإنسانية وما صارت إليه. في الهواء معلقين. عشرات.. بل مئات الرجال داخل شرانق غشاؤها شفاف يأخذ صفرة السائل السابحة فيه أجسادهم العارية. معلقين هناك، أما ما يرفعهم عن الأرض فكان الشيء الذي ارتبك له تنفسي وزرع الهول في نفسي. ممص ضخم له لون دودة الأرض في حمرة اللثة وحجم ماسورة تصريف. كان كل واحد من تلك الممصات يقتحم خلوة الرجال في شرانقهم، ويمتد إلى الداخل حتى يتشبث بمؤخرة الرأس ويلتصق، في عملية مستمرة من التزود منها كنبع للغذاء والضخ بطول الممص. وكانت كل الممصات

متلوية متداخلة متشعبة على السقف العالي البعيد، والذي له شأن آخر إذ كان هذا الطابق بالذات لا طابق بعده. وما كان واضحًا أمامي من شكل التهدم العشوائي عند الحواف وفي الزوايا للحد الأخير المفترض عنده نهاية هذا الطابق بالسقف كما باقي طوابق هذه العمارة، فقد فهمت أنه تم توسيعه بل وإزالة الشقق بالطابقين الأخيرين الثامن والتاسع وضمهما على بعض ليتكون عن ذلك شكل بهو مفتوح. شيء يسع كل هذا. وقد كانت حواف الأفاعي الحمراء تلعب هناك تحت مشعات الضوء وتتكوم لكن ليس بارتخاء. فعلى ما يبدو أن بكل منهم كتلة عضلية متماسكة تمكنهم من شد كل هؤلاء الرجال، وتعليقهم لكن ليس بتلك الصورة المنتظمة، نعم بعضهم كان ينتظم في تشكيلة وتراص رجال وراء رجال بجانب آخرين فوقهم آخرين وتحتهم. إلا أن هناك آخرين من الرجال مشدودين إلى السقف أو الجدران، بتصفيفات غير منضبطة فبعضهم ملتصقة شرنقته بالطول وبعض شرانقهم مائلة بالعرض. لكن المشهد الوحيد الذي يجمع الرجال ويبدون فيه بسيمة واحدة. هو ما كان على وجوههم. وذلك هول آخر.

نظراتهم بيضاء وأفواههم مفتوحة كهوات لا قرار لها

في الحلم رأيتهم بهذا الشكل. تحت عينيَّ الآن يتضح ما شهدته في عالم المنام. نظراتهم بيضاء بالفعل، عيون مشدودة الجفون لا بؤبؤ يتوسطها. محيط واسع البياض تقاطعه أنسجة حمراء متعرجة، في شكل تلك الطفيليات التي تقبض على مؤخرات رؤوسهم. أما

أفواههم فلم تكن مفتوحة كما قال الحلم فقط، ليست منفرجة ثابتة في شكلها المظلم السحيق كما رأيت بالمنام، بل ثغور كل منهم مفتوحة بالحجم الطبيعي تنغلق وتنفتح وبداخل الفم يتحرك اللسان وتنتشر حول الرأس فقاقيع ثقيلة بطيئة. إنهم أحياء، لكن نيام. يتحدثون وهم نيام. الفكرة أن الشرانق التي تنغلق عليهم لم تحجم لهم صوتًا أو تحجبه بل.. وما يغذي الروع داخلي ويهز كياني، أن أصواتهم كانت تصلني. مموجة مضخمة متداخلة، ليست صرخات، ليست توسلات لنجدة، ليست صيحات ألم. بل ما بدا تحت عينيَّ أنهم يتحدثون بطبيعية، كأنما يحاورون شخصًا يرونه. ببطء تتحرك الشفاه والأفواه، يبطئها السائل. كأنهم أسماك. لكن هؤلاء يرون أشياءً لا أراها ويحكون.. يحكون عنها! **أنه كان يروي لنا ما يمر به الآن وما يلاقيه ومن يتحدث معه وما إلى ذلك من أمور أخرى تنطوي داخل عقله. إنه كان معنا في غرفة الجراحة، لكن في ذات اللحظة هو في مكان آخر يمر بظروف وأحداث ومحادثات أخرى..** وغاص قلبي للداخل أكثر وأكثر، وكلمات عماد في تلك الليلة التي جمعتنا تتوارد إلى بالي. إنني أتذكر كل ما قاله. بل وكأنما حفر في رأسي، ويزداد النقش عليه وأنا أرى هذا المشهد الحي أمامي. كيف يعقل، كيف بالحق يعقل! ثم ضرب سمعي وقع النعل في اللزوجة. لطمة الحذاء للأرض السائلة أفاقتني، ليكون إذن قراري ألا تراجع بعد ذاك ولآخذ الأمر كله على بعضه. سأتبعها، كما يبدو أن مسارها لم ينتهِ. وكدت أحرك قدمًا للأمام لولا أن رأيت بين الوجوه المعلقة وجهًا استطعت تمييزه. وتملكتني الدهشة لتعابيره المألوفة، وعرفته. إنه الرجل

صاحب القميص فاقع الألوان الذي أتى به عكاشة في ليلته تلك ليسكن بالعمارة. لم يتبادر إلى بالي تفكير وأنا أراه على هذه الحالة، لم يحضر برأسي إلا مشهد وجه عكاشة والشر الحاضر في عينيه وتعابيره وصوت المسكين الذي أمامي يتردد بالسب.

وبغتة سمعت النَّقيض

كما في الحلم، للصوت أثر خاص يتفرق ما دونه ويخفت تحت وقعه. بقي الرجال بأفواههم على حالهم إلا أن الصوت ذاك ارتقى فوق كل الأصوات. تحركت صوب المصدر بأكبر قدر من الخفة والحذر. أتوارى خلف الشرانق المتدلية وأصطدم ببعضها فأتفاداه. المكان شديد الاتساع، شديد الازدحام، لكن يبقى هناك فواصل تمكنني من التداخل والتقدم. صوت تقدمها يقتادني، إنها تعرف الطريق ولا تتوه وسط هذه المتاهة البشرية. وكيف لا تعرف وهي الصانعة. بقت عيناي متوترتين في محجريهما. أنظر في كل مكان، عين على الأجساد، عين على الممصات، وعين تحت قدميّ. وكانت أنفاسي متلاحقة. قادني تلاطم حذائها على الأرض اللزجة إلى زاوية يمينية هي البداية لرواق من نفس المكان. رأيته من مكاني، فمضيت أدفع نفسي بذراعيَّ بين الشرانق التي ظلت تتخبط بي وأتخبط بها. اندفعت إلى الرواق ومضيت على حالي، أجرجر قدميَّ في الأرض بزحف خفيف حتى لا يضج صوت حراكي إلى مسامع الست نوال. ثم عند منتصف الرواق، حين انتهت عيناي من دورتهما ورفعتهما عن قدميَّ وقبل أنظر إلى ممصات السقف لاحظت انحسار الشرانق بالمقدمة. تلك اللحظة

تشبثت في الأرض قبل أن أمضي لشبر واحد كاد ليقودني لتهلكة سريعة. الرواق لم يكن بالطويل، أو لم يطل حسبما توقعت. إن التهديم العشوائي في المكان يجعل كل شيء غير متوقع. أما المتوقع أو الذي يمكنني استيعابه الآن أنه بالنسبة لها فقد كان قدس الأقداس، صحن كاتدرائيتها الذي يتسع لكل هؤلاء، مريديها.. أم أقول مغذييها؟ آه اللحن، اللحن الصارخ. وقفت الست نوال على بعد ثلاثة أمتار من موقعي ونصف هذا من موقعها. لم تكن كالذي رأيته بالحلم، ذاك شيء مهما بلغت فظاعته فهو يكون نكرة مقارنة بها. كانت تملأ كل الواجهة بنهاية الرواق. هائلة الحجم، تبلغ نصفًا كاملاً لحيز غرفة. وردية نابضة، عيناها ضخمة ضبابية. عمياء. تصرخ كطفل باك. يندفن نصف جسمها بالحائط وراءها، لا يبرز منها إلا الرأس والبطن العملاق. فلم أر لها أي أذرع أو أقدام. برص بكامل التفاصيل، لكن أنثى. عرفت ذلك من نظرة وحيدة. بغير أن أنظر حتى للممصات المنبسطة على الجدران والسقف ممتدة إليها، إلى جسدها. ممصاتها، التي بها تستنزف كل هؤلاء. لكن ما جعلني أتيقن فلا أنزل عينيَّ عنها برغم فظاعة مشهدها، هو البطن العملاق المنتفخ. رأيت أشياءً تتحرك به، تتلمس من الداخل وتبرز حوافها على الجلد الخارجي. ونظرت فرأيت الست نوال توجه عينيها إليه أيضًا. ثم رأيتها وقد همت تقترب منها أكثر، حتى إذ كانت لصقها مدت يدها وتحسست البطن. فكان من الكائن بالحائط أن تحركت فيه الرأس المنحدر ذو البوز المدبب إلى قرب المرأة عندها. تمايل فيه الرأس لليمين واليسار، بينما تجس الست نوال البطن. ثم حين

انتهت، رفعت وجهها ببسمة إلى الأعلى ونطقت تقول: "نعم، كما قلتِ سيخرجون الليلة القادمة.. لا تقلقي هم بكامل صحتهم. نسل جديد مكتمل"

- "إذن، سيصير لنا إخوة جدد"

وسمعت صوته المألوف، لكن سبقته صوت لطمة حذائه في لزوجة الأرض. كان قريبـًا، ولولا الضجة المتفرقة بالمكان لانتبهت لوجوده أسرع. وانكمشت في هذه اللحظة وراء شرنقتي، لألاحظه يخرج من بعد ثلاثة على يساري. تحرك صوب الست نوال، وحين وصلها كانت بسمته حاضرة على شفتيه. متعرق كما العادة، نظر بتوتر وتهيب للكائن بالحائط. وقال: "أماه، مساء الخير!"

لم تجبه. إنها لا تجيب، خرساء الآن تمامـًا. ولا أدري حقـًا إن كانت تعرف الكلام، لو كان فإن الأمر سيصير بفظاعة أشد جموحـًا. لكن.. أماه؟ هذه المرة لم يكن الخوف ينقصني، كنت بالفعل ممتلئًا به، تتوتر له أعصابي وكل شعيراتي في موقفي هذا شائطة منتصبة. إلا أنه يبقى خوف مستجد، إعياء، حمى مفاجأة وتوتر مبالغ. وشعرت بالعرق يغمر جبيني، وتنزلق على وجهي نقاط منه ثقيلة. هذا الشعور. إنه هو، بنفس درجته وتأثيره. ونظرت إلى عكاشة، وكان يقيني أن هذا الإنسان.. هذا المخلوق هو صاحب التأثير. تلك هالة تحصنه وتتحفز ضد من يعاديه لذلك لم أشعر بها في بداية معرفتي به، وشعرت بها مرة حين هددتني الست نوال من صعود هذه الأدوار ومرة أخرى مع توكل. هذا شيء.. هذا شيء متأصل بهم. آلية دفاعية

ما، هو لم يشعر بوجودي بعد رغم أن دفاعاته نشطة، لو كان لهاجمني على الفور. يبدو أن طريقة عمل هذا الدفاع لا تأخذ في الاعتبار تنبيه صاحبها لوجود الخطر، أو شيء مثل هذا. الحق أنني لا أفهم، لكنني لا أود أن أراهن على هذا أكثر بوجودي هنا. جرجرت قدميَّ في الأرض وأنفاسي مأخوذة معاودًا طريقي، ثم في لحظة تالية تصلبت حين سمعت..

- "عكاشة، هذا.. أمسكه!"

قفز قلبي إلى حلقومي. وشعر بالبرد ينسج خيوطه بطول عمودي الفقري. لكن مع تأخر الهجمة المندفعة نحوي لم أفهم. وحين سمعتها تتكلم من جديد آمرة: "وذاك أيضًا، أنهما مستنزفان بالكامل!" التفت ورائي مقاومًا رجفة ذقني. ورأيت عكاشة يتحرك نحو شرنقة بأقصى يميني. رجعتُ للوراء بعدما عاودني شيء من الاطمئنان وتواريت خلف شرنقة لا يراني من خلفها لكنني أراه وما يفعله. وشاهدته ينطلق صوب تلك الشرنقة ويمد يده بحدة ليشد الجسد بداخلها. وأمام هذه الشدة لم يقاوم الممص المتصل برأسه ولفظ الجثمان عنه ثم انسحب الممص بخفة إلى السقف وظل يتضاءل ويقصر حتى انتهي إلى الجسد في الحائط واختفى فيه تاركًا منه جزءًا صغيرًا ناتئ يشبه الحلمة تحيطه بقعة دائرية حمراء.

- "وملابسه" نبهت عليه. فرأيته يتوقف لينظر للأرض، وبعدها انحنى وشد من أسفل الشرنقة الممزقة على الأرض ملابس كان قد غمرها السائل اللزج. ما جعلني في تلك اللحظة أنظر أسفل الشرنقة

التي كنت وراءها، ورأيت بالفعل على الأرض ما لم يسبق وألاحظه. إنها ملابس! لكل واحد منهم ملابسه متروكة مكومة أسفل شرنقته! وانتبهت على صوت تمزيق عكاشة لشرنقة ثانية بالجوار ليفعل بالجسد داخلها المثل. عندها لم أتمالك نفسي أكثر، رفعت قدميَّ وبدأت أسير. أريد أن أغادر هذا المكان، أريد أن أتنفس. أشعر بأنني أغلي. وابتعدت عنهما مسافة معقولة، حين بدأت أهمل الحد الأدنى من الحذر الذي كنت متمسكًا به. خرجت من الرواق، بسرعة في خطى مهرولة. وظللت متخبطًا، أتابع كل الأمور من حولي، محط قدميَّ، الشرانق، السقف. تلك الممصات تأخذ كل تركيزي، برغم أنها تبدو مسالمة إلا أنني لا آمنها لحظة، إنها ولا شك هي مفرزة كل هذه اللزوجة المنتشرة بالمكان. ثم أنزلت عينيّ عنها، لكن بدا أن ذاك أوانه تأخر بعض الشيء. فقد غفلت الحذر وتصادمت بسرعتي مع شرنقة اعترضتني، فكان أن تأرجحت هي للوراء وتعكزت أنا على الهواء لأهبط بثقلي في الأرض المغمورة. وشعرت بالسائل المخاطي هذا يغرقني، وجهي وشعري وملابسي. كلي غرقت فيه. وبالرغم بدا الاستسلام لي مريحًا، أردت لو أظل على حالي ممدد. أردت أن أنام، لكن برأسي دق ناقوس ما نبهني ألا وقت لهذا. ما زلت عرضة لتهلكة سريعة. وعليه انتفضت من مكاني، وحين وقفت مسحت وجهي وفتحت عينيّ وبعد ثلاث أو أربع محاولات عاودتني الرؤية واضحة، وكانت أول ما وقعت عليه عيناي هي الشرنقة. وبها رأيت وجهًا ألفته بسرعة. وجه آخر هنا في أرض الهلاك هذه أعرفه. إنه الفتى الذي رأيته في ليلة مقتل أم سلوى، رأيته مجذوبًا منقادًا من

كائنات أصغر من نفس الكائن الذي يتغذى عليه الآن. الحق أنني لم تعد بي قدرة على التصدي لخفقان قلبي ومحاولة ضبطه والسيطرة عليه. ذلك أنني لم أتمالك نفسي ورميت كل شيء وراء ظهري وبدأت الركض فعلاً. وفي السقف وسط هذا رأيت حركة مضطربة للمصات. إلا أنني لم أبال، ركضت إلى الدّرج، وعنده تنبهت بسرعة وتشبثت بالدرابزين حتى لا أنزلق وأنزله متدحرجـًا على رأسي. أثقلت قدميَّ على أول درجة، ثم بدأت أزيد في السرعة بعد قليل ويدي متمسكة بالدرابزين لا أتركه. هبطت إلى الطابق السابع، وفيه شعرت بأكثر من حركة في نهايته انفعلت للضجة التي أحدثتها بوجودي، وأكثر من شيء لمحته وراء ستار العتمة يندفع نحوي. وكان هذا حافز آخر لأترك نفسي للريح. وكنت أطير على الدرج لا أجري. نزلت الطابق السادس ولم تتوقف قدماي إلا عند الثالث. الذي فور أن وصلته بما تبقى من ذرات أكسجين تعبق بصدري، وجدتني وقد اصطدمت بجسد لين بدين، دفعني للوراء فارتطمت بالأرض وبفزع نظرت لحمودة المكوم هو الآخر في سقطته.

٢٩

نهض حمودة بخفة ونظراته المندهشة تترصدني. ونطق يقول لي: "ماذا جرى.. ماذا حدث لك؟" بقيت مخطوف الوجه مضطرب التنفس، لكنني استطعت أن أقول: "لا يهم، المهم أن نهرب من هنا حالاً.. أن نغادر هذه العمارة!"

جذبني حمودة عن الأرض، إلا أنه لم يترك يدي وجرني وراءه صوب شقته، وهو لا يكف عن الغمغمة: "أنشغل عنك بعض الوقت فأرجع لأجدك قد انزلقت إلى مصيبة جديدة!"

- "لكنها ليست جديدة" قلت بإرهاق. فوجدته يتوقف وينظر لي بقلق، فتح باب شقته وبمدخلها وقفت أحكي له كل ما رأيته بالأدوار المحظورة. بل وما حدث لي طيلة هذا اليوم: "هذه الأشياء.. المخلوقات، قتلوا درية يا حمودة! بسببي فعلوا هذا بها ببشاعة"

- "اهدأ يا كمال، تعال.."

جرني وراءه بغير أن يترك معصمي، لكنه في الأخير تركه وقت أجلسني على كرسي واسع بحجرة المعيشة. كانت شقته نظيفة مرتبة دقيقة التنظيم، نظرت إليها وللوهلة الأولى ظننت أنها ليست لعازب. وكان هنا بالغرفة تلفاز متوسط الكبر، يعرض على شاشته برنامج إخباري ما. وبدا أن حمودة لا يهتم به بتاتـًا، يتركه دائر فقط

ليستأنس بصوت آخر غير صوت الصمت الذي يشاركه سكنه. كل عازب وله طريقته في التصدي للوحدة. نظرت في عينيه، وشددت هذه المرة أنا يده إليَّ، قبضت عليها وشعرت النبض بها. وبدا أن الجنون قل في صوتي واستعدت شيئـًا من الاتزان بينما أخبره: "ماذا تعرف عن سحر الغجر؟"

ابتسم أحد جانبي فمه، ورأيت سخرية تلوح في عينيه: "كلام الدفتر، حقـًّا يا كمال أتصدق ما فيه؟"

- "رأيت ما رأيتُ، وحكيت لك عما شهدته بأم عينيَّ منذ لحظات قليلة ومازلت تستعجب الأمر.. مازال عقلك يتحفز ليصدني ويصدك عن رؤية ما يحيط بنا.. تلك الأشياء الكريهة التي تستنزف بشر هم مثلنا، ولا شك أن دورنا آت بعدهم.. كل هذا.. كل هذا ومازلت تحاول تغييب نفسك!"

لأتفاجأ به يقول من وراء ابتسامة صعبة: "ثقافة شعب"

- "لمَ لا تنهض يا حمودة، ولو حتى لتأخذ الأمر كسبق صحفي تفخر به في جرنالك!"

- "لن يصدقني أحد يا كمال، كل شيء سيتم طمسه والنظر له كحيلة رخيصة لجذب القراء، سيتم إعازة كل شيء للخيال وعلى ذلك ستلاحقني السخرية ما حييت، وتنتهي لي أي مسيرة مهنية كنت أرجوها!"

قلت بانفعال: "ليس إن أريناهم الحقيقة، ما يحدث أمام أعينهم ولا يرونه. الفظاعة الموجودة بالأعلى سيستحيل طمسها وقت عرضها، الكلمات بدفتر اليوميات ذاك ستؤكد عليها.."

- "الدفتر؟" قال حمودة: "نسيت أن أخبرك يا كمال، حين تركته معي لم أقدر النظر فيه ولم أقدر الاحتفاظ به. لذا مزقت ما تبقى منه وألقيته بالقمامة.. آسف يا كمال، حاولت جعل ما به منطقي قدر استطاعتي لكن مهما حاولت تبقى كلماته لا معنى لها، لها مذاق الخرافة!"

- "م.. مزقته!"

وكان به هدوء واستقرار لم أفهمه وهو يقول: "وعلى ذكر الخرافات، تلك الحكاية التي أخبرتني بها وتقول إنك رأيتها بالدور الثامن تذكرني بحكاية قديمة.. هي في الحقيقة من الميثولوجيا الإغريقية، حكاية لاميا مغرومة زيوس، تلك الحسناء فائقة الجمال ملكة ليبيا التي اشتهاها الإله زيوس وقت وقعت عيناه عليها. ما جعل هيرا زوجته تحقد عليها وتمسخها لوحش مغوي. جعلت من لاميا الجميلة، أداة لإغراء الرجال المشوشين وصاحبي النزوات كي توقعهم في فخ حسنها، ووقتما تفعل تستنزف كل دمائهم، تمتصهم لآخر قطرة. لُعنت لاميا بحسنها إلى أول مصاصة دماء عرفها التاريخ! أخبرتني إذن يا كمال أنك ضليع بالقراءة؟ وأرى أيضًا يا صديقي ولا تعتبرها إهانة؛ أنك على شيء من التشوش. غجر؟ وسحر؟ هؤلاء قوم لاقوا آلاف السخافات وطحنوا ونكل بهم تحت زعم هذه

الخرافات فقط لأنهم تعالوا على فكرة الحدود، أترى يا كمال إلى أي حد يصنع بالبشر الذين يسعون للحرية وكيف يوصمون؟"

لا أدري ما كانت عليه تعابير وجهي، لكنني كنت ممتقعًا لما قال: "أتقول إنني ابتكرت كل هذا من صنع خيالي؟"

- "بل أقول إنك في حالة صدمة، صدمة قد تصيب أي شخص بعد ارتكابه لفعلة القتل. بعدما قتلت يا كمال توكل تحت هاجس خوف من مرض غامض لم تعرف بشأنه، وحتى أنا نفسي لم أدرِ عنه شيئًا وهذا لا يقلل من مسؤوليتي معك عن ارتكابه. هذا الحق يا كمال وهذه منطقية الأمور"

قلت ونبرتي ترتعش عن اتزانها: "قد قتلوا درية يا حمودة!"

فانفعل بسخط حقيقي: "دعك منها إنها بغي قذرة، لا شأن لك بما حدث لها!"

إنه رجل به شأن مريب. لا يبارح هذا الظن بالي.

وقال بعد أن هدأ اللون الأحمر في وجهه: "سأحضر لك كوب ليمون بارد، تحتاج لشيء يخفف على أعصابك"

تابعت بنظراتي ظهره وهو يبتعد، وفكرت أنه يكاد ينفجر أو تخور كل قواه وينهار تحت رزح الضغط الذي يلزم نفسه به. إنه يصد نفسه عن أي تصديق. لا يريد أن يصدق، أم يريدني ألا أفعل؟

وجذب انتباهي صوت التلفاز، فنظرت لأرى مذيعة بارعة الحسن في ضيافتها رجل خمسيناتي في بدلة كحلية، بدا عليه أنه خبير في شيء ما أو هذا ما أضفاه عليه شيب شعره. كانت للتو طرحت عليه سؤالاً لم أسمع معظمه فلم أفهم مسار الحوار. إلا أنني رأيت الرجل يبدو رزين الهيئة وحين فتح فمه ليتحدث خرجت كلماته مستفيضة لها وقع مؤثر: "الغيبوبة في تعريفها الأكاديمي هي موت غير مؤكد للجسد أو مؤقت. يبقى العقل حيًّا، تبقى كل الأعضاء الحيوية حية، لكن الوعي هو ما يظل في حالة تائهة متخبطة وسط فراغ ضبابي غير واضح ما به من معالم نظرًا لغياب اليقظة الحسية. العقل حي كما قلت لكن المراكز العليا بالدماغ في حالة انفصال عن جهاز التنشيط الشبكي، بمعنى أن لا اتصال مباشر بينه وبين مركز الانتباه والتحفيز، فتظل حالة الغفو موجودة. ثم ننتقل من هنا للأمر الأكثر تشويقـًا، المثير هنا أن الإنسان يبقى مدركًا وينشط بفعل المحفزات الخارجية.. لكن إلام ينقضي أثر تلك المحفزات؟ أعني أين يظهر رد الفعل أو يبدو؟ فمثلاً إذا شممتِ رائحة طيبة ترتخي حواسك وتسعد، أما في حالة الرائحة الكريهة فأنت تنفرين أليس كذلك؟ إذن في كلتا الحالتين كيف يتم تبرير المصدر؟ وأنتِ يقظة تستطيعين استنتاج مصدر الرائحة، لكن ماذا سيكون عليه الحال وأنتِ غافلة لا يمكنك الحراك؟ كيف سيتم تصريف رد الفعل؟ العقل لا يهدأ، ولابد أن يعرف ما السبب الذي أدى لتلك النتيجة التي يحسها. فكيف يفعلها وهو محاصر داخل جسد شبه هامد، كيف يهدأ؟ حسنـًا إذن إذا كان دواؤه هو التفسير، فهو بارع.. بل شديد البراعة في النسج

والتبرير. لكن كيف؟ الإجابة هنا في كلمة واحدة، بالتخيل. هو شيء أقرب للإسقاط الرمزي لكن على نطاق أشد ضراوة وجموحـًا. وهنا ننتقل للسؤال عن كيفية الإقناع، كيف يقنع نفسه ويخلق منطقية للأمور الحادثة هناك داخل النسيج الذي أبدعه، في العالم الذي خلقه؟ إذا أردت أن تقنعني بشيء فوثقه بالزمن، الزمن جهة لا يسهل الرد عليها. وكيف نستدل عليه داخل ذلك العالم؟ لا نفعل، وهو بالضبط ما يريده العقل. إذ أنه بحدوث الغيبوبة يتعطل فورًا النظام اليوماري، الساعة البيولوجية خمدت. التواتر اليومي معدوم، فلا يوجد أي استدلال على التوقيتات بحسب الواقع المرتبط به المريض الذي أصابته غيبوبة. لكنه يبقى حيًّا ولو لفترة محددة لا تتجاوز أسابيع في أحسن تخمين، لكن نأتي لكيف أخري، كيف يظل حيًّا؟ أقول لك أن أي حياة لا تعاش بغير قصة. ومع تعطل النظام اليوماري يصير ربط زمام الوقت بالتخيل العقلي، حينذاك يصبح الوقت فضفاضـًا غير منضبط يطفو فوق حدود الدقة. ومن منا لا يريد وقتـًا مثل هذا؟ إنه يعيش بقصته التي نسجها أطول وأطول مدة تكاد لا تنتهي بكامل تفاصيلها الأكثر واقعية من الواقع نفسه. لكن هذا لا يعني أن العقل يعمل ضد صاحبه برغبته ليبقيه على هذه الحالة حتى الموت، بالطبع لا. الفكرة في طريقة التوجيه، حيث إن المحفزات الخارجية قد تعمل إلى الدفع به برغمه إلى هذا، ليجعل صاحبه في حالة سبات كلي. وتلك المحفزات قد تكون في الطبيعة الخارجية أو تنخلق على يد متحكم ما يريد توجيهه برغبته لهذه الحالة. لكن هذا واقعي صعب التصور، إلا أنه لو حدث فحيل العقل

لا تنتهي. أليس ما يحدث قد يصاغ بصفة احتلال، احتلال للعقل. في تلك الحالة يأتي دور عناصر المقاومة، فظاهريـًا يبدو العقل ممتثلاً لتوجيهات المتحكم لكن في الباطن يدبر العقل حيلاً لا تنتهي ليوقظ صاحبه. أليست ما يعيشها في ذلك العالم حياة طبيعية بكامل مرادفاتها؟ إذن ففي حياته الطبيعية تلك ينام ويستيقظ.. وأيضًا يحلم. وهنا يكون مدخل العقل، باب الحلم. يأتيه في هيئة أحلام فظيعة ذات إشارات وتلميحات منبهة، ويتابع العقل خطته هذه في انتظام وكثافة بأكثر من صورة. التي بنجاحها فإنه يفيق، لكن مع فشلها فإنه يبقى على حاله يمرح ويسعد ويحزن ويبتئس في تلك الأرض، بغير أن يدري أنه حبيس عقله."

كأنما كل الأطباء لهم نفس الفم. أسمع ما يقال وبرغم استنتاجي لطبيعة الحديث في هذا البرنامج، إلا أن حديث هذا الرجل يعيد النقش على كلمات عماد. غيبوبة؟ خيالات؟ أوهام؟ كل ذلك يروح معه ذهني ويصعد للأدوار المحظورة، أفكر في أولئك المعلقين السابحين في سائل أشبه بالسائل المشيمي الذي حفظهم في أرحام أمهاتهم وأخرجهم للحياة، ذاك إن يخرجهم لن يخرجهم سوى للممات. أفكر فيهم وغرابة الهيئة البادين فيها. يتلفظون وأعينهم بيضاء بأحاديث غير مفهومة. أهذا ما يصوره هذا الطبيب أو أقرب حتى إليه؟ إذن كيف ستكون نجاتهم إن كانت لهم نجاة!

بعد قليل مع كثرة المصطلحات التي لم أعِ بفهمها وتداخلها في بعضها، شرد بالي في الشاشة المضيئة. ولم تمر سوى لحظات عليَّ في هذا حين تذكرت عبد الجواد فهمي. وفكرت بقاذف اللهب!

نهضت من مكاني، وكان حمودة بالمطبخ أسمع صوت قرقعته وسط الأواني هناك يحضر كأس الليمون الذي وعدني. لكنني لم أظن أن بوسعي انتظاره وإطلاعه عمّا بخاطري. نظرت لساعة الحائط فرأيت أنها تمام التاسعة مساءً. وبخفة وغير تمهل انطلقت أخرج من الشقة، مضيت في الرواق بتوجس نحو الدَّرج. وبينما أنزله ظلت عيناي معلقة بالأدوار العليا مخافة أن يباغتني ما لم أحسبه. وحين وصلت الطابق الثاني احتبست أنفاسي حين سمعت ضجة مفاجأة قريبة بما لا يمنع التصادم عن أصوات أقدام صاعدة يصحبها همهمة لحديث حاد مبهم. تصلبت في مكاني وقد جف دمي، إلا أن هذا لم يستمر طويلاً. فإذ تكشف لي الصاعدون على غير ما حسبتهم. كانا زوجًا وزوجته، محتدًّا معها بسبب غلاء الأسعار والمصاريف التي زادت أو ما شابه. وحين لاحظاني رمقاني بنظرة متشككة مستغربة وتجاوزاني بغير أن يبادر أي منهما حتى بالتحية. تنهدت وقد اطمئن قلبي، أقلها لم يكونا من تلك المخلوقات. لكن.. حتى لو كانا، أكنت سأعرف؟

بعد نصف ساعة تقريبًا وصلت شقة عبد الجواد بعابدين. وقفت أمام باب شقته أطرق مرة بعد مرة بغير أن يأتيني رد، إلا أنني لم أكّل واستمررت. أعرف أنه بالداخل، يأتيني صوت قرقرة

النارجيلة متداخلاً مع أصوات من التلفاز. وبعد ثلاث أو أربع دقائق من الانتظار الثقيل والطرق الذي كاد أن يدمي يدي، سمعت صوت المزلاج ينزاح. لقد كنت متعجلاً بحد أن الانتظار كان ليكون قاتلاً لو استمر لوقت أطول. فتح لي عبد الجواد الباب، وطل إليّ بعينين حمراوين ورأس مخدر مهتز. ابتسم ببلاهة لمّا وقعت عينيه عليّ. وقال بصوت مبحوح به بهجة ثملة: "أبو كمال، تعال.. السهرة مازالت في أولها!" ولم ينتظر دخولي بل تقدمني وسبقني للداخل يتحرك بترنح. لم أنطق بكلمة، أغلقت الباب وتبعته. كان وحده بالشقة، يجلس في عتمة اختيارية مطفئًا كل الأنوار. وحين وصلت إليه وجدته قد تكوم على أريكة بنهاية الصالة يحتضن نارجيلته ويحملق في شاشة التلفاز الموصلة بعارض الديكودر الذي يهدر عليه كل أمواله في فواتير الاشتراكات الشهرية ليحظى بعروضه الخاصة من الأفلام الأجنبية. ولمّا رأيته قد انشغل عني بالشاشة يتابع فيلمًا لبول نيومان وكأنما نسي أن لي وجودًا، تركته على حاله هذا واتجهت صوب مقصدي. أعلم أنه لن يمانع أن أتحرك على راحتي بشقته. ذهبت إلى الغرفة التي يخزن فيها مشترياته القيمة من المزادات أو غيرها. دخلت الغرفة ثم مددت يدي أضغط مقبس النور على يميني، أضاء المكان ووضحت الرؤية تحت عينيَّ ولم آخذ بالوقت الكثير حتى وقع بصري على ضالتي. فكرت أنني لن أستطيع أخذ مثل هذا الشيء مكشوفًا في يدي إلى الخارج، وقتها ذهابي إلى وراء الشمس لن يكون صعب التصور. خرجت من الغرفة وبحثت في كل الشقة، انتقلت من غرفة إلى غرفة وبالمطبخ وجدت صندوقًا به سلع

تموينية، عندها لم آخذ وقتـًا أكثر للتفكير. أفرغته من محتواه وحملته معي إلى تلك الغرفة. وبها وجدت أن مساحة الصندوق مناسبة لحفظ هذا الشيء الخطير عن الأعين، ولمحت بالجوار في الغرفة كشاف يدوي ملقى بالركن مهمل غمره العفار. جربته فانفجرت من عدسته إضاءة ساطعة كادت أن تعميني، وحين أطفأته خلفت بقعة صفراء على قرنيتيَّ. خمنت أنني سأكون بحاجة إليه فوضعته بالصندوق، ثم حملته وأنا أهم بمغادرة الغرفة. لكن عند بابها توقفت كأنما انصعقت في مكاني حين لمحت بطرف عيني ما لم أولي له اعتبار في البداية إلا أنني للتو راودني خاطر مقلق عن صراعي مع توكل. فرجعت إلى الغرفة، ونظرت إلى خنجر الصيد في طول نصف الذراع المعلق في غمده على الحائط بمواجهتي. وفكرت أنه لن يضر إن استعرته أيضـًا. أنزلت الصندوق، وحملت بيديَّ الخنجر عن الحائط، سحبته من الغمد فلمع وميضه الشاحب في عيني. اطمأننت به ثم دفعت النصل إلى الغمد، ووضعت الخنجر وراء ظهري وأسدلت عليه قميصي.

كان للصندوق ثقل توترت له أعصابي وأنا أسير به إلى مدخل الشقة، إلا أنه لم يكن بذلك الثقل الذي لا أتحمله. لكن عند باب الشقة تذكرت أنني غفلت عن شيء هام. أنزلت الصندوق، ورجعت إلى عبد الجواد على أريكته. حين لاقاني أعترض مشاهدته للتلفاز رفع عينيه إليَّ مستغربـًا، لكنني مددت يدي إليه. انفرج فمه في بسمة غبية، وبرغم أنه لم يفهم إلا أنه مد يده وصافحني. فشددته لينهض،

وكم كان خفيفـًا سهلاً. ضممته بين ذراعيَّ في عناق رحيل جديد. ثم تركته وغادرت ليظل في مكانه واقفـًا يحاوطه الذهول.

عند باب الشقة، نزلت على ركبتي وفتحت الصندوق ونظرت إلى قاذف اللهب مرة أخرى، ثم هززت رأسي وقد تشبعت بالطمأنينة. إذا ظهر مسدس في قصة ما فسيكون من الضروري في النهاية أن يطلق النار. أرى الآن أي ضرورة كان يعنيها أنطون تشيخوف حين قال هذا!

٣٠

لو أستطيع حفظ الوقت في زجاجة... كانت هذه ضمن كلمات أغنية لجيم كروتش. منذ صدرت هذه الأغنية من سنوات وألحانها لا تفارقني. بشكل ما ارتبطت معي في الأزمات، كنت أستمع إليها كثيرًا في أوقات كثيرة أريد فيها لرأسي أن يلتهي ويصمت. أن أتحاشى رؤية الحياة، رؤية الناس. أن أنسى ولو لوهلة أنني هنا وسط كل هذه القذارة تكاد تخنقني الرمادية. زحام بشر هذه المدينة، المرور الصاخب العشوائي، المصانع الداخنة التي تقتل ورود الأرض وتحتضر لها طيور السماء. كنت أنظر لكل هذا، كنت أقف حائرًا وكانت تلفني ألحان الأزمة. ظللت أنصت للألحان الكامنة وراء كلمات هذه الأغنية، وأتمنى لو أقبض الوقت في يدي لثوان. ليصمت عقلي لثوان، ليتوقف البشر لثوان، ليتوقف الدخان عن القتل لثوان. ولكنني كنت أعلم أن شيئًا لن يفعل، في هذا الوطن ليس من المفترض أن يستمع لرغباتي. أذكر أنني توقفت عند لحظة معينة، كنت غاضبًا، بي سخط غير محدد المصدر لكنه يتفشى إلى كل شيء، توقفت وأمسكت شريط هذه الأغنية وحطمته بيدي. علني أستطيع لو أصمت شيئًا وحيدًا، ثم أقذف بنفسي وسط هؤلاء الناس. أضم صخب عقلي إلى إصخاب عقولهم، لأنني في النهاية واحد منهم، وجهي وجههم وروحي تحت سماء هذه الأرض تتآكل مثلهم. العجيب أو المستدعي

للسخرية أن لحن الأزمة لم يصمت، بل بتناغم ضجيجي إلى ضجيجهم، صخب رأسي إلى إصخابهم كان اللحن عاليـًا رائقـًا متأصلاً بنفسي.

توقفت أمام باب شقة حمودة والضغط المستجد على فقرات عمود ظهري لا يبارح تفكيري، تقلق مما يعتمل في رأسي من هواجس. إسطوانتا الغاز لهما ثقل واضح مقارنة بحجمهما الصغير وطولهما الذي لا يتعدى الذراع. وإن تصورت قبل عشرة أيام فقط أنني سأقف في رواق عمارة أحمل على ظهري بروبان خامل ونتروجين مشتعل، قابضـًا تحت ذراعي على بندقية قاذف لهب توطئة لفكرة مأسوية اقتنعت بألا غيرها سيكون فعالاً، لو كنت فقط تصورت هذا لما كففت نطح رأسي في أقرب عمود إنارة حتى يأتيني ارتجاج. وبهكذا هيئة وقفت أطرق الباب. بعد لحظات سمعت حركة بالداخل ثم أتاني صوت أقدام قادمة. ولحظة فتح الرجل الباب، ارتد إلى الوراء مفغور الفم جاحظ العينين. لم يصرخ أو ربما صرخ وتبخر الصوت قبل خروجه. بتوتر قال لي: "ك.. كمال؟"

- "مرحبـًا يا حمودة، كنت في طريقي للأعلى حين فكرت أن أسألك لو تود القدوم معي لترى بنفسك حقيقة ما يجري بالأدوار الأخيرة؟"

- "كمال.." قال حمودة محتبس الأنفاس: "أجننت؟"

- "والله لا أدري، كل ما حولي يشير إلى أن الواقع كله جنوني ليس أنا فقط" وتابعت بينما أزن بندقية القاذف في يدي: "لا ترتعب هكذا يا حمودة فتوترني أكثر مما أنا متوتر، ثم ماذا يرعبك؟ بالطبع لن أستخدم شيئًا كهذا عليك"

- "هذا ليس ما يرعبني يا كمال، أنا قلق عليك.. أتعرف كيف تستخدم هذا الشيء أصلاً"

فكرت للحظتين ثم قلت بتأن: "صادفتني بضع مقالات، نظريًا هو ليس عسير إلى هذه الدرجة.. ليس عليَّ سوى أن أضغط على هذا الزناد فينفتح صمام الخزان الداخلي للبندقية سامحًا لغاز النيتروجين المضغوط بالتدفق فوق موقد الإشعال الذاتي.. وعبر هذه الفوهة ينفجر خط النار! بمنتهى البساطة، لو تود أن ترى فما عليَّ سوى.." ومسدت بسبابتي الزناد بغير نية للضغط، فصاح حمودة بي: "حسبك.. حسبك ستذيب لحمي!"

فكرت أنني بالغت، وقللت من جدية الأمر: "آسف يا حمودة لم أقصد إفزاعك. لكنك قلت لي أن ما بالأعلى محض خيالات، لمَ لا تصعد معي إذن لنتبين حقيقة ذلك.. ربما أنا كما قلت مشوش واهم فيتأكد لي صحيح ظنك؟" صمت بغير أن ينطق، ربما اهتدى في النهاية أنه لن ينفع معي حديث وهذا صحيح. ورأيت في نظراته صراعه السابق وتردده في أخذ قراره، لم أرد أن أضغط عليه أكثر وأزيد من أزمته النفسية. قلت: "لا يهم يا حمودة، في كل الأحوال سأصعد أنا"

نظر إليَّ حمودة ورأيت في عينيه تشتت أفكاره وقال: "لمَ كل هذا التصميم؟"

وزنت كلماتي ثم نطقت بصدق حقيقي: "سلوى. هناك رسمة في غرفتها لشاب فوق حاجبه جرح يداري عليه بلاصق طبي، تلك الرسمة تحتل كل تفكيري تأخذ كل الحيز كواجهة عرض وراء عينيَّ. لذا أريد وأنا أراها أن أراها بسعادة فهي بالفعل رسمة مذهلة لا أريد أن تطل إلى بالي في وقت لاحق فأحزن وتغتم روحي. ما أقوله يا حمودة أن سلوى بالأعلى أشعر بذلك ويزيد شعوري بالتأكيد أنها حية، لا أدري ماهية هذا الشعور فسواء أكان صوابـًا أو خطئـًا سأراهن عليه الآن بكل شيء ولا أريد أن أتمهل أكثر فينفد الوقت ويبطل أملي"

قلت هذا وأوليت له ظهري. ثم مضيت في طريقي، لكن حين وضعت قدمي على أولى درجات السلم سمعت صوت الباب يصفق برجة. ولوهلة أحنيت رأسي خائب الظن إلا أن هذا انقطع لحظة سمعت حمودة من خلفي يناديني! نظرت إليه باستغراب فكان منفعلاً وجهه محمر: "انتظر يا كمال!"

ابتسمت: "يبدو أن لك قرارًا على نفسك في النهاية!"

- "داهية تأخذ جنونك، تحرك ولا تثرثر من فضلك!"

ما زلت أشعر بالسائل اللزج على قشرة رأسي، بجفافه تصلبت خصلاتي وانتصب بعضها في قامات مدببة أشعر بها عندما أمسح

براحتي على رأسي وأتفاجأ عند كل لحظة عفوية أفعلها. طال الجفاف ملابسي ووجهي وكان للأخير أن صرت فيه محدود التعابير. لاحظت هذا، جفافها السريع خارج عالمها وسيلانها المستمر بداخله. مادة بالفعل غامضة عجيب أمرها. لكن ماذا تراه غير عجيب وسط كل هذا؟

- "ألا تخشى أن نصعد لنجد عكاشة والست نوال مازالا بالأعلى متحفزين لنا؟"

بدأنا صعود الدَّرج إلى الطابق الخامس، وأربكني لوهلة السؤال الذي طرحه حمودة إلا أنني قلت: "لا أظن، كانا قد همَّا بالمغادرة حين قررت أن أسبقهما بالفرار"

صمت حمودة بضع لحظات وظلت من خلفي ضرباته على الدرجات ثقيلة تبعث على التوتر. ثم نطق يقول بصوت عافر ألا يبدو منفعلاً: "ما خطتك بالضبط؟"

خطتي؟ أمن المفترض أن يكون لدي؟

شهقت زخة كثيفة من الأكسجين إلى أنفي وتوقفت أزفره ثم نظرت إلى حمودة: "إبادة كل تلك الأبراص!"

حملق فيَّ بغرابة، وحين رأيت تفاحة عنقه ترتفع وتهبط يبلع ريقًا متوترًا أدركت أنه هاله الصدق في عينيَّ!

وحين استعاد تنفسه الطبيعي نظر إلى بندقية القاذف، وكانت نظراته بالفعل فيها خوف لا أفهمه وهو يقول: "من أين جئت بهذه؟"

- "من صديق"

- "شارك في إحدى الحربين العالميتين؟!"

ابتسمت وأدرت ظهري لأستكمل صعودي، وفي هذا أجبته: "لا، لكن عاشق لكل أفلامها!"

تجاوزت رواق الطابق الخامس وتابعت على الدَّرج إلى السادس، حاولت أن أتحرك بشكل أسرع لكنني كنت أعافر بالفعل تحت وزن إسطوانتيّ الغاز. كانتا تبطئان حركتي والحق أنني لم أكن في كامل طاقتي، كنت ضعيفًا خائر القوى لا يحركني حقًّا غير إصراري. فكرت أنني لربما مجنون بالفعل، وزنت البندقية في راحة يدي وأدركت أن الأمر يتعدى الظن إلى اليقين. إنني مجنون، أن ألقي بنفسي هكذا بسلاح لم يسبق لي تجربته بل لم أتأكد من فعاليته. ألم يكن من المفترض لو آخذ وقتًا للاستعداد والتفكير؟ وحطت عينيَّ على سطح البندقية فتصادمت مع الصدأ والخدشات التي تزينها. كل ما فعلته هو أن تأكدت بعجالة من مستوى الغاز وسلّكت بالزيت أنبوب البندقية على عتبة باب عبد الجواد فهمي. أرى أنني وهذا حق أعوّل على الحظ كثيرًا. ولا أرى غير هذه الطريقة المتهورة كحل، فلا أعتقد أن سلوى ستمهل ذلك الوقت حتى أستعد. كل ما أرجوه

فقط يا مولاي الرحيم ألا ينفجر هذا الشيء في وجهي مع أول لقاء لي مع تلك المخلوقات!

- "أخبرني يا حمودة، كم هي الساعة الآن؟" وقفنا على الدرجات الصاعدة للفجوة المعتمة، الدور السابع.

- "كانت الحادية عشرة إلا خمس حين خرجت إليك"

إذن فهي تجاوزت الثانية عشرة الآن. عجيب أن كل قصة رعب تبدأ بعد هذا التوقيت بالذات، في الأمر ابتذال حقيقي!

صعدت وحمودة إلى رواق الطابق السابع، ووقتما كنا فيه لفحت رائحة لا أدري ما هي فيها كراهة أنفي واضطربت لها معدتي. لكن حمودة بالرغم لم يبد عليه أي شيء مستجد وبدا هذا في صوته حين سأل: "أين تظن أنها موجودة بالضبط؟"

فككت الكشاف اليدوي من حزام بنطالي، ورفعت به إلى الأمام ثم إذ سطعت منه نافورة ضوء في مسار توجيهي قلت: "هذا المكان، لجمني الخوف عن استكشافه" ووجهت الكشاف نحو نقطة بعينها، فرأيت فيها أثر دامي لبقعة سوداء. نظرت لحمودة: "ألم نكن قد ألقينا بتوكل هنا؟" لكن نظراته أصابها جمود ثم لم ينطق.

الرواق يبقى على حاله مثل بقية أروقة العمارة، في طوله وعدد الشقق المتواجدة به. في الظلام كل شيء شاسع لا نهاية له، وهذا ما سبق وتصورته في هذا المكان. لكن برغم حلول الضوء ووضوح الرؤية الآن أجد أن الظلام لم يكن هو مصدر التأثير المروع وحده

بالمكان. الصمت، هناك حالة تلجيم لا أفهمها مطبقة. وبرودة معطنة تسرح بجو الرواق. وكان الظلام من حول سطوح الكشاف يطوقنا كأنما يحاول ابتلاعنا. تحركت للأمام، فسمعت حمودة يتحرك خلفي. مضغت ريقي بصعوبة وتابعت، وبقيت بيد متوترة تضم البندقية ويد تحرك الكشاف في كل الاتجاهات ولم أنس السقف، الذي كان داكنًا مغبرًا عليه بصمات صغيرة لأقدام أذكر أصحابها. وهذا مصدر الحذر، أن يكونوا فوق رأسي في موقفي هذا فتلك تكون مباغتة خطيرة. لذا عجلت بسيري نحو أول باب شقة، أريد أن أنهي ما قدمت لأجله في أسرع وقت ممكن. وإن كان لابد من المواجهة فلتكن البداية من عندي. قتلت منكم واحد فلا أجد ما يمنعني من أرفع أرقامي أكثر.

أمسكت مقبض الباب، فظل متحجرًا في يدي لا يريد أن يدور. حاولت الضغط أكثر ودفع الباب إلا أنه أهتز وأرتد في شكل صاخب. هذه الأبواب القديمة التعيسة! وفي نفس اللحظة سمعت وحمودة صرخة تتأتى من مكان ما، ليست آدمية هذا ما تيقنت به في سمعي الذي لم يتشوه بعد. إنها زقزقة حادة، ضغطة واحدة لنقيض ضاج ثقيل مروع. صعق بدني تو ما سمعته. ونظرت لحمودة لكنه لم يكن بجانبي. جلت بعينيَّ بفزع في المكان فوجدته على مقربة، نظر لي بتجهم ثم نطق يهمس: "تعال.. من هنا!"

تحركت نحوه بأسرع ما يمكنني. وكان يقف أمام جدار الشقة أقصى يسار الباب يطالع شيئًا لم أره من فوق إلى تحت. وقفت إلى جواره

ثم عرفت ما ينظر إليه. هذه المرة فجوة حقيقة ليست بمجاز. نظرت إلى يميني ناحية الباب وشعرت بخيبة لمعاناتي معه. كنا نقف أمام جزء مهدم من الجدار في شكل دائرة موسعة ترتفع حوالي قدم ونصف عن أرضية الرواق ملاصقة للسقف حيث منبت تهدمها. ثم لم يكن لدي الوقت لأنبهر بهذا، إذ سمعت صوت ضربات قوية لأقدام كأنما هي طائرة عن مستوى الأرض تحركها سريع مقترب يقصد بقعتنا بالذات. دفعت حمودة أن يدخل وبدا أنه لم يكن سينتظرني، ووضعت قدمي على حافة الفجوة ثم قفزت وراءه لداخل الشقة. ونظرت خلفي حين نزلت قدمي باطمئنان على موضع مستقر وشعرت بالفعل بأن الخطر يقترب. وجهت الكشاف أمامي، فبانت أرجاء الشقة في إضاءة صفراء. كانت مفروشة مجهزة بأثاث يزيد عن أثاث شقتي بالطابق الثالث إلا أنه هنا لحقه الإهمال وزحف الزمن فبدا الوضع تحت عينيَّ كارثي.

- "أين نذهب؟" قال حمودة. كان بالفعل الصوت يرصدنا، وأدركت أن أي تلكؤ سيودي بنا. لذا أشرت: "هناك"

ركض هو وركضت وراءه والإضاءة تزين لنا الطريق كي لا نتعثر بأي ما قد يعترضنا. واتجهنا صوب أول غرفة رأيت بابها المفتوح فلم أجد أفضل من هذا كعلامة خير. دخلت الغرفة وأنا أشعر بأن من يطاردنا خلف قفاي مباشرة. كانت الغرفة مجهزة بسريرين ضيقي الحجم، وعرفت من شكلهما وشكل الملصقات المغبرة على حوائط المكان وما بدا أنها لعب متناثرة على الأرض، إنها غرفة أطفال. ركضت

وأمامي حمودة إلى السرير القصي بالغرفة. وبسرعة تكومنا وراءه. جلس حمودة يلهث، وكنت إلى جواره ينبض قلبي في فمي. وتنبهت إلى أن أطفئ الكشاف، وحين فعلت لاحظت شكل أضواء الشارع المسترسلة من وراء ستائر النافذة المطلة عليه. وفي لحظتي هذه سمعت وقع الخطوة. لم تكن على الأرض، بل على السقف! خطوة للداخل تلتها أخرى وأخرى. وحبست أنفاسي ولم يحتج حمودة أن يفعل المثل فقد سبقني على الأرجح منذ مدة. إنه الآن على السقف، انتصبت كل الشعيرات على قفاي بتيقن. وشعرت بثقل على رأسي كأنما ذاك الشيء يقف على سقف جمجمتي. وبرغم القلق الذي توغل في كل أطرافي إلا أن الخوف لم يشلني تمامًا بل بقى بي فضول، فضول للتلصص. ملت برأسي إلى اليمين بدرجة حذرة ونظرت من وراء مؤخرة السرير إلى الأعلى. على جانبنا هذا في الناحية اليسرى للفراش نبدو خفيين تمامًا لكن هذا سيختلف لو تحرك من موضعه بضع بوصات فقط في عكس اتجاه النافذة، إلى فوقنا. وضح لي منظره على شذرات الضياء المبعثرة من الشارع. نظرت إليه ووددت لو أبلع ريقي إلا أنه كان قد تحجر.

في حجم كلب الدرواس؟ أرى الآن أنني كنت مستخفًا بدرجة فظيعة، بالأحرى في حجم اثنين مندمجين. إلا أنه تحت ناظري لم يكن كلبًا بل تمساح، تمساح ضخم قذر. قبوعه بمثل هذا المكان خلف عليه كل آثار الوسخ فحال لون ظهره البني إلى معتم وبرغم كل بقع القذارة تلك على حرشفته كان الشحوب بطول بطنه من الذقن والعنق ناضحًا. وهذا السبب الوحيد الذي يميز القذارة عن

لونه الطبيعي. كان ذيله يمرح من خلفه، يرتطم بخفة وبلا صوت في إطاريّ الباب الذي دخل من سقفه. عيناه مختفيتان وسط عتمة حراشفه، بالأحرى لأنهما تحملان نفس اللون. لم أعرف إلام ينظر لكن من حركة رأسه المتباطئة عرفت أنه لا يقصد شيئًا محددًا، مازال يبحث. متوقف برزانة وهدوء غير مبالي، ولا أظن أنني سأظل محتبس الأنفاس لوقت أكثر. عدت إلى موضعي الأول، واستندت برأسي بخفة على جانب الفراش. ثم بدأت أتفحص البندقية في يدي، أصابعي متوترة لذا أخاف وضع سبابتي على الزناد فينضغط لا شعوريًّا. لكن لا مناص من ذلك. أدرك أننا لن نظل مختبئين هكذا. زفرت النفس المحبوس، واستنشقت جديدًا دفعته بحرص وثقة ثم انتصبت واقفًا بحركة تباغت لها حمودة بجواري. وفي جزء من اللحظة كدت أن أنفث اللهب في الهدف الذي حددته من السقف لكن تلك البقعة كانت خالية! بحثت بتوتر في كل أرجاء السقف وعلى الجدران حولي، لم يكن متواجدًا. أين ذهب بهذه السرعة؟ كنت أسمع صوت لهاثي مازال مرتفعًا بأذنيّ، لكن علا عليه صوت آخر تبينت أنه الإجابة على سؤالي. صوت نحيب، بكاء يصدر من مكان ما. سلوى؟ نغمة النحيب تلك إنها وبلا شك لأنثى.

- "حمودة.. انهض!"

قال بلسان مرتجف: "إلى أين؟"

- "هيا، سنتحرك"

ولم أنتظره، وتحركت بحذر أو بتهور لا أدري نحو نفس المصدر الذي تحرك له كائن السقف.

يعلو البكاء، إنني أسمعه يتموج نحوي في علو وهبوط وتقطع. إجهاش مضطرب. تقدمت إلى طرقة واجهتني، نظرت إلى السقف وسبقني ضوء الكشاف ليحذر عن أي خطر قد يفوتني. بمنتصف الرواق ملت إلى غرفة على يسراي بابها مفتوح، كئيبة لا تسر الناظرين لم أفهم لأي غرض كانت. مضيت للأمام، وكان الصوت يقترب، إنني أسير مباشرة نحوه.

- "كمال!" قال حمودة من خلف ظهري، التفت له فأومأ برأسه للأعلى. ومرة أخرى أرى فجوة متهدمة تثقب الجدار قرب السقف على يساري من الطرقة. كدت أمر ولا ألحظ هذا حتى. وبقرارة نفسي آمنت أنها لن تكون الأخيرة التي أراها هنا. لحظة تجاوزنا الطرقة انكشفت لنا وسط الركام وشع الضوء الساطع في وجه تلك الباكية. كانت جالسة في نهاية الصالة وسط الأثاث البالي وشقف التهدم منهارة تحملق في شيء لم أدر معالمه. تصلبت وحمودة في مكاننا وحين رفعت الفتاة وجهها إلينا رأيناها مغرقة في دموعها تحول الوسخ على وجهها لطين وكانت معفرة الخصلات بالجير، بدت في كامل هيئتها بحالة مزرية تعيسة. نظرت نحونا والدموع تموج في عينيها، وقالت بصوت ضائع النبرة: "قتلوها!" تقدمت خطوة، فرأيتها تحول بصرها عني في زاوية خلفي. جمدت تعابير وجهها في شكل مريع، ثم انتصبت مضطربة الأنفاس. وظلت للحظة نظرتها مطولة مرتعبة

إلى ما خلفي، ثم تركت ما كانت تندب عليه وتراجعت ملتفة هاربة تجاه واحدة من الغرف.

- "انتظ..!" إلا أنها ولجتها وصفقت الباب من خلفها أمام نظراتي المصدومة. دورت وجهي فما كان خلفي إلا حمودة. وجهت الكشاف إلى الأسقف فلم أر أي شيء. قلت مأخوذًا: "ماذا كان هذا.. ألاحظت شيئًا؟"

هز رأسه وقال: "كأنما ظل مر من ورائي، ولكنني لم أكد أراه.. ربما التف ليلحق بها من تلك الفجوة!"

- "بغير أن يهاجمنا؟"

لم يرد. تحركت إلى البقعة التي كانت بها، فرأيت على الأرض جثمان لفتاة أخرى، ممزق العنق خلع أحد ذراعيه من المنبت في جذبة عنيفة فصلته عن الكتف ولم تترك عنه إلا أطراف لحمية صار لونها الدامي قاتمًا متجلطًا. وكان الغبار قد غطى وجهها وغمر مقلتيها فبدت ملامحها كأنما هي لحجر منحوت. وأشحت عيني عن ملابسها الممزقة التي كانت ذا لون سماوي فلم أشأ النظر إلى الجروح الكامنة أثر ذلك. هذه مسكينة تعرضت للانتهاك بأبشع ما يكون. تراجعت للخلف خطوة توطئة لأتقيأ أو شيء كهذا إلا أنني لم أفعل. لم يكن بمعدتي شيء. وتقدم حمودة خطوة ليتمعن فيها باهتمام. قلت: "هناك أخريات.."

وهرش حمودة في ذقنه، ثم قال: "لدي نظرية بشأن هذا.. لكن دعنا نلحق بالفتاة ونتبين الأمر أكثر"

ركض إلى الباب، وظننته أنه سيعوّل على مساندتي لفتحه لكنه لم يحتج إذ سرعان ما ركل الباب بقدرة لم أحسبها عنده فانفتح الباب بعدما انكسر لسان القفل، وبطرف عيني لاحظت شقًّا بليغًا بسطح الباب. مشيت وراءه، وهذه المرة كنا بغرفة نوم واسعة ذات سرير عريض لكن الفتاة لم يكن لها هنا وجود ولم نتفاجأ لهذا كثيرًا حين رأينا فوق رأس السرير مباشرة فجوة بالجدار.

وقفت على السرير وأطللت بنور الكشاف أرى ما بالداخل فرأيت دشًا، مغطسًا، مرحاضًا.. وفتاة مذعورة متكورة على نفسها في ركن الحمام لا تشأ النظر، تخاف النظر، تعمي عينيها في الأرض. تتلفظ بكلمات مبهمة مهزوزة، تنوح: "أمي.. مرة أخيرة.. أريد.. أريد أن أراها أرجوك، أرجوك.. ولو لمرة.. مرة أخيرة.. أماه!" هذا هو الخوف الذي لم أعرفه، وللمرة الأولى أراه متجسدًا أمامي. قرصت قلبي قشعريرة. تعرق جبيني وشعرت بتوتر أنفاسي في شكل صدري المرتفع المنخفض. ناولت حمودة الكشاف: "أنر لي الطريق.. سأخرجها من هنا" وارتكزت بمرفقيَّ على حافة الفجوة تلك اللحظة وقبل أن أقفز وضع حمودة يده على منكبي: "كمال، انتظر!" نظرت له غير فاهم، فوجه الكشاف مشيرًا. وجحظت بذعر لسقف الحمام، وكذا فعلت الفتاة. كان هناك يقترب بتحفز من فريسته المستسلمة. رفعت فوهة البندقية نحوه إلا أن المدى كان بعيدًا والجدار يحجب التصويب. لم

أصدق هذا، كان جسدي يرتجف ويتعرق. لم أصدق أنني قد أكون بلا حيلة لهذه الدرجة. ورأيت ما كاد يجعل عينيَّ تُبصق في تدحرج للأرض. في لحظة مباغتة صعقتني في موقفي، مد بلسان طويل مرن إلى الفتاة العاجزة التي هد الخوف أعصابها وشلها. كربج اللسان الهواء ونزل بتمكن ودقة نحو هدفه، التف حول عنقها وبدأت الفتاة تختنق ثم بدأ يضغط ورفعها في الهواء. كانت المسكينة تعافر وتخدش بأظفارها اللسان الجاف. لم أحتمل قلة حيلتي، وأجبرت جسدي على الانفكاك من ربطته. ثم استندت على حافة الفجوة مقاومـًا ثقل إسطوانتي الغاز، وكان حمودة يحاول جذبي إلا أنني نفضت يده عني وقفزت إلى أرضية الحمام لتتأخر إحدى ساقيَّ على السقوط السليم فأستلم ضربة الأرض لركبتي التي أحسستها في تلك اللحظة انشقت وتكهرب لها جسدي. إلا أنني قاومت ولكنني ما كدت أنهض باستقامتي حتى احتد في أذنيَّ صوت الانقصام. رفعت رأسي إليها و... ورأيت!

انقصمت عنقها، وفوق رأسي تدلى جسدها للخلف للأرض وظل وجهها للأعلى له. وفي صدمتي رفعت فوهة البندقية، ضغطت الزناد لكن اللهب لم يستجب!

فاح الغاز من الفوهة بغير نار. أرحت إصبعي ثم شددت الزناد فكان الفحيح أشد حدة ولكن بغير شعلة. نظرت للأعلى وعلى إضاءة حمودة تلاقت عيناي مع هوتيّ عينيه السحيقتين. أرحت إصبعي ثم سحبت الزناد بخفة لتراخي أعصابي مع انسحاب الإدرينالين، وفي

المرة الثالثة هذه طق شرر في منتصف خط الغاز خارج الفوهة، وانفجرت النار إلى السقف ولاحت للحظة في عينيه الواسعتين قبل أن تحرقه، تحرقهما. أمسكت النار بجسد الفتاة وجسده، وقبعت في موضعي أعتصر الزناد. انفصل اللسان، همد جسد الفتاة الصريعة على الأرض وصرخ كائن السقف في هسيس طويل غير منقطع. لا أدري كم من اللحظات أخذت إلا أنني حين رفعت سبابتي عن الزناد شاعرًا فيها بتشنج وألم كان قد سقط من السقف ليشتعل معه كل المكان من حولي.

كان الطريق إلى الباب منغلقًا الآن. من حيث جئت، ركضت تجاه الفجوة. تركت البندقية تتدلى مع خراطيمها المتصلة إلى خلف ظهري، قفزت وأمسكت بكلتا يدي الحافة. وبلا شيء استند عليه كانت الفتحة تبعد أربعة أقدام عني. عافرت تحت الرزح على ظهري لأصعد، وتأخر حمودة عن تقديم يده للمساعدة ما جعلني أشك أن النار ستطالني وأنا معلق بهذا الشكل أو أنني لن أصمد وسأنزلق وأسقط. لكن في الأخير انفك حمودة عن جموده ومد لي يده. عانقتها في تلك اللحظة بكلتا يدي، وجذبني بشدة مبالغة غير عابئ بكل ثقلي الذي يأتي من الوزن على ظهري، بل كأنما يجذب بالونة هيليوم ونفضني إلى الفراش. نزلت على وجهي وأحسست بصدمة الملة أسفل الفراش لجبهتي، وفكرت أي عاقبة كان سيكون عليها الأمر لو نزلت بهذا العنفوان على ظهري. نهضت بصعوبة ونزلت عن السرير. ونظرت لحمودة أقول بغيظ: "ماذا دهاك؟" لكن نظراته كانت منصبة على القاذف المتأرجح إلى جانبي ولم ينطق. ثم ما

أخذني من هذا هو أن سمعت النَّقيض ليس واحدًا بل أكثر، من أكثر من جهة. زقزقة صارخة تتأتى نحونا، وفي التو لم نتوان عن الحراك. خرجت من الغرفة وسمعت حمودة ورائي. جرينا إلى الصالة وبنهايتها وراء أريكة متعفنة بالية اختبأنا. ثم بدأت أحاول تصريف زفراتي في شكل هادئ غير لاهث لكن هذا انقطع وقت سمعت الحفيف المهرول على السقف في جزء لا يبتعد كثيرًا عن فوقنا. واحد مر ينطلق، وتخيلت شكل سيره المتعرج فاضطرب خفقان قلبي، ثم تفاجأت بثاني يليه وبعد هذا تلاه آخر وآخر..

مع ابتعادهم ليصير جو الصالة أكثر سكونًا شعرت بالأرجل الصغيرة تمشي على عنقي، تنكز لحمي. فضربت بكفي على موضع هذا الشعور فانهرس في يدي شيء لم أره.

- "حمودة، أعطني الكشاف"

أخذته منه وأعدت إضاءته بعدما اطمأننت لخلو المكان، ونظرت فرأيت على كفي صرصورًا مهروسًا في بركة دم أبيض. مسحت يدي في الأريكة وسمعتني أهمس بنفور: "ما هذه الأشياء التي تطوقنا يا حمودة!"

وسمعته يقول في نبرة تسليم: "هي أشياء غير مكتملة"

نظرت نحوه، وكان وجهه خاليًا من التعابير: "ماذا تعني؟"

- "ألم تر توكل وماذا صار عليه وما أمكنه قبلها أن يبدو عليه؟ آدميًا ثم متحولًا، ذاك فصيل مكتمل التكوين.. أما هذه المخلوقات

هنا فمختلفة، لا يمكنها أن تبدو آدمية قط بل تظل على حالتها الأولى وتبعًا لهذا يكون سلوكها.. المتأصل من غريزتها"

- "أتعني أن هذه أنسال..."

- "مشوهة؟ نعم يمكنك الجزم بهذا"

أحسست أن الكلام ينفلت مني وينبتر وأنا أقول: "وماذا تكـ..ون عازتها؟"

ظل حمودة على جموده لا يبادلني النظر: "بالطبع لهم عازة، مثل ما يجري بالأعلى.. تسيير الفرائس الذكور للأم. هم بالنسبة لها خدم، كائنات أقل في المرتبة.. تجارب فاشلة! أما الإناث اللائي هنا..."

وحول عينيه ناحيتي: "فنظريتي أنهن فرائس أخريات، لكن ليس للتغذية أكثر منها للتسلية!"

- "تسلية؟"

- "ألا ترى؟ المكان من حولنا كله فجوات، متاهة صنعوها، مكان مفتوح تمامًا للهو حتى لا تضجر المخلوقات هنا، ثم ترمى إليهم فرائسهم غير مقيدة بل متروكة سارحة وسط العتمة. يمكنهن الهرب، أو المحاولة. والفريسة المقاومة تبقى ألذ من البليدة المقيدة!"

- "يا للفظاعة!"

حاولت مضغ ريقي لكن الجفاف كان قد تأصل به. ولم أقدر على النظر لحمودة أكثر أو البقاء هنا قابعًا حتى تأتي تلك الكائنات وتطبق

علينا. نهضت وبسرعة تحركت إلى الطرقة ولمّا سمعت خطوات حمودة من خلفي قلت وعلى صوتي بحة خفيفة: "إذن، أراك قد صدقت الآن؟ بل وقد صرت تلتقط ما تراه من معطيات وتفترض نظرياتك" لم يأتني منه رد، بل لم أنتظر أن يقول شيئًا ولو قال لما سمعته. توقفت في مكاني أرتجف والعرق البارد يسري في كل أنحاء جسمي، وظل يرتفع ويشتد خفقان قلبي في أذنيَّ. وفي ذلك كنت أحاول تركيز تفكيري على الرسمة التي تحتل المكان وراء عينيَّ إلا أنها كانت تتشوش وتمتد لها أصابع العتمة، تغمرها كما يُغمر الأمل لدي.

- "ما بك؟" عدت للواقع من جديد، ومتجاهلاً سؤال حمودة تابعت السير تجاه مدخل الشقة. وهناك شعرت باضطراب معدتي من جديد لكن هذه المرة كان أشد حرقة وصخبًا، فأسرعت بعفوية تجاه أحد أركان المكان وأنهرت عند الزاوية أفرغ معدتي. خرج من فمي سائل أصفر ناضح شفاف، شاهدته ينزلق ومعه لعابي بعينين خاويتين. بعد لحظات هدأت، هدأ اضطراب تنفسي وسكن تفكيري. استندت بيدي على الحائط وحاولت النهوض لكن يدي غاصت بعض الشيء قبل أن تلاقيه. شعرت هذه البقعة غائرة بعض الشيء عمّا يفترض أن يكون عليه الجدار. لكن مع ملامستي لسطحه بدأت حواسي تتيقظ من غفوها. لم يكن ما ألمسه حجرًا بل سطح خشبي. وجهت الكشاف الذي كانت فوهته مائلة للوراء صوب تلك البقعة، وتفاجأت هذه اللحظة بفجوة حائطية لكن منسدة بظهر دولاب! وقفت على قدمي، ثم حركت الضوء بعمق المدخل إلى اليسار من الباب، نحو الفجوة التي دخلنا منها إلى الشقة. هناك

بالأمام فجوة، أما على الضلع الأيمن من الباب ففجوة أخرى لا أشك أنها تقود للشقة المجاورة. دفعت بكلتا يدي على الدولاب فتحرك قليلاً إلا أن الثقل ظل على حاله ولم يتزحزح، شددت نفسي أكثر فتيقنت من مدى ضعفي. وفجأة وجدت يدين تتطوعان لمساندتي. شد حمودة نفسه، وضغطت معه ثم بدأ ينتقل الثقل إلى الجانب الآخر الذي ارتفع على حزه، وبعدها انقلب الدولاب على وجهه ليسقط في هبوط قوي مكتوم. وحين سلطت الضوء في الداخل تصادمت رؤيتي مع رؤية عيون منفرجة مذعورة!

ثلاثة فتيات يحتضن بعضهن البعض في انتظار مصير مقدر، كن حبيسات هذه الغرفة المغلقة ولا شك أنهن من أغلقنها على أنفسهن حتى لا يطولهن ما بالخارج. فتاتان ربما تجاوزتا الثامنة عشرة والثالثة متجاوزة للخامسة والعشرين في أقل تقدير. ربما كانت هي حتى مصدر القوة الأساسي في دفع هذا الدولاب لسد الفجوة، وكانت تحتضنهما تحت جناحيها كأنما هما ابنتاها تريد حمايتهما. تشبهها إلى حد ما، جميلة عذبة، دافئة العينين. لكن ليست هي.

اندفعت للداخل، ورفعت كفيَّ أطمئنهن ألا يجفلن مني. وحاولت أن أكون مترفقـًا قدر استطاعتي: "لا تقلقن، سأخرجكن من هنا" وبدت في العيون استجابة لكن ظل الخوف على حاله. ثم لم أستطع تمالك نفسي عن السؤال: "ألا يوجد أخريات هنا معكن؟"

ظلت اثنتان تحملقان في وجهي بلا استجابة، هاتان خسفهما الرعب والجوع فغفي الذهن لديهما. لكن الثالثة، أكبرهن وجهت نظراتها صوب زاوية بعينها من الغرفة.

سمعت لحن الأزمة يرتفع في أذني، حاولت مضغ ريقي لكنني لم أقدر. شيء للتو مر من صدري وأحدث بمروره فراغ لم ينسد. اقتربت من تلك الزاوية وعندها انفلت الكشاف من بين أناملي وسقط.

في منامة ليلكية من المخمل خفيفة تكشف كتفيها وتبرز منها ذراعيها، وينسدل شعرها في شكل عفوي على ظهرها. وتحت ضياء قمر تلك الليلة، بهرتني وقت سقطت عيناي عليها.

في ليلتي هذه كان الانبهار متواجدًا، لكن مختلف. خصلاتها متناثرة حولها على الأرض، وتحت عينيَّ في منامتها الليلكية البالية بدت كأنما هي أميرة في إحدى قصص الخيال شفتاها غزاهما خريف قاتم، عيناها مفتوحتان على وجهها الحليبي البارد علق في إحداهما خط زاحف لدمعة حمراء لم تتجاوز خدها.

* * *

تنبهت إلى إحدى الفتيات تشهق بارتعاب، وكان الكشاف قد صنع دائرة مركزة كأنها القمر الشاحب في وجه الحائط. التفت للوراء بعينين مطرفتين بما يشبه الدموع، وعلى الانعكاس الخفيف للأشعة المتكسرة بقلب الحائط رأيت رأسًا وقد امتد من الفجوة قرب السقف يتفحص برؤيته الظلامية ما بالداخل توطئة للدخول. نظرت لسلوى للحظة وفكرت في احتضانها مرة أخرى، المرة السابقة كان لها دفء ملأ فراغ روحي. هذه المرة لن ينفع الأمر، إنها ليست

هنا، كانت ثم غادرت منذ مدة. ماذا لو كنت أقلد إحدى الشخصيات بغير أن أدري يا سلوى؟ ماذا لو بالفعل توحدت معها؟ كيف سأعرف أن فني غير أصيل ومن سيكشف لي هذا بمنتهى الصراحة والجنون المرح الجامح؟ وبمثل عذوبتك المتأصلة بنفسك البريئة الطفولية لن أقبل ألا يقول غيرك أنني لست بفنان أصيل.

رفعت يدها عديمة النبض وتمعنت النظر في أظفارها المهشمة الدامية، ثم لثمت باطن كفها.

ونهضت مع زحفه إلى الداخل، ثم باغتني صوت آخر بخارج الغرفة. واحد، اثنان، ثلاثة! هبطوا جميعًا إلى الأرض، أمامي لحظات معدودة قبل أن يدخلوا من الفجوة. فلأركز مع مشكلتي الحاضرة إذن ولا أتشتت مع المشكلات التي لم تحضر بعد. نظرت لحائط الغرفة فرأيته يتطلع فينا وذيله مازال خارجًا. تراجع حمودة إلى جوار الفتيات، وتقدمت أنا في الأمام منهم. ثم اعتصرت زناد البندقية في التصويب الصحيح، نحو وجهه، عينيه الحاقدتين الكريهتين. وصرخ الزاحف على السقف ليسقط إلى الأرض متشنجًا يلتف حول نفسه ويدور. وأردته أن يعاني فلم أوجه له المزيد من النيران. لكن وجهتها صوب الفجوة مع أول وجه جديد يطل منها.

- "افتحن الباب، سنخرج منه" صحت والصهد يلفح وجهي.

فسمعت إحداهن تنطق بصوت مخدر متعب: "انكسر القفل في حلق الباب.. نحن حبيسات هنا منذ مدة ولم نقو على زحزحة الدولاب للخروج" وحولت عيني إليها، فرأيت الفتاة الكبيرة تنظر

إلى سلوى في رقدتها مستطردة: "كسرته بينما تحاول منع واحد منهم من الدخول"

تاركة نفسها تحتضر ببطء جراء إصاباتها البليغة مكتسبات مواجهة لم تكن بالهينة، لم أتوقع غير هذا. واعتصرت الزناد وتقدمت في طريقي أصيح: "إذن سنخرج من هنا، أتبعوني!"

وحاولت قدر استطاعتي أن أمهد الطريق. أصابت النيران اثنين فتراجع الثالث يتحفز. ولم يمت الاثنان بل فزعا إلى نواحي لم أتبينها. صعدت فوق الدولاب المسطح ثم عبرت من الفجوة. النيران المضطرمة بالمكان تجعله أكثر وضوحـًا الآن، أمنت على السقف ثم أشرت بيدي لمن بالغرفة للخروج. توقف الثالث قبالتي بمترين، كان يتحرك بحركة محسوبة، يدور معي ويتلاعب ذيله في الهواء.

- "هناك! أخرجهن يا حمودة من الفجوة الأخرى بجوار الباب"

وركض البرص الضخم نحوي كجرو ينطلق لعناق صاحبه، ثم فتحت النار فهس وانقلب للوراء، إلا أنني لم أتركه ولم أغلق النار عنه حتى رأيته يسود ويسود ليتأصل مع المكان الذي هو منه، جحيمه بالطابق السابع. أقفلت النار ورائحة تفحمه تزكم أنفي، وحين ألتفت للوراء لأتبعهم تلاقت عيناي مع عينيّ حمودة لأرى فيهما سخطًا حاضرًا تفاجأت له. قلت له: "ألم أخبرك أن تخرجهن؟" وتجاوزته إلى الفتيات، وأرشدتهن إلى الفتحة بالحائط. خرج ثلاثتهن ثم خرجت أنا. وجهتهن إلى الدَّرج النازل، وعنده فور أن أدركن النور قصدوه سعيـًا. ركضوا على درجات السلم بغير أن يلتفتن، ورأيت هذا وأومأت لنفسي باطمئنان. ووضعت قدمي على أولى

الدَّرج. نظرت للأعلى، وكان مساري الذي قررته هو الصعود ليس الفرار. من هنا بدأت الأزمة واستشرت وتخلقت عنها مسوخ لم أدر أن لهم وجودًا. هذه أزمة يمكنني إسكاتها للأبد.

وصعدت لكنني فجأة استوقفت بعد ثلاث درجات على يد من خلفي قد جذبتني من منكبي وبشدة ردتني للوراء لأتعثر وأسقط. ومع سقوط ظهري على الأسطوانتين شعرت بألم فظيع، وفزعت أن يكونا قد تضررا. ثم نظرت للأعلى ورأيت عينيّ الحقد ذاتهما، نفس العينين بتوكل وعكاشة.. والآن حمودة! شعرت بالإعياء يتسرب إلى روحي. ثم سمعته ينطق: "هذا سلاح خطير بالفعل يا كمال، ثبت لي هذا بالتجربة القاسية" وتابع وعلى ثغره شبح بسمة: "الآن فليكفيني مجاراة وتظاهر، الأمر قد طال وصار مملاً!"

كان ممسكـًا بكشافي، سلطه عليَّ فأعماني الضوء ورفعت كفي اليمنى لأصد زخاته الشديدة عن عينيَّ. ولأول مرة ألاحظ ما غاب عني، لأتفاجأ برؤيتي ظهر يدي قد تآكل الجلد في مواضع متفرقة منه وانقشط كليـًّا بطول سبابتي، وكان الجلد بمقدمة معصمي شائط الشعيرات به حروق غير بليغة. لم أشعر بالألم لهذه الحروق، لكن الآن مع رؤيتي لها دب فيها الوجع. آه، وكأنني لم أدر عواقب استخدامي لتلك المحرقة!

- "تلك الرسمة التي أخبرتني عنها" قال حمودة "يتوارى فيها فوق الحاجب جرح بلاصق طبي، صحيح هذا ما قلته؟ إذن، أنا أرى جرح ليس غائرًا لهذه الدرجة لكن لا أرى ذاك اللاصق. أحسب أنك

لا تدري أيضًا أين ذهب، لم تنظر في المرآة بالأحرى منذ مدة.. ولا ألومك"

- "كنت تجاريني؟" قلت من وراء كفي "ما المعنى من هذا يا حمودة؟"

وفجأة شعرت بهجمة تخترق خلوتي، قبضتني يده من عنقي وبقدرة شديدة رفعني في الهواء كأن لا وزن لي إلى قرب وجهه، ولم أره فقد خفض الكشاف إلا أنني ميزت حوافه في العتمة الشفافة وذعرت للبريق في عينيه. ثم نفث أنفاسه في وجهي وهو يقول: "المعنى؟ المعنى أنني كنت لأجعلك تنصرف منذ قليل بسلام وبغير أن أؤذيك، كنت سأصطحبك وأعود معك بعدما ترتعب وتولي الفرار، راهنت على أنك ستخاف وتتراجع بغير أن تتوغل أكثر. أردت أن أجاريك لآخر مأساتك هذه، لكنك كنت قد عزمت أمرك بالفعل على اللاعودة.. هذا أربكني بالفعل ولم أستطع أن أفكر، وبالكاد وجدت خطة لمنعك. إلا أنك وقتما بدأت الحرق قضيت على كل فرصك في العودة بسلام وانتظار دورك كالبقية غيرك"

كنت أختنق في قبضة يده، شعرت بأن الحياة تتسرب مني وأنني على وشك فقدانها. حاولت الفرار من قبضته، عافرت في ذلك إلا أنها كانت محكمة ووقت ما بدأت أخور وأستسلم للقادم فك قبضته قليلاً ثم تركني. فهبطت مرتطم الجبهة بالأرض أدرك فيها تفجرًا عنيفـًا. حاولت الإمساك بالبندقية إلا أن يدي وقعت على فوهتها فسحبتها فورًا إثر لسعة ردتها للحرارة الكامنة بهذا الجزء. وسمعته يردف: "وقت فعلت هذا، شعرت بها. إنها غاضبة.. شديدة

السخط!" ثم شعرت بحمودة يجثو إلى جواري، ويعالج قفل الحزام الذي حول خاصرتي ويربط القاذف إلى جسدي. قلت بصوت متألم يائس: "حسبتك صديقي"

نظر لي وقال: "أردت هذا يا كمال لكنك قطعت كل السبل، لا تحسب أنني نسيت موقفك ذاك.. هو في الأساس ما جعلني أتقرب منك وأرى أن أقدم لك يد الود. أن تقف إلى جواري، لم يسبق وفعلها أحد قط، غطيت على انحرافاتي التي لو علمتها أختي الكبيرة الكريهة ما رحمتني. لطالما كرهتني واعتبرتني منفلتًا" وفكر لوهلة "تبقى آدمية.. إلا أن لها طرقها الخاصة في الأذية! ثم ماذا.. ماذا كنت تأمل أكثر، لقد ساعدتك.. ساعدتك بالفعل وتلطخت يدي بدماء توكل اللعين!"

- "أعطيتني النفثالين.."

- "وظلت صداقتك بعيدة.. صداقة بين آدمي و... بيني"

فك الحزام وشعرت بالأسطوانتين تتراخين عن ظهري. وتابع حمودة ينظر نحوي ويقول: "أتعرف، لو لا تصدق فإنني بالفعل فكرت قبل ليلتنا هذه أن أنصحك بالفرار.. أن أطلعك على كل شيء وأساعدك على الهروب قبل أن يأتي دورك قبل ما يأتيك الخدم ويسوقوك إليها. أنا لست مثلهم يا كمال، ولعلك رأيتني في خضم نزاعات كثيرة مع نفسي لكنك لم تفهم.. كان هذا صراعي، جانب آدمي وجانب ممسوخ والحرب بينهما محتدمة دائمًا!"

- "مازال يمكنك الانتصار لجانبك الإنساني يا حمودة"

وضع يديه على ركبتيه وانفرج فمه في ضحكة هازئة: "فات الأوان"

عافرت رغم الصداع الذي تتفتت له جمجمتي وتكلمت: "لم يفت، يمكنك التراجع.. يمكنك حرقها معي والتحرر من قبضتها!"

- "ألا تفهم قلت لك فات الأوان، وجودها نفسه لا يهم. أتحسب أنك لو قتلتها سيكون للأمر جدوى؟ مهمتها مكتملة، إننا منتشرون بالفعل وليس في هذه العمارة فقط!"

نظرت له بيأس: "ما ذنب درية وما فعله لها عكاشة، أفق يا حمودة أنت لست مثل هؤلاء.."

وطالعني بذهول، ثم ابتسم كمن يرى أبلهـًا ليقول: "بل أنا من فعلتها، ظهرت لها في ليلتها تلك معك بهيئتي الحقيقية. حقدت عليك وعليها، ورحمتك رأفة مني أما بالنسبة لها فلم أفعل. روعتها وانتقمت للتذليل الذي لاقاه جانبي الإنساني منها.. ومازلت تقول أن الأوان لم يفـ..."

لم يتابع، لم أتركه يفعل. وشققت بخنجر الصيد وجهه.

٣١

غاص النصل في عينه اليسرى. بدت المفاجأة الذاهلة في عينه اليمنى، ثم بعد لحظة استيعاب بدأ يتكشر عنها الغضب. كان الكشاف مستقرًا على الأرض موجه قمره الشاحب للحائط خلفي، وبدا ظلين انعكاسنا في تلك اللحظة كأننا في واحد من مشاهد هيتشكوك السوداوية. رأيت العروق في وجهه تحتر وتتقد فيها حمرة جهنمية، جعلتني أتوتر. ما كان سيكون عليه مصيري لو لم أحتاط بهذا الشيء؟ ولاحظت الجلد على وجهه يتشقق ويبدو من الفروجات وجه آخر بالأسفل وليد مخضب الدماء هيئته مروعة يود التحرر. إلا أنني أدرت النصل ولم أسمح له فخارت قوى حمودة. وقفزت فوقه. نظرت له بغيظ وكره وتوتر وقلت: "ما أخبرتني به داخل تلك المتاهة التي صنعها أقرانك.. نظريتك تلك أو كما اسميتها، أهي صحيحة؟"

قال بخور حقيقي: "لم أكذبك في شيء يا كمال.. أردت مساعدتك!"

ونظرت له لا أستوعب ما أنا فيه وما أنا مقدم عليه. هذا الرجل كان رفيقي منذ لحظات. وقلت له بنفس لاهث: "هناك محتجزات أخريات إذن.. ها؟ مازال البعض منهن حيات حتى.. صح؟!"

- "ربما.. لكن هناك المزيد أيضًا من إخوتي المشوهين والذين لا أظن ستستطيع تجاوزهم ومؤشر الغاز لديك هكذا.."

نظرت نحو القاذف واستوعبت ما يقول، الغاز بالأسطوانتين أقل من النصف. هذا.. هذا لن يكفي. وفي لحظة تفكيري هذه، انتهز سهوي وضرب برؤوس أنامله فشعرت به يخترق لحمي. وأمام الألم المباغت ضرب السخط عقلي ورفعت نصلي بسهولة من عينه: "لكن مازال يمكنني حرق أمك!" وهبطت بالنصل مرة تلتها مرة ثم مرات. حفرت به وجهه. وانفجر الدم في يدي وعلى وجهي. غرقت في موته. ولم أتركه إلا بعد أن تيقنت من همود جسده. وقفت فوقه متوترًا ترتعش يدي. ثم تحركت إلى القاذف رفعته على ظهري وعلقت الخنجر الدامي بحزامه. وقفت عند بسطة السلالم النازلة للحظة، ثم انطلقت على الدَّرج المجاور للأعلى.

لم يكن أحد بالأعلى إلا الشرانق والأم خلف مغذياتها. كان الألم في معدتي الممزقة يشتد ويبطئ حراكي، إلا أنني يجب أن أتحرك. يجب أن أقضي عليها قبلما يقدمون. ولا أدري إن كانت لحظات أمامي أو أقل. تجاوزت حشد الشرانق. تقدمت إلى البقعة المكشوفة، وللعجيب يبدو أنها كانت تنتظرني. غير حرة، جسمها نما داخل الخرسانة فتقيد. وقفت على بعد قدمين فقط منها، في نفس الموضع الذي وقفت فيه الست نوال. وللحظة رأيت انعكاسي بالكامل في عينيها الشاحبتين. وفيهما رأيت أيضًا انعكاس سيل النيران الذي انفتح عليها.

اضطرمت في بدنها النار. عضت اللحم وأكلت الجلد، وكانت الملكة تصرخ وتكابد ألمًا فظيعًا. ألمٌ جعلها تحاول الفرار من نيراني التي لم تنغلق، لم أرد ذلك برغم ألمي وبرغم الحرارة الحارقة التي وصلت كل ذراعي وأطبقت على صدري وعنقي تجلده. تداخل صراخها مع اللغو المحتد للرجال في الشرانق، ورأيتها في محاولتها تلك تدفع نفسها عن الحائط الملتصقة إليه. وكان كل تركيز ناري على البطن العملاق وما يحمل بداخلها. وفجأة رأيتها تتفسخ عن الجدار. مزقت لحمها وانخلعت عن عظامها اللينة التي تربطها بالصخر. كانت بلا أذرع أو أقدام. مزقت نفسها بنفسها وللحظة وحيدة وقفت في مطالعتي قبل أن تنهار على الأرض. وفي هذا تراجعتُ بسرعة للوراء. أوقفت النار وظللت أترقب منها أي حركة جديدة لأعاود الهجوم لكنها بالفعل كانت جثمان هامد سلخته النار. ثم رأيت الممصات من حولي تتقلص وتذبل ذبولاً سريعًا. ضمرت العضلات بها، وبدأت الواحدة تلو الأخرى في الهمود مفلتة الرجال المعلقين. وفي لحظة واحدة ضج المكان حولي بانفجار الشرانق في البرك اللزجة مع تصادمها بالأرض.

نظرت للرجال أنتظرهم أن يتيقظوا لكنهم لم يفعلوا، ظلوا مسطحين وانغلقت أفواههم في صمت أطبق المكان فساد في الجو شذوذ مريب انزعجت له. ثم.. بغتة! لاحظت حركة مستجدة ناحية الأم الملقاة. وضعت إصبعي على الزناد متأهبًا للإطلاق. لأنزل بعدها البندقية وأنا أحدق بنظرة متفاجئة مذهولة في تلك الأشياء قليلة الحجم التي بقرت بطن أمها لتتحرر بنفسها. أجنة من ذاك

الشيء، كتلة لحم ضئيلة تتشابه بشدة والجنين الإنساني إلا من جزء لحمي مدبب بأسفل الظهر. ذيل في حجم إصبع. كانوا يزحفون في مواضع متفرقة لم تزد أقصى مسافة قطعها أحدهم عن متر ونصف ثم همدوا كما أمهم.

عرفت أنه لابد راجع. كنت أراه أما هو فلا، مر بقربي تضرب سيقانه في الأرض السائلة. تلتصق وتفك، يغمر السائل المخاطي قدميه. أراه في هيئته الحقيقة، غاضب بوجهه الشر الكامل. تمعنت في بنيته الضخمة العضلية، في وجهه المدبب المبهق المنحدر وعينيه وسواد الليل القابع فيهما. منتصبًا عالي الطول في وقفته يمرح ذيله خلف ظهره وفي الأمام يتدلى بلا مبالاة عضوه منكمش متقشر الحرشفة. وكان مخضب الدماء بطول جسده العاري، كأنما بالفعل قد تحول للتو منذ لحظات. إنه الخوف بصورة شاملة. وشعرت بالإعياء يتوغل في روحي. لم يرني برغم أنه نظر إليَّ بل نظر إلينا جميعًا. كلٌّ في شرانقه، إلا أنني الحي الوحيد. أما هم فكانوا ثم ماتوا بغير أن يدروا. عرفت هذا وتيقنت من حقيقته القاسية. زفرت بصبر نفسًا هادئًا. شددت إلى صدري البندقية، وبيدي الأخرى ببطء بدأت أزيح القشرة التي تغلفني. وأنني أدري كم أن لهذه المخلوقات حواس فائقة لذا أسرعت. وباغته بقفزة لم يتوقعها، نظر نحوي بنهم وبلا تمهل فتحت النار المتبقية في مخزوني المنخفض بدرجاته الحرجة. لكن الوغد كان أسرع، تحاشي السيل ودار حوله برشاقة قرد! وهذا لم يجعلني إلا أكثر إصرارًا. من أجل هذه المباغتة دفنت نفسي هنا بانتظارك فلا يعقل أن يضيع ذلك هباءً. وطاردته بالنار، وكان بالفعل

خفيفـًا حركاته مزاولة. لكن عند لحظة بعينها حسب أنه تمكن مني وأتاني من ثغرة إلى يميني، وتقدم نحوي بسرعة بيد مخلبية تنوي تمزيق قصبة عنقي. لكنه لم يعرف أنني بحالتي المتوترة هذه كنت في حالة تأهب لم يكتسب بمثيلها قط برغم قدراته الفائقة. وطالت النار وجهه في استدارة مرنة التوى لها كاحلي. أحرقت النار مقلتيه، حاول الصد بيده ومعصمه لكن ضخ اللهيب لم يتوقف. أكلت النيران لحمه، وطالت من جديد رأسه. وقف أمامي عكاشة مفغور الفم يصرخ، وابتلع النار في حلقه. وكان على الأرض يحتضر حين وقفت فوقه: "كصاحب مكب خردة، أنت لا تذهب للمزادات كثيرًا!"

واستمر احتضاره لدقيقتين أو ثلاث ثم خفتت تشنجاته وانعدمت.

وقفت أراقبه في ذلك وصدري يهبط ويرتفع ولازالت تسفعه الحرارة في الجمرة التي أحملها كسلاح. كنت أنزف ببطء، أترنح في وقفتي وتنفسي مضطرب. وحين سمعت وقع الأقدام من خلفي تأهبت مشدود الأوتار والتفتت فكانت تقف هناك بالمقدمة وسط الجثامين الموزعة في كل حيزها. تقف هناك ولا تنظر نحوي بل تطالع كل المأساة حول قدميها. ثم حين رفعت عينيها تقدمت وبغير أن تنظر لي أيضًا. مرت إلى جواري على مسافة مترين ولم تبد عليها أي نية عدائية. ملامحها ساكنة، بعينيها رأيت جمودًا. وكانت ترتدي فستانًا أزرق واسعًا طويلاً غاصت حواف ذيله فيما يغمر الأرض، وتلف المنديل إياه حول رأسها. تجاوزتني متقدمة إلى الأم الميتة،

وكنت أقف متحاملاً على أعصابي أوجه صوبها فوهة القاذف والذي أثق أن مؤشر غازه في حالة شديدة الحرج الآن، لكن برغمي لا أجد ما أفعله أو أحتمي به سوى هذا. تحركت خلفها بالبطيء، ثم رأيتها لمّا وصلت للكائن المحترق بأن جثت بتبسط إلى الجوار منه. طالعت بعينيها منظر الأجنة الزاحفة، ثم عادت ونظرت إلى الأم في وجهها الذي أكلته النار فتبدا اللحم المحترق فاسدًا متعفنًا. إلا أنها مدت يدها ومسدت عليه برقة.

- "لا تنتظر مني أذية" سمعتها تقول "لن أفعل"

وبدهشة طالعتها بغير أن أقدر على النطق، مذهولاً أراها بدأت تفك المنديل المربوط. وكانت النتوءات البنية والشاحبة على رأسها العارية الآن أكثر عددًا وأشد فظاعة وقبحًا. قالت الست نوال وعيناها مازالت مصوبة إلى أمها: "لا شيء تخشاه، أنا مجرد امرأة تحتضر"

- "كيف؟" نطقت.

- "هو مرض ولد بولادتي.. مرض غامض آخر ومنذ ذاك واستمر ينتشر بجسدي وسيظل في تفاقمه حتى يقضي عليّ في أحد أيامي القليلة الباقية"

أرحت البندقية إلى جانبي، وبقيت أتطلع للحظات في وجهها وبدت تحت ناظري كأنما هي في صلاة ما تتضرع بنداء أخير للموت الجاثم بجو المكان. قلت بلسان مرهق: "ما سب.. سبب هذه المأساة؟"

- ألم تقرأ المذكرات..؟ أو على الأقل ما بقى منها" قالت الست نوال "لا أقول أن كل قبائل الغجر هكذا لكن بعضها أقسى من غيرها.. هذا شيء أعرفه." بدأ الألم يشتد عليّ، وشعرت جبيني باردًا. فكرت أنه لا جدوى من قتلها، هي بالأحرى هكذا منذ زمن.. فقط تنتظر التوثيق بالموت الفعلي.

- "سأغادر" سأخرج من هنا، لكنني أعرف أنه لن يهمد لي بال ولن يرتاح جسدي إلى سرير مشفى قبل أن أبلغ الشرطة بما يجري بهذا المكان. أريد أن أطمئن إلى إنقاذهم من يمكن إنقاذه وافتضاح هذا الأمر، سأطلعهم على كل شيء وليعينني ربنا على الحال الذي سأبدو عليه وهذا الجنون يتدفق من فمي، وأنا أروي لهم هذه الأحداث غير القابلة للتصديق. إلا أنني ليس أمام غير هذا ولن أفعل غير هذا إن كنت أنوي أن أنعم براحة بال ولو حتى مؤقتة. وقاطع سيل أفكاري صوتها الرزين الهادئ وهي تقول: "أنت لم تغادر أصلاً " تطلعت فيها بغرابة، وهذه المرة وجهت عينيها صوبي. نظرة رأيت ما فيها من جدية وصدق لعينين يجفل سطحهما بسائل الدموع. طبيعية ليست مثلهم، كائن مثالي. وقالت: "مهما ظننت يا كمال أنك ابتعدت، لن تبتعد أبدًا عن هذا الطابق!"

تركتها على حالها البائسة هذه وتراجعت أكابد ألم معدتي الممزقة. هبطت درجات السلم، وشهقت إلى صدري نفس أكبر وأنا بالطابق السابع وببطء زفرته وأنا أنزل الدَّرج إلى السادس. أهذا ما كانت تقصده؟ أن هؤلاء سيمنعونني؟ كانت الأبواب مفتوحة وسكان

شقق هذا الدور بل وبقية العمارة قد أخرجتهم الضجة من مخابئهم. كانوا يراقبونني يرصدون حركتي. ورأيت في عيون البعض بلادة وغير فهم وفي عيون أخرى كره لا يخفى. ثم فجأة رأيت واحدًا من بين جمع الناس يتقدم باندفاع نحوي وقد بدأ اللحم على وجهه يتمزق. لم أتركه ليصل لتحول كامل، عانيت هذا كفاية. وفتحت النار التي لم ترحمه، والحق أنها لم ترحم غيره. بل وضربت النيران اثنين كانا بجواره لا يفهمان ما يجري بل مرتعبان مما رآه على وجه جارهما. وكان آخر ما لمحته في ملامحهما وملامح آخرين هو الذعر قبل أن يتدفق اللهب. أيهم الفريسة وأيهم المفترس؟ لم أكترث كثيرًا للسؤال بل حاولت ترهيب الجميع مني، مسالم وغير مسالم لأؤمن طريق نزولي. نزلت بعد صعوبة من بين الجمع المشتت الصارخ إلى الطابق الخامس، وعلى الدَّرج إلى الرابع توقف القاذف معلنـًا انتهاءه الكامل. فح فحتين غاز ثم لم ينطق بعدهما شيء. تلك اللحظة فككت الحزام عن خاصرتي. ومع أول وجه اعترضني وأنا أسرع بالنزول رميت عليه الأسطوانتين. وبدأت الركض متدافعـًا وغير مستبطئ. متناسي ألمي النابض. وكان اللهاث يقرع بعنف في أذنيَّ وقلبي لا يتوانى عن عزفه المحتدم. ركضت بما لدي من طاقة، قفزت إلى بهو العمارة. وعندما تجاوزت البوابة وأدركت أن جيوش النور قد توغلت في الأراضي الظلامية وأن لها الغلبة الآن في صباح مشرق، لم أتوقف لمتابعة هذا برغم أنني رغبت. لكنني استمررت بالابتعاد والابتعاد وإن كففت عن الركض للاضطراب المعتلج بما وراء أضلاعي. لكنني في النهاية توقفت، بما أنني لابد في مرحلة ما أن أتوقف. كنت أجر قدميَّ

وأزحف، أتابع بعينيّ سرب الناس، الموظفين الذاهبين إلى أعمالهم، الأطفال إلى مدارسهم والأمهات إلى الأسواق. نظرت لكل هذا وقفزت عيني من وجه لآخر، لم أفهم. بعضهم طالعني باستغراب، بعضهم بشفقة، بعضهم بنفور. مهمتها مكتملة إننا منتشرون بالفعل وليس في هذه العمارة فقط! من منهم الفريسة؟ من منهم المفترس؟ إنهم كلهم.. كلهم يتشابهون. كنت فارغًا خاوي الروح، ينضح قميصي وسروالي بالدم. شعرت بالبرد يعصف ببنياني، يعصف بكل أفكاري، يهدم مباني ذكرياتي. ووقفت. راحت عينيَّ من بين الناس إلى وجهة زجاجية لنادي فيديو لم يسبق وألاحظ وجوده هنا من قبل، متى افتتح؟ نظرت حولي لأدرك أنني بشارع تحت الربع بمسافة ليست بعيدة عن مكان قهوتي. تقدمت بضع خطوات للواجهة، وتمعنت في الشرائط المتراصة على الأرفف خلفها. ثم توقفت عيناي على بوستر مصغر لواحد من الشرائط. فيلم Taxi driver وصدرت من فمي قهقهة مفرغة من أي شعور سعيد حي وأنا أرى وجه روبرت دي نيرو. وضمك لشفتك السفلى بتقوس للأعلى حينما تتكلم، شيء مميز.. ولطيف لا أنكر، لكن أشعر بأنه يتشابه مع شخص آخر.. حسنٌ يا سلوى، لست أقدر على مجادلتك.

تحولت الواجهة لحائل وامض، يكسر النور ويعكس الناس وراء ظهري. يروحون ويجيئون، مدينة اللاتوقف. هذه المدينة. كلٌ يتحرك، سواي.. وسواها. تقدمت من ورائي في صورة مجسدة حية، كأنها واقع. كأنها ملاك هبط للتو في هذه البقعة القذرة من الأرض.

لأول مرة يصبح الأمر بهذا الصفاء جليًّا لهذا الحد. إنني لم أكرهها، لم أخافها. بل إنني ممتن لأنني أراها، ولهذا أنا على يقين بحبي الشديد لها.

* * *

يأتيه في هيئة أحلام فظيعة ذات إشارات وتلميحات منبهة

* * *

وصاحبنا تحت تأثير هذا الانسجام الكيميائي النادر كان يمرح هناك داخل عقله يقفز ويتقافز على ذلك المرج الأخضر الواسع يحاول جمع كل ذكرى في حكاية واحدة، لكن المهم أنه حي فيها ويعيشها!

* * *

ويتابع العقل خطته هذه في انتظام وكثافة بأكثر من صورة. التي بنجاحها فإنه يفيق، لكن مع فشلها فإنه يبقى على حاله يمرح ويسعد ويحزن ويبتئس في تلك الأرض، بغير أن يدري أنه حبيس عقله.

وتوقفت جدتي إلى جواري، يدها على كتفي. تطالع انعكاسي وأطالع انعكاسها. نظرت في عينيها، وتذكرت ما قاله الحكيم يومًا في يوميات نائب في الأرياف؛ وماذا يبقى من كل تلك الأشياء العظيمة المقدسة التي لها في حياتنا البشرية كل الخطر لو نزعنا عنها

ذلك "الرمز" أبقى منها أمام أبصارنا اللاهية غير المكترثة غير جسم مادي حجر أو عظم لا يساوي شيئـًا ولا يعني شيئـًا.

ابتسمت إليها، وابتسمت إليّ. وذرفت دمعة، لم تخرج من عيني لم تلمس جلد وجهي.

لو أستطيع حفظ الوقت في زجاجة
أول شيء أود القيام به
هو ادخار كل يوم حتى تنقضي الأبدية
فقط لقضائها معك

خاتمة

تقدمت المذيعة بارعة الحسن وانحنت إلى مقعدها تجلس، لحظة واحدة تطلعت إلى جمهورها الذي لا تراه. ثم ابتسمت بعذوبة تمهيدًا لعرضها الريبورتاج المعد لهذه النشرة. ومن شاشة التلفزيون انبعث صوت جميل ركب على صورة أجمل، هو صوتها العذب تقول: "صباح الخير، نعرض لحضراتكم لهذا اليوم موضوعًا في غاية الأهمية، ليس جديدًا سبق بالفعل وتحدثنا عنه، لكن هذه المأساة لم تكن عرضًا مرضي زال بعلاجه، الأمر مستمر. للأسف وصل تقرير الشرطة مساء أمس حول العثور على جثمان آخر يحمل صفات مماثلة. جثمان يشبه سابقيه، وكان الجسد قد شوه نتيجة ما تعرض له فطمست ملامحه المميزة، جسم تم اعتصاره تمامًا، اعتصاره إلى آخر قطرة سائلة بجسده. جفاف عنيف أطبق عليه، كان الجسد حينما وجد شديد الشحوب متخشبًا في درجة مرتفعة، في غاية النحالة، جلد هو على عظام بالمعنى الدقيق، جلد مشدود بطول الجسد، وعلى رأسه وضحت علامات لتساقط طارئ للشعر نتيجة ضمور القشرة ليبقى الرأس في حالة صلع كامل. هو أمر غريب بالفعل، كأنما هو أن تم امتصاصه بالكامل ليظهر بمثل هذا الذبول. وفي ذلك لم يسهل تحديد هويته، إلا أنه وجد بالقرب من جثمانه العاري كومة متكورة عند تفقدها تم الاستنتاج أنها ملابس الفقيد

وقد كانت مبللة بسائل شمعي صعب تحديد نوعه، وفيها تم العثور على أوراق تخص الفقيد منها ما تم التعرف به على هويته. وكان الأمر بالحقيقة غاية في الغرابة، وبرغم أنها غرابة شهدنا بمثلها قبلاً إلا أن هذا لا ينفي ولا يرجح ابتذال صفة الغرابة فيها، الأمر بالفعل غريب. الجثمان في حالته الظاهرة يبدو وكأنما هو لشيخ في غاية الكهولة، أما الحقيقة فهي أنه شاب آخر. ٣٣ عامًا، شاب يدعى كمال علي شرف. شاب آخر، ويد المسؤولين مازالت مكتوفة. تساؤلات لا إجابة لها، وإلى متى سيظل غموض الأمر يعصف بأذهاننا؟

أما في التقرير التالي، فنعرض لحضراتكم أسباب موجة غلاء الأسعار القادمة والتي كانت لازمة تبعًا لجهود التنمية وإجراءات الدولة المتفانية في تهيئة المجتمع والناس في سبيل اقتصاد أفضل، ولأننا في برنامجنا نهدف لإثرائكم بكل جديد و.."

وظلت مبتسمة

وظل صوتها يأتي عذبًا

وظل لا أحد يبالي..

شيء من مخاوفه، أُفرغ من رأسه إليك في الصفحات الفائتة.

المحتويات

زجاجة الوقت

"لنتحدث عن الخوف. لنرى ما قد يخيفك. دعني أحكي لك عن وحوش الليل. وحوش هي هي تصاحبها بالنهار ولا تخافها. ولأنك لا تخاف إلا المظلم ولا تحب إلا المظلم. فسأحكي لك الليلة وكل ليلة ما يبطن بالليل."



حسام حسن سامي.

كاتب في مجال الرواية و القصة القصيرة.

MUHAMMED ELSAFTY

9 789778 651614